نشأة الفكر الديني وتطوره في عصور ما قبل التاريخ في بلاد الشام

الدكتور خالد محمود أبو غنيمة
كلية الآثار والانثروبولوجيا
جامعة اليرموك

ملخص:

يتناول البحث دراسة نشوء الفكر الديني وتطوره منذ بداية نشوئه في العصر الحجري القديم الأوسط مع قدوم إنسان النياندرتال، ومراحل تطوره في الفترة النطوفية والعصر الحجري الحديث قبل الفخاري في بلاد الشام، بالاعتماد على أساليب الدفن وعاداته، والفن والعمارة.

من نافلة القول أن الحديث عن الفكر الديني في عصور ما قبل التاريخ يعدُّ من أصعب الأمور واشدها تعقيداً وذلك بسبب غياب الوثائق الكتابية التي توضح وتفسر هذا الفكر في هذه المرحلة، إلا أننا، وعلى الرغم من ذلك، يمكننا الحديث عن وجود الفكر الديني عند إنسان ما قبل التاريخ من خلال إيماننا المطلق بما ورد في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف من أن الإنسان قد خُلق على الفطرة، وهي فِطرة الإيمان.

غير أنه إذا كان من المتفق عليه اليوم، حول واقعة أن إنسان ما قبل التاريخ كان لديه دين، فإن من الصعب، إذا لم يكن عملياً من المستحيل تحديد ماهية هذا الدين.

ولكن يمكننا الاعتماد في حديثنا عن الفكر الديني في عصور ما قبل التاريخ على الدلائل الأثرية التي تركها إنسان تلك المرحلة الزمنية البعيدة والتي يمكننا الاستدلال منها على أصول بعض الاتجاهات الفكرية الدينية الأولى. إن الوثائق والأدلة الأثرية المكتشفة في الحفريات المختلفة قابلة لترشدنا حول بعض المعتقدات الدينية، بالرغم من أنها مبهمة وقليلة التنوع: هياكل بشرية وبصورة خاصة جماجم، وأدوات حجرية، ومغرة حمراء، ومرفقات جنائزية وجدت في المدافن، غير أنه سيكون من العبث الاستنتاج أن هذه المعتقدات تمثل كل النمط الديني لشعوب ما قبل التاريخ. ويمكننا تحديد بعض الأثار الدالة على أصول الفكر الديني في عصور ما قبل التاريخ في حياة ذلك الإنسان والمتمثلة بأساليب الدفن، والفنون، والعمارة.

من المتفق عليه عند علماء ما قبل التاريخ أن حياة الإنسان في تلك المرحلة كانت عصيبة للغاية، حيث كان يواجه العديد من الأشكالات الحيوية المتصلة بكيانه الذاتي اتصالاً مباشراً من النواحي الصحية والدفاعية والغذائية وغيرها. ولم يتوفر لديه من الوسائل والأسلحة سوى بعض الأدوات الحجرية والعظمية التي تعجز عن توفير الأمان في حياته، بالإضافة إلى فاعلية العوامل البيئية المناخية والأرضية والحيوانية، وما تفاجئه من تغيرات طبيعية تهدد كيانه في كثير من الأحيان، مما يجعله في حيرة نفسية بالغة تؤدي به إلى التفكير في محاولة التخفيف من حدة تلك الظواهر الطبيعية، وبالتالي محاولة البحث عن وسائل الاطمئنان والاستقرار في حياته.

ومما لا شك فيه أن التجارب الطويلة التي مارسها هذا الإنسان حلال صراعه مع البيئة قد اكسبته العديد من الخبرات بالإضافة إلى الخبرات المتوارثة قد هيأت له امكانية التوصل لبعض الأصول الخاصة بتفسير بعض ظواهر الحياة من حيث كنهها وغايتها ومحاولة ربط ذلك بحاضره ومستقبله.

وبما أن الطبيعة البشرية تدفع بالإنسان دائماً إلى احترام كل القوى التي تؤثر في حياته، إضافة للخوف والفزع من كل ما يهدد بقاءه، فرضت عليه التوجه بفكره إلى

بدايات التصورات المتصلة بالسحر والدين اللذين ارتبطا عند نشأتهما إلى جانب العاطفة الروحانية، وأن يسعى إلى ما يقيه ويحميه مما يحيط به من اضرار، وما يساعده على استمرار حياته وبقاء جنسه· ونتيجة لذلك فقد استطاع الإنسان القديم الوصول إلى التفكير في عدة معبودات كامنة فيما يحيط به من قوى كونية وحيوانية ونباتية ومادية وأدمية يتوسل إليها لتساعده في الاطمئنان على حياته ومستقبله· ومن المحتمل أن الفكر الديني في بداياته كان مجرد حس ديني عند الفرد بمعنى ديناً فردياً، انتقل بعد ذلك ليصبح ديناً جمعياً أي أن الأفراد جمعوا ورشّدوا خبراتهم الدينية الفردية في اطر محددة، ثم تطور ليصبح الدين مؤسساتي وهو عبارة عن البنية المصطنعة، التي تقوم فوق الدين الجمعي، في المجتمعات ذات التكوين السياسي والاجتماعي المركب (السواح ١٩٩٤ : ٣٠-٤٣)(١).

وبالرغم من صعوبة تحديد تاريخ لهذه البداية، بسبب قلة الأثار المباشرة والكافية لذلك التحديد، إلا أننا نرجح أنها بدأت في العصر الحجري القديم الأوسط (Middle Paleolithic) مع قدوم إنسان النياندرتال· وتتمثل المظاهر الدينية في هذه الفترة بأساليب الدفن مع قيام إنسان النياندرتال بتوفير أماكن خاصة لدفن موتاه في مناطقه السكنيه تحت الأرضيات مترافقة مع مرفقات جنائزية (أبو غنيمة ١٩٩٨ : ٩٧-١٠٠)، ربما لاعتقاده بوجود حياة ما بعد الموت، وتماثل حياة الإنسان مع الظواهر الحياتية الحيوانية، والنباتية والطبيعية كالأنهار والكواكب· ولوحظ في العصر الحجري القديم الأوسط أهتمام إنسان النياندرتال بدفن الجماجم لوحدها مع احاطتها بحجارة في بعض الحالات (لورا-غورهان ١٩٩٠ : ٤٠-٤٨)(٢)· ويمكننا تلخيص أساليب الدفن عند إنسان النياندرتال بكونها كانت مثنية في أغلب الأحيان ضمن حُفر صغيرة وفي مدافن فردية، وموجهة نحو محور شرق-غرب، وهناك بعض الحالات التي تنم عن وجود عناية خاصة بالرأس من خلال حمايته بأحجار كبيرة، ووجود شواهد على قربان حيواني تم عند الدفن، ووضع مرفقات جنائزية مع جميع الأعمار تشتمل على

أدوات صوانية أو عظام حيوانية منتقاة وأخيرا لدينا بعض الحالات غير الشائعة عن نثر الأزهار والورود منتقاة بعناية (أبو غنيمة ١٩٩٨ : ٩٧-١٠٠)[٤]. ويتضح من تكرار هذه التقاليد وأساليب الدفن التي اتبعها إنسان النياندرتال في دفن موتاه في جميع المناطق التي انتشر فيها، كثني الجثة، ووضع حجارة على أجزاء من الجسم، وتلوين الجثة بالمغرة الحمراء، والعظام الحيوانية، ووضع المرفقات الجنائزية، أو نثر الزهور على الجثة، وكلها أعمال تدل على وجود شعائر دفن قائمة على موقف ايديولوجي متماسك من مسألة الموت، وعلى تمتعه بحياة روحية، وتنبى عن وسط فكري غني بالتأمل والأفكار المجردة (السواح ١٩٩٤ : ١٢٥-١٢٦، محيسن ١٩٨٩ : ٣٨)[٤].

وقد مارس إنسان النياندرتال في بلاد الشام عادة الدفن في أتجاه شرق -غرب، بحيث يكون الرأس في إتجاه المشرق والعقب في إتجاه الغرب، ومعظم الهياكل المكتشفة في العديد من المواقع كانت مسجاه على جانبها الأيمن ومطوية بشدة ضمن حُفر صغيرة، بطريقة تجعل الركبتين مضمومتين إلى الصدر. ويعتبر موقع كهف السخول من أفضل الأمثلة على أساليب الدفن حيث عُثر على عشرة هياكل عظمية بشرية، تراوحت أعمارها بين الثلاثة أعوام والخمسين عاماً، دفنت في حُفر قليلة العمق في وضعية الثني ودون مرفقات جنائزية مرافقة لها، باستثناء أكبر المدفونين عمراً الذي كان يقبض على عظم فك لخنزير بري (Garrod 1933 : 189-190; McCown 1937 : 104; McCown and Keith 1939 : 1-8; Arensburg and Rak 1979 : 293-294).

وباختصار، يمكن الاستنتاج بأن المدافن تؤكد الاعتقاد بحياة أخرى، وثمة بعض التأكيدات الاضافية : مدافن موجهة نحو الشرق، مشيرة للنية بتثبيت مصير الروح على مسار الشمس، حيث الأمل بعودة الولادة، أو من تجدد الوجود في عالم أخر، عقيدة في أستمرارية النشاط المميز وبعض الشعائر الجنائزية المعنية بالتقدمات لأدوات الزينة وبقايا وجبات الطعام.

ويمكننا الحديث عن النار بكونها من أول الظواهر التي نظر لها الإنسان القديم نظرة خاصة، وربما تقديسية في هذه المرحلة من خلال تعدد وجود المواقد في مواقع العصر الحجري القديم الأوسط واختلاف أماكن تواجدها، وتنوع أحجامها، إذ بلغ قطر البعض منها حوالي المتر، وتنوع وظائفها (محيسن ٢٠٠٥-٢٠٠٦ : ١٢٠)(٥)، إضافة إلى قيام إنسان النياندرتال بدفن موتاه بالقرب من المواقد ربما رغبة منه في أن توفر له النار الحماية والامان، أو ربما لاعتقادهم بأنها تستطيع إعادة الحرارة التي فقدها، مما يشير إلى استخدامها في وظيفة خارج الوظائف الخاصة للمواقد كالإضاءة والتدفئة والطهي (أبو غنيمة ١٩٩٨ : ٩٨)(٦)، كما يمكن الاستنتاج أنه نظر إلى الكواكب والنجوم كالشمس والقمر نظرة تقديسية بسبب المساعدة التي تقدمها لهم خلال قيامهم بالصيد وذلك من خلال توجيه بعض الجثث باتجاه الشرق.

وتعد ظاهرة عبادة الحيوان إحدى الظواهر المميزة للفكر الديني لإنسان النياندرتال، حيث مارس إنسان النياندرتال عبادة الحيوان وخاصة الغزال في منطقة بلاد الشام، إذ وجدت بقايا هياكله العظمية مرافقة للهياكل البشرية في عدد من المواقع مثل كهف قفزه(٧)(محيسن ١٩٨٩ : ١٠٢؛ Garrod 1936 : 126; Bar-Yosef 1980 : 113)، وكهف العمود : (Hovers, Rak and Kimbell 1993 : 11; Hovers and Rak 1994 : 27).

وباختصار، فقد كان الفكر الديني عند إنسان النياندرتال بسيطاً يرتكز على بعض العبادات، مما يشير بأن الفكر الديني في هذه المرحلة لم يتبلور بشكل واضح لدى إنسان النياندرتال بحيث أنه لم يتوصل بعد إلى تجسيد هذه القوى فوق الطبيعية في رموز واضحة يجسدها على شكل تماثيل أو رسومات معينة ليقدم لها طقوساً دينية أو يقوم بممارسات معينة يظهر فيها احترامه وتقديسه لها.

ونعتقد بأن الفكر الديني عند الإنسان العاقل في العصر الحجري القديم الأعلى في منطقة بلاد الشام، بالرغم من قلة المدافن وعدم وجود معلومات كافية عنه هذه

المرحلة،لم يتغير كثيراً عن المرحلة السابقة، إذ استمر الدفن في حُفر صغيرة داخل المنطقة السكنية بوضعية القرفصاء بإستثناء زيادة المرفقات الجنائزية وتعددها مع جثث الموتى، مما يشير إلى استمرارية اعتقادهم بأن الإنسان المتوفي لا تنتهي حياته بالموت وإنما يعيش حياة أخرى في ما بعد الموت.

وبانتهاء العصر الحجري القديم الأعلى في أوروبا بدأ الثقل الحضاري ينتقل منها إلى منطقة الشرق الأدنى بشكل عام ومنطقة بلاد الشام بشكل خاص، حيث شهدت منطقة بلاد الشام في المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم (الايبيباليوليث) (Epipaleolithic) تحولاً مهماً في حياة الإنسان القديم، نتيجة للتحسن المناخي الذي شهدته المنطقة، مما انعكس تأثيره على مختلف نواحي الحياة، وبشكل خاص الفكر الديني، الذي استمر ارتباطه بالحياة الاقتصادية المعتمدة على الجمع والالتقاط والصيد والمتأثرة بالترحال والتنقل. ولقد قدمت ثقافات هذه المرحلة وخاصة الثقافة النطوفية أولى الخطوات على بداية الاستقرار في قرى الصيادين التي أقاموها في مناطق العراء نتيجة لاستراتيجيتهم الاقتصادية الجديدة القائمة على جمع والتقاط الحبوب البرية التي كانت تنمو في مناطقهم بالقرب من مصادر المياه والسهول، إضافة لصيد الحيوانات.

وجاءت معلوماتنا فيما يخص الفكر الديني النطوفي بشكل أساسي من المدافن والتماثيل التي قدمت لنا معلومات هامة بخصوص الفكر الديني التي تظهر استمراراً للعبادات التي مارسها اسلافه كعبادة الموتى، والحيوان، وقوى الطبيعة، والنار ولكنها أصبحت أكثر وضوحاً وتبلوراً عند الإنسان النطوفي.

من المرجح أن عقيدة عبادة الموتى قد استمر وجودها في الفكر الديني النطوفي، ولكن بشكل أكثر وضوحاً من السابق، وذلك من خلال تطوير أساليب الدفن نتيجة للتطور الاجتماعي والاقتصادي والفكري عند الإنسان النطوفي، بالرغم من استمرار حياته الاقتصادية القائمة على الجمع والالتقاط والصيد والاستقرار الموسمي. لقد أظهرت

المدافن المكتشفة في العديد من مواقع الفترة النطوفية مثل عين الملاحة (عينان)، ووادي الفلاح (نحال اورن)، وكهف الحمام (هايونيم)، والواد، وعرق الأحمر في فلسطين، ووادي الحمة ٢٧ في الأردن، على استمرار عبادة الموتى من خلال استمرار تقاليد الدفن في المراحل السابقة وتطويرها كالدفن في مدافن غالباً فردية، أوجماعية، تحت أرضيات المساكن داخل المنطقة السكنية وثني الجثة، وتوجيهها نحو محور شرق– غرب في أغلب الاحيان، وغالباً ما سُنِدَ الرأس بالحجارة، مع نزع الجمجمة عن الجسد وإهتمامهم بها ودفنها بشكل منفصل عن الجثة، بينما وضعت أحجار كبيرة على المفاصل، ووضع مرفقات جنائزية متنوعة وأكثر عدداً من السابق، ووجود دلائل على مكان الجثة (أبو غنيمة ١٩٩٨: ١٠٢–١٠٨)[٨]. وتتضح رمزية مدافن الفترة النطوفية بشكل أكبر مع ترافق عناصر من الهياكل العظمية الحيوانية مع الهياكل البشرية في المدافن، حيث وجدت عدة شواهد مادية تتجلى الأولى في العثور على ثلاث عراقيب لغزال في مدفن جماعي في موقع عين الملاحة (Perrot 1966:)[٩]، ويتجلى الشاهد الثاني في العثور على أسنان خيليّات في موقع "عراق الأحمر" حيث يرافق كل جمجمة واحد من هذه الأسنان (Neuville 1951)[١٠]، والأخير يتمثل بوجود هيكل عظمي لجرو صغير في كل من موقع "عين الملاحة" (Perrot 1966)[١١]، وموقع كهف "الواد" (محيسن ٢٠٠٥–٢٠٠٦ : ١٥٩; Garrod 1957 :220)[١٢]. ويمكن أن نضيف لتلك الشواهد الاستعمال الخاص لقواقع الصدف في أدوات الزينة في مدافن "جبال الكرمل"، وفي "عين الملاحة" وفي "النقب"، وفي "المريبط"، وبيوض النعام المزينة بالزخارف في موقع "رأس زين" (Henry 1972 : 8)[١٣].

عبادة الحيوان :

تشير الدراسات الانثروبولوجية أن الشعوب البدائية تتخذ من الحيوانات، المفيدة لها أو التي تخشاها، طوطماً لها تنظر له باحترام وتقديس . ومن الممكن اخذ ذلك الأمر بعين الاعتبار في قراءة المكتشفات الأثرية التي تشير إلى أن ٩٠% من عظام الحيوانات التي

وجدت في مواقع الفترة النطوفية تعود إلى الغزال (كوفان ١٩٨٤ : ٩٢-٩٣)[١٤]، الذي كان الأكثر اصطياداً، واستفاد منه في الحصول على طعامه وجلده وعظامه التي استخدمها في تصنيع أدواته المختلفة، وكذلك فإن معظم التماثيل الحيوانية التي نحتها الفنان النطوفي تمثل بشكل خاص الغزال، وإضافة لذلك فإن وجود عراقيب الغزال، الذي وجدت مترافقة مع جثث الموتى في بعض المدافن، يشير بدون شك إلى نتيجة واضحة وهي أن الغزال قد لعب دوراً هاماً في حياة الإنسان النطوفي، ويدل على القيمة الروحية للغزال لدى النطوفيين في بلاد الشام.

وتدل الفنون النطوفية وعادات الدفن إلى تبلور فكرة عبادة الحيوان بشكل أوضح عند الإنسان النطوفي بتجسيد الحيوان في فنه من خلال نحته في تماثيل منفصلة، أو على مقابض المناجل حيث تكررت مرات عديدة ترافق الغزال-المناجل، إذ أن الطرف العلوي لقبضات المناجل كان مزخرفاً على شكل حيوانات (شكل رقم ١). ويمكن أن يفسر هذا الترافق بمفهوم خصوبة الارض الغذائية. فمن المعلوم أن التقاط وجمع النباتات البرية، والذي كان أوسع انتشاراً من مفهوم الصيد الذي تدل عليه تماثيل الحيوانات المجترة، كانت المصدر الغذائي الهام إلى جانب الصيد في المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم، وكانت المناجل هي الأدوات التي ساهمت بشكل كبير في عملية التقاط وجمع الحبوب البرية.

عقيدة الخصوبة :

استمرت فكرة عقيدة الخصوبة في الفكر الديني عند النطوفيين ولكن بشكل مختلف عن العصر الحجري القديم الأعلى، إذ أن الإنسان النطوفي جسد فكرة الخصوبة بالعملية الجنسية كما يظهر جلياً في تمثال العاشقين (شكل رقم ١ : ٣) الذي عُثر عليه في موقع عين صخري، ويتأكد ذلك من خلال عدم العثور على تماثيل أنثوية تمثل الآلهة الأم في أي موقع من مواقع هذه الفترة. وكذلك قام الإنسان النطوفي بتجسيد فكرة الخصوبة بقبضات المناجل التي تمثل الخصوبة النباتية والحيوانية.

لقد وصلت إلينا معلومات أفضل وبشكل ملموس منذ العصر الحجري الحديث (Neolithic)، وهي تتناسب مع معلومات المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم (Epipaleolithic).

وقد شهد العصر الحجري الحديث تطوراً كبيراً في الفكر الديني بانتقاله من الدين الجمعي ليصبح ديناً مؤسساتياً بعد أن تبلورت وتجذرت جذوره في مجتمع هذا العصر، بعد أن استقر السكان في قراهم الزراعية التي اقاموها بالقرب من مناطق مزروعاتهم، نتيجة لقيام المجتمع بتقنين وترشيد المعتقدات والطقوس وتأطيرها ضمن ممارسات وشعائر وطقوس يقوم بها أشخاص أشرفوا على تطبيقها وممارستها في أماكن محددة. ومن المؤكد أن ارتباط الدين بالاستقرار كان نابعاً من منطلق اتصال الجوانب الفكرية الدينية بالجوانب المادية، وبشكل خاص الحياة الزراعية حيث سعى الإنسان إلى إرضاء القوى المتحكمة في الظواهر الطبيعية والمؤثرة تأثيراً مباشراً في إنتاجه الزراعي (الناضوري ١٩٦٧ : ٣٢-٣٣)[١٥].

وتنوعت العقائد الدينية في مجتمعات العصر الحجري الحديث في بلاد الشام لتشمل عقيدة الايمان بوجود حياة أخرى أو حياة ما بعد الموت، وعقيدة الألهة الأم، وعقيدة عبادة الحيوان، وعقيدة عبادة الأسلاف، وعقيدة عبادة الإله المزدوج.

عقيدة ما بعد الموت :

حافظ إنسان العصر الحجري الحديث قبل الفخاري على عقيدة حياة ما بعد الموت من خلال محافظته على استمرار الدفن تحت الأرضيات، بوضعية القرفصاء، ووضع المرفقات الجنائزية، وفصل الجمجمة عن الجسد ودفنها في مدافن خاصة، مع إعادة تشكيل البعض منها من خلال طلائها بطبقة من الجيس وتلوين الجزء العلوي منها باللون الأسود أو الأحمر، داخل المنطقة السكنية.

عقيدة عبادة الأسلاف :

تحدثنا سابقاً عن اهتمام إنسان ما قبل التاريخ بالجمجمة باعتبارها مستودع الحـواس والقوة والروح منذ العصر الحجري القديم الأوسط، وقد تطـور هـذا الاهتمـام فـي الفترات اللاحقة حتى العصر الحجري الحديث قبل الفخاري "ب"، حيث تبلور وتجذر هذا الاهتمام بقيام الإنسان بطلاء الجمجمة بطبقة من الجس وتلـوين قمتهـا بـاللون الأسود والقار أو اللون الأحمر. وتهدف هذه العبادة إلى التجمع والتماسك حول مركز روحي معين، بالإضافة إلى اعتبار أرواح الموتى قوة مقدسة (كوفان ١٩٨٨: ٧٥)[١٦] (شكل رقم ٢).

ويرجح أن هذه العبادة كانت تمارس في أوقات ومناسبات معينة بطقوس وممارسـات تتم من قبل أشخاص محددين حيث كانت تُخرج الجماجم من المستودعات التي تُحفـظ فيها تحت الأرض ليتم عرضها أمام الجميع، ويعتقد أنها كانت توضع في الكـوات أو في الساحات، كما كانت توضع على قواعد تأخذ شكل تماثيل طينيـة فاقـدة للـرأس لتوضع عليها الجماجم المجصصة. فقد وجد في موقع تل الرماد في سورية مجموعـة من الجماجم المجصصة، يبلغ عددها حوالي ١٢ جمجمة، مدفونة تحت الأرض ومعها ١٢ تمثال أنثوي من الطين (كوفان ١٩٨٨ : ٧٠-٧١،شكل ١٦)[١٧] (شكل رقم ٣).

عقيدة الآلهة المزدوجة :

من المتفق عليه أن فكرة عقيدة الآلهة المزدوجة قد انتشرت في الفترات التاريخية في بلاد الرافدين، إلا أننا نرجح أن بداية فكرة عقيدة الآلهة المزدوجة ترجع إلى فترات ما قبل التاريخ. فقد كشفت التنقيبات الأثرية في العديد من المواقع عن العديد من القطـع الأثرية التي يمكن تفسيرها بهذا المنحى، ومن أهم الأمثلة على ذلك التماثيل النصـفية الثلاثة ذات الرأسين المكتشفة في موقع عين غزال بالقرب من عمان، وتعـود إلـى العصر الحجري الحديث قبل الفخاري "ب" (شـكل رقـم ٤) (كفـافي ٢٠٠٢ : ١٦،

Schemandt-Besserat 1998 : 1-2)[١٨]، بالإضافة إلى تماثيل أنثوية مترافقة مع حيوانات مثل تمثال الآلهة الأم الجالسة على العرش، والتي جسدت بشكل واقعي وبصدر متدلي وبطن مترهل، وتضع يديها على فهدين يشكلان طرفي المقعد (شكل رقم ٥) (كوفان ١٩٨٨ : ١١٦-١١٧، شكل ٣٣)[١٩].

الأماكن ذات الوظائف الدينية (المعابد) :

من البديهي أن تطور الفكر الديني في العصر الحجري الحديث وانتقاله من دين جمعي إلى دين مؤسساتي استلزم إيجاد وسائل وأساليب جديدة تلبي متطلبات المرحلة الجديدة وقيام مؤسسات تشرف عليه وتسير اموره، وتطلّب وجود طبقة اجتماعية تمارس النشاطات المطلوبة كممارسة الطقوس والشعائر والعبادات، وتكون صلة الوصل بين المعبود والأشخاص المؤمنين به، وتقبل القرابين المقدمة اليه ومن أهم هذه المؤسسات كانت المعابد.

لذا فإننا نرى بأن المعابد أو الأماكن ذات الوظائف الدينية قد ظهرت في العصر الحجري الحديث، وليس كما يرى بعض العلماء أن ظهور المعابد بشكلها المتعارف عليه في منطقة المشرق قد بدأ في العصر الحجري النحاسي. ويدعم رأينا هذا ظهور العديد من المباني الكبيرة المساحة والمرتبطة بالفكر الديني من خلال تميزها ببعض العناصر المعمارية كالمصاطب، والكوى، والأعمدة المزخرفة بزخارف هندسية وحيوانية أو بوجود قرون أو جماجم لحيوانات ترمز إلى القوة كالثيران أو ما شابه ذلك، بالإضافة إلى أن ظهورها المفاجيء ودون مقدمات في العصر الحجري النحاسي يعتبر مخالف لمنطق التطور الحضاري للإنسان من النواحي الفكرية والتقنية، كما أنه قائم على رأي خطير يتمثل بأن سكاناً من خارج المنطقة هم الذين جلبوا معهم مفاهيم الفكر الديني وتطبيقاته المعمارية.

أما بالنسبة للعمارة فقد شهدت مرحلة العصر الحجري الحديث قبل الفخاري "أ" (Pre-Pottery Neolithic A)[٢٠] بداية ظهور المباني العامة التي استخدمت

بوظائف عامة تتعلق بالاجتماعات الاجتماعية أو الدينية، حيث اشارت العديد من التقارير الأثرية إلى الكشف عن عدد من المباني الدائرية الشكل ذات الاقطار الكبيرة، والمحتوية على عناصر معمارية كالمصاطب، أو الكوة، أو عناصر زخرفية هندسية وحيوانية، أو أجزاء من أعضاء الحيوان كالقرون في عدد من المواقع مثل "العُبر ٣" (يرته ٢٠٠١ : ٢-٣)[٢١] (شكل رقم ٦)، و"جرف الأحمر" في سورية (ستوردور ٢٠٠٤ : ٥٠-٥١، الأشكال ٥-٦، Stordeur et al., 2001 :37) (شكل رقم ٧).

واستمر ظهور المباني ذات الوظائف الدينية (المعابد) في العصر الحجري الحديث قبل الفخاري "ب" بشكل أكبر من السابق، نتيجة للتطور الفكري والاجتماعي والمعماري الناتج عن الاستقرار والزراعة، مما يشير إلى تطور الفكر الديني وتبلوره بشكل اوضح في هذه المرحلة. ويلاحظ تعدد النماذج لهذه المباني كان أبسطها أحد غرف البيوت السكنية التي احتوت على كوة أو أكثر في جدرانها الداخلية ضمت نصباً حجرياً كما هو الحال في "أريحا" (شكل رقم ٨) (Kenyon 1957 : 58)[٢٢]، والمنحطه (Perrot 1967 : 7)[٢٣]، أو جماجم حيوانية مثل "عين الجمام" في جنوب الأردن (فينو ١٩٩٦ : ٥٤-٥٥)، أو تمثال بشري في "الغوير ١" في جنوب الأردن (Najjar 1994 : 79; Simmons and Najjar 1996 : 6-7)[٢٤]، أو زخرفت جدرانها برسوم بشرية وحيوانية كما في "بقرص" (Akkermans et al., 1982: 48, figs. 6-7)[٢٥]، أو رسوم هندسية كما في "جعدة المغارة" (Coqueugniot 2006 : 2-3; fig 2)[٢٦]. وتمثل النموذج الثاني بمباني دائرية الشكل وجدت أمثلة لها في موقع "عين غزال" بالقرب من عمان (شكل رقم ٩) (كفافي ٢٠٠٢ : ٢١).

أشكال الآلهة :

الآلهة الأم :

يعدّ هذا الشكل من العقيدة الدينية من أقدم أشكال العبادة في عصور ما قبل التاريخ، إذ وجدت الدلائل على ذلك منذ العصر الحجري القديم الأعلى في أوروبا، على شكل

دمى حجرية أو عظمية تمثل أشكالاً أنثوية بولغ في إبراز مناطق الخصوبة فيها بشكل كبير، مع الاهتمام بإخفاء معالم الوجه، مما يوحي بأن الهدف لم يكن تمثيل إمرأة معينة، وإنما لترمز إلى الخصوبة والاستمرارية بشكل رمزي (الباشا ٢٠٠٦ : ١٦-٢٠)[٢٧]. ويلاحظ أن نحت هذا الشكل من التماثيل الأنثويةلم يظهر في منطقة بلاد الشام إلا في العصر الحجري الحديث قبل الفخاري "ب" بنفس مواصفات تماثيل العصر الحجري القديم الأعلى في أوروبا، أي بالمبالغة في إبراز مناطق الخصوبة في المرأة. وقد وجدت أمثلة على هذه التماثيل في العديد من المواقع في منطقة المشرق مثل المريبط، وتل أسود- دمشق، وتل الرماد في سورية، وعين غزال، والبيضا في الأردن، وأريحا في فلسطين، وشاتال هويوك في تركيا. ويلاحظ أن الألهة الأم قد جسدت منفردة في وضعيات متنوعة منها الواقفة، والجالسة، والمضطجعة، والقرفصاء، أو مشتركة مع أشكال حيوانية، غالباً ذكرية مما قد يوحي بفكرة وجود الإله المزدوج.

الغزال :

لقد لعب الغزال دوراً هاماً في حياة إنسان ما قبل التاريخ منذ العصر الحجري القديم الأوسط والأعلى، وأصبح هذا الدور أكثر وضوحاً وتجذراً في المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم، خاصة في الفترة النطوفية، حيث قام الفنان النطوفي بتجسيد الغزال في قطعه الفنية المختلفة بشكل كبير. وقد جسد الفنان النطوفي الغزال بشكل منفرد من خلال وضعيات مختلفة، أو على قبضات المناجل مما يوحي بارتباط فكرة الخصب الحيواني والنباتي.

النسر (شكل رقم ١٠أ):

يعد النسر من الحيوانات التي جسدها الفنان ليرمز به إلى الإله. وقد وجد أقدم مثال على ذلك في منحوتة حجرية صغيرة تعود للعصر الحجري الحديث قبل الفخاري "أ"

في موقع جرف الأحمر في سورية. وقد صُوِرَ النسر فارداً جناحيه فوق مجموعة من الحيوانات (جاموس ٢٠٠٥ : ٢٦، شكل ٦ : ١)[٢٨].

كما عُثر على تمثال منحوت فوق نصب حجري يمثل نسراً في أحد مباني موقع جرف الأحمر، الذي يعتقد الباحثون أنه مكاناً عاماً.

وكذلك عُثر على رسومات جداريه تمثل نسوراً مرسومة على جدران المعابد في موقع شاتال هويوك، ترجع إلى فترة العصر الحجري الحديث قبل الفخاري "ب". ويلاحظ أن رسوم النسور على جدران المعابد ارتبطت مع فكرة الموت إذ وجدت رسوم تمثل نسوراً محلقة في الجو وهي تهوي إلى الأسفل حيث مددت جثث لأشخاص منزوعة الرأس (ميلارت ١٩٩٠ : شكل ٦٢)[٢٩]، ويظهر رسم أخر نسرين بسيقان بشرية يهاجمان جسم إنسان بدون رأس (ميلارت ١٩٩٠ : شكل ٦٥)[٣٠]، ويظهر رسم أخر عُدداً من الأشخاص متنكرين على شكل النسر وهم يدورون حول عدد من الجثث الموضوعة على المصاطب (ميلارت ١٩٩٠ : شكل ٨٦)[٣١]. ومن المرجح أن النسور جسدت أله الموت والحياة.

الثور :

ارتبطت فكرة عبادة الثور مع ظهور الزراعة وحاجتهم لحيوانات ضخمة تساعدهم في أعمالهم الزراعية. وقد جسّد الفنانون الثيران في أعمالهم الفنية بشكل منفرد، أو بالاشتراك مع التماثيل الأنثوية. وترجع فكرة عبادة الثيران إلى العصر الحجري الحديث قبل الفخاري "أ" من خلال وجود قرون الثيران أو جماجمها موضوعة أو مغروزة في مصاطب أو جدران المباني في موقع "العُبر ٣" (يرته ٢٠٠١ : ٣)[٣٢]، و"المريبط" (كوفان ١٩٩٥ : Cauvin 1977 : 28)[٣٣]، وجعدة المغارة (Coqueugniot 2006 : 18-19; figs. 19-21)[٣٤]. كما وجدت جماجم الثيران أو قرونها مغروزة على جدران المعابد أو المصاطب في موقع شاتال هويوك، وهي تعود

إلى العصر الحجري الحديث قبل الفخاري "ب" (ميلارت ١٩٩٠ : ١٢٧-١٣٠، شكل رقم ٨٠ و ٨٤-٨٥)[٣٤].

الأفعى (شكل رقم ١٠أ) :

استخدمت الأفعى كرمز من الرموز الدينية في فترات ما قبل التاريخ والفترات التاريخية. وقد جسدها الفنان بشكل تجريدي على شكل خطوط متعرجة. وترجع أقدم الأمثلة على تمثيل الأفعى في منحوتات ما قبل التاريخ إلى العصر الحجري القديم الأعلى (Upper Paleolithic) في أوروبا (لوروا-غوران ١٩٩٠ : ١٢٢-١٣٤)[٣٥]، بينما يرجع أقدم دليل مكتشف في بلاد الشام، حتى الآن، على تمثيل الأفعى إلى العصر الحجري الحديث قبل الفخاري "أ" (Pre-Pottery Neolithic A)، حيث وجدت مجموعة من المنحوتات الحجرية التي تصور الأفعى في موقع "جرف الأحمر" في سورية، وقد نحتت الافاعي مترافقة غالباً مع حيوانات أخرى أو أشكال هندسية، ومنها منحوتة حجرية تشمل نحتاً لنسر فارداً جناحيه، وفي الأسفل من اليمين خط متعرج وفي يسار اللوحة خطان متعرجان يمثلان افاعي، بينما في الوسط حيوان من المحتمل أنه غزال (Stordeur and Jammous 1995 129-130; Stordeur, Jammous and Willcox 1996 : 1-2)، [٣٦] وتكرر وجود الأفعى.في منحوتة أخرى بنفس الوضعية والترتيب (جاموس ٢٠٠٥ : شكل ٦ : ٤أ)[٣٧]، وتكرر وجود الأفعى في منحوتة أخرى نُقشت عليها مجموعة من الرسوم والإشارات المبهمة مع تكرار للخطوط المتعرجة فيها (جاموس ٢٠٠٥ : ٢٦، شكل ٦ : ٢)[٣٨]، وفي لوحة أخرى ترافق وجود الأفعى مع بومة ونملة (جاموس ٢٠٠٥ : ٢٥، شكل ٦ : ٣ أ)[٣٩]، وعلى الوجه الخلفي للوحة توجد رسوم لرؤوس الثيران (جاموس ٢٠٠٥ : ٢٥، شكل ٦ : ٣ب)[٤٠]، كما وجدت لوحة ترافقت فيها الافاعي مع موضوع بشكل شبكي من خلال خطوط طولانية وخطوط عرضانية (جاموس ٢٠٠٥ : ٢٥ شكل ٦ : ٤ب، Stordeur and Jammous 1995 129-130; Stordeur, Jammous and Willcox 1996 : 1-2).[٤١] كما

وجد تمثيل للأفعى في المبنى الدائري الذي يحتوي على مصطبه تحيط بالمبنى من الداخل بالكامل، والأعمدة الخشبية المطلية بالملاط الطيني (جاموس ٢٠٠٥ : ٢٢، شكل ٥)[٤٢]. ووجدت لوحة حجرية عليها خطوط على شكل ثعابين في موقع جعدة المغارة في سورية (محيسن ٢٠٠٥-٢٠٠٦ : ٢٩٠)[٤٣]. ووجدت لوحة حجرية تحتوي على خطوط شبيهة بالأفاعي (كوفان ١٩٩٥ :)[٤٤].

وعُثر على أمثلة أخرى لنماذج تصور الافاعي، تعود للعصر الحجري الحديث قبل الفخاري ب، في تركيا حيث وجد، في قبر لرجل في موقع شاتال هويوك، خنجر طقسي مصنوع من الصوان ومقبضه العظمي منحوت على هيئة الأفعى بشكل واقعي (ميلارت ١٩٩٠ : ١١٣، شكل ٥٥)[٤٥]. كما وجد في موقع غوبكلي تبه (Göbekli Tepe) [٤٦] على مجموعة من الأعمدة داخل البناء "أ" (A) نحت لمجموعة من الأفاعي مترافقة مع شبكات صيد، وحيوانات متنوعة مثل الكبش، والثور والثعلب، وطائر الكركي (عبد الرحمن ٢٠٠٦ : ٧٥-٧٦، Scmidt 2001 : 3-7)[٤٧].

ومن المرجح أن الافاعي كانت ترمز للشر.

البوم (شكل رقم ١٠ ؟):

وهو التوأم الثاني للشر. وقد وجد نحت يمثله في موقع جرف الأحمر (جاموس ٢٠٠٥: شكل ٦ : ٣أ).

الخلاصة:

يتضح مما سبق ذكره، بأن الفكر الديني عند إنسان النياندرتال قد بدأ كفكر بسيط، فردي يقوم على تقديس الفرد لبعض الظواهر الطبيعية كالنار والشمس والقمر وبعض الحيوانات، دون أن تكون هناك طقوس وممارسات واضحة لهذا التقديس، ودون أن تُجسد هذه القوى برموز واضحة في العصر الحجري القديم الأوسط.

وأشارت الدراسة كذلك إلى استمرار فكرة تقديس الظواهر الطبيعية، وانعكس هذا الأمر على العمارة، بشكل خاص، حيث بنيت البيوت بمخطط دائري الشكل، الذي يرمز إلى القمر والشمس، في مناطق العراء بعد خروج الناس من الكهوف والملاجئ الصخرية، مع حلول المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم (الايبيباليوليث). و نلاحظ أن تطوراً ملموساً قد حصل على الفكر الديني، في هذه المرحلة، إذ أصبح أكثر نضوجاً من خلال انتقاله من الفكر الديني الفردي ليصبح فكراً جمعيّاً. لقد أصبح الفكر الديني في الفترة النطوفية مرتبطاً بفكرة الخصوبة بمعناها الواسع، أي الخصوبة البشرية والخصوبة النباتية والحيوانية، مع ارتباطهما معا أحياناً. وقد جسد الإنسان النطوفي فكرة الخصوبة في تماثيله البشرية أو الحيوانية، مع الإشارة إلى أن فكرة الخصوبة في هذه الفترة لم تجسد على شكل المرأة السمينة المترهلة البطن، والمبالغ في إبراز مناطق الخصوبة فيها، كما كان دارجاً في العصر الحجري القديم الأعلى في أوروبا، وإنما جسدّت بفكرة العملية الجنسية، كما رأينا في تمثال العاشقين في فلسطين، مع عدم وجود تماثيل أنثوية واضحة. كما نلاحظ أن فكرهم الديني استمر ارتباطه بالحياة الاقتصادية والمتمثلة بالالتقاط والجمع والصيد وذلك بتقديسهم لعين الماء من خلال توجيه مداخل بيوتهم في موقع عين الملاحة في فلسطين باتجاه عين الماء، والمرتبط أساساً بنمو النباتات.

وتشير الدراسة إلى تطور الفكر الديني وتبلوره وتجذره في فكر إنسان العصر الحجري الحديث بشكل واضح وتحوله من فكر جمعي إلى فكر مؤسساتي، يقوم على ممارسات وطقوس معينة تمارس في أماكن محددة، ومن قبل أشخاص مختصين بهذا العمل، لعبادة إله أو ألهه أو أكثر من خلال تجسيدها على شكل تماثيل بشرية أو حيوانية.

المراجع

المراجع العربية :

- أبو غنيمة، خالد ٢٠٠١ "أساليب الدفن وعاداته خلال العصر الحجري الحديث في بلاد الشام". **دراسات تاريخية** العددان ٧٥-٧٦ : ٣-٤٩. دمشق.

- أبو غنيمة، خالد ١٩٩٨ "أساليب الدفن وعاداته في العصور الحجرية الأولى (٩٥٠٠٠-٨٥٠٠ ق. م) في بلاد الشام. **أبحاث اليرموك : سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية** المجلد ١٤/٤ : ٩٧-١٢١. جامعة اليرموك- إربد.

- الباشا، حسن٢٠٠٦"**الفنون في عصور ما قبل التاريخ**". الطبعة الثانية. مكتبة الدهر العربية للكتاب. القاهرة.

-جاموس، بسام ٢٠٠٥ "**الجرف الأحمر : قرية من الألف العاشر قبل الميلاد- رموز وإشارات تجريدية**". منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية- دمشق.

- الحوراني، ميسون ١٩٩٨ **الطقوس والمعتقدات في العصر الحجري الحديث في الشرق الأدنى القديم (حوالي ٨٥٠٠-٤٥٠٠ ق. م) : دراسة أثرية فنية**". رسالة ماجستير غير منشورة- معهد الآثار والانثروبولوجيا- قسم الأثار- جامعة اليرموك. أربد.

- ستوردور، دانيل ٢٠٠٤ "قبل المدينة : مساهمة الثقافات النيوليثية في سورية". ص ٣٧-٧١. في كتاب : **المدينة في سورية وأقاليمها : الموروثات والمتحولات**. مجموعة من المؤلفين بأشراف جان كلود دافيد ومحمد الدبيات. دار الجندي- دمشق.

- سعيد، أحمد ٢٠٠٠ "نشأة الديانة ما بين الترحال والاستقرار حلال العصور الحجرية في بعض بلاد الشرق الأدنى". **الوحدة الحضارية للوطن العربي من خلال**

المكتشفات الأثرية : ١١٧-١٥٢. المؤتمر الخامس عشر للآثار والتراث الحضاري في الوطن العربي باشراف المنظمة العربية للثقافة والعلوم ووزارة الثقافة السورية- المديرية العامة للآثار والمتاحف- دمشق. دمشق.

- السواح، فراس ١٩٩٤ "**دين الإنسان : بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني**". منشورات دار علاء الدين- دمشق.

- عبد الرحمن، عمار ٢٠٠٦ "**الدمى في العصر الحجري الحديث (النيولث) في سورية**". رسالة دكتوراة غير منشوره. قسم التاريخ. جامعة دمشق. دمشق- سورية.

- كفافي، زيدان ٢٠٠٢ "القرية الأردنية : ثمانية آلاف عام : نشأتها توزيعها وعمارتها". **ملتقى عمان الثقافي العاشر : المعالم الثقافية والحضارية في الأردن عبر العصور - أبحاث الملتقى : الجزء الأول** : ٩- ٤١. منشورات وزارة الثقافة.

- كوفان، جاك ١٩٩٥ "**القرى الأولى في بلاد الشام من الألف التاسع حتى الألف السابع ق. م)**". ترجمة الياس مرقص. دار الحصاد للطباعة والنشر والتوزيع- دمشق.

- كوفان، جاك ١٩٨٨ "**ديانات العصر الحجري الحديث في بلاد الشام**". ترجمة د. سلطان محيسن. دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع. دمشق.

- كوفان، جاك ١٩٨٤ "**الوحدة الحضارية في بلاد الشام بين الألفين التاسع والثامن قبل الميلاد**". تعريب قاسم طوير. دار المجد. مطبعة سورية- دمشق.

- لورا-غورهان، اندريه ١٩٩٠ "**أديان ما قبل التاريخ**". ترجمة د. سعاد حرب. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. بيروت.

- محيسن، سلطان ٢٠٠٥-٢٠٠٦ "**عصور ما قبل التاريخ**. جامعة دمشق. دمشق.

- محيسن، سلطان ١٩٨٩ "**بلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ : الصيادون الأوائل**"· دار الابجدية للنشر· دمشق·

- محيسن، سلطان ١٩٩٤ "**بلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ : المزارعون الأوائل**"· دار الابجدية للنشر· دمشق·

- ميلارت، جيمس ١٩٩٠ "**أقدم الحضارات في الشرق الأدنى**"· ترجمة محمد طلب· تدقيق وتقديم د· سلطان محيسن· دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع· دمشق·

- الناضوري، رشيد ١٩٦٧ "**المدخل في دراسة بعض جوانب العطاء الفكري لإنسان الشرق الأدنى القديم**"· بيروت·

- يرته، ثائر ٢٠٠١ "**العُبر ٣**"· تقرير غير منشور مقدم للمديرية العامة للآثار والمتاحف السورية· دمشق·

Bibliography

- Arensburg B. and Rak Y., 1979 "The Search for Early Man in Israel In : Horowitz, A., (ed.) : **The Quaternary of Israel** : 293-296. Academic Press, New-York.
- Bar-Yosef O., 1980 "Prehistory of the Levant". **Annual Review of Anthropology** 9 : 101-133.
- Cauvin J., 1977 "Les fouilles de Mureybet (1971-1974) et leur signification pour les origines de la sedentarisation au Proche-Orient". **Annual of the American School of Oriental Research** 44 : 19-48.
- Coqueugniot E., 2006 **"Fouille Neolithique de Dj'ada el Mughara (Euphrate, barrage de Tchrine) Campagne de fouille 2005 : 6 Septembre- 15 Octobre"**. Rapport Submit to Direction General d'Antiquities and Museum.
- Garrod D., 1933 "Mugharet es-Sukhul". **Quarterly of the Department of Antiquities of Palestine** 2 : 189-190.

- Garrod D., 1936 "A Summary of Seven Seasons Works at Wady el Mughara". **Bulletin of the American Schools of Prehistoric Research** 12 : 125-129.

- Garrod D., 1957 "The Natufian Culture : the Life and Economy of a Masolithic People in the Near East". **Proceedings of the Brithish Academy** 43 : 211-227.

- Henry D., 1972 "Ros Zin : a Natufian Settlement near Ein Avdat". P. 317-347, in : (Marks A.e ed.) : **Prehistory and Paleo-environnements** in the Central Negev, vol. 1. Dallas, SMU Press 383p.

- McCown T. D., 1937 "Mugharet es-Sukhul : Description and Excavation". In : Garrod D. and Bate D., (eds.) : **The Stone Age of Mount Carmel** : 91-107.

- Hovers E. and Rak Y., 1994 "Amud Cave-1992". **Excavations and Surveys Of Israel** 14 : 27-28.

- Hovers E., Rak, Y. and Kimbell W., 1993 "Amud Cave-1991". **Excavations and Surveys of Israel** 12 : 11-12.

– McCown T. D. and Keith F. R. S., 1939 **"The Stone Age of Mount Carmel : The Fossil Human Remains from Levallois-Mousterian"**. Vol. II. Oxford, The Clarendon Press.

- Neuville R., 1951 **"Le Paléolithique et le Mésolithique du Désert de Judée"**. Paris, Mason, 270 p. (24eme Memoire des Archives de l'I.P.H.).

- Perrot J., 1966 "Le gisement natufien de Mallaha (Eynan) Israel". **L'Anthropologie** 70 (5-6) : 437-493.

- Schmidt K., 1999 A New LPPNB Figurine Type : The Tell Assouad Type. **Neo-Lithics** 1/98 : 7-8.

- Schmidt K., 2001 **Göbekli Tepe Ziyaret 1994-2001**, Haute Mesopotamie, Turquie.

- Stordeur D., and Jammous B., 1995 Pierre à Rainure à Décore Animal Trouvée dans l'Horizon PPNA Jerf el Ahmar (Syrie). **Paléorient** 21/1 : 129.-130. – Stordeur D., Jammous B., and Willcox G., 1996 Jerf el-Ahmar : a New Mureybetian Site (PPNA) on the Middle Euphrates". **New-Lithics** 2/96 : 1-2.

المكتبات في العالم القديم

الدكتور عيد مرعي
كلية الآداب
قسم التاريخ
جامعة دمشق

تعرف المكتبات بأنها المكان الذي تجمع فيه الكتب ومصادر المعلومات المختلفة التي يمكن قراءتها أو دراستها أو الاطلاع عليها.

إن كلمة "مكتبة" في العربية من "كتب"، وهي المكان الذي تجمع فيه الكتب.

أما كلمة Library الإنكليزية فهي مأخوذة من كلمة Liber اللاتينية التي تعني: كتاب. وكلمة Bibliothek (Bibliotheca) في اللغات الفرنسية والإيطالية والألمانية والروسية وغيرها، التي: تعني مكتبة، فهي مشتقة من الكلمة الإغريقية Biblion: كتاب، لفة كتاب، والجمع منها Biblia: كتب. وكلمة Biblion مأخوذة بدورها من كلمة Byblos، وهو الاسم الذي أطبقه الإغريق على مدينة جبيل الفينيقية التي أصبحت منذ القرن السادس قبل الميلاد المركز الرئيس لتجارة البردي المصرية Papyrus مادة الكتابة الرئيسة آنذاك في مصر وما جاورها، وبخاصة لتصديرها إلى بلاد الإغريق. وهذه الكلمة الإغريقية Biblion هي أصل كلمة Bible: التوراة، و Paper و Papier: ورق، في اللغات الأوروبية الحديثة المختلفة.

إن المهمة الأساسية للمكتبة هي جمع المعلومات وترتيبها وحفظها على اختلاف أنواعها، وتمكين القرّاء من الاطلاع عليها والاستفادة منها· وتعدّ المكتبات الرابط الأساس بين الماضي والحاضر والمستقبل·

إن ظهور المكتبات في التاريخ مرتبط بظهور الكلمة المكتوبة، أي اختراع الكتابة في أواخر الألف الرابعة وبداية الألف الثالثة قبل الميلاد في بلاد سومر في جنوبي العراق، حيث اخترع السومريون الكتابة المسمارية· واخترع المصريون القدماء بعد ذلك بفترة قصيرة الكتابة الهيروغليفية·

منذ ذلك التاريخ بدأ الإنسان بجمع المواد المكتوبة وحفظها في أماكن خاصة داخل المعابد أو القصور الملكية، وهما المؤسستان الوحيدتان اللتان كانتا تستخدمان الكتابة والكتاب لأغراضهما المختلفة· وهكذا فإن ظهور المكتبات وتطورها وازدهارها كان مرتبطاً بدعم القادة السياسيين والدينيين الذين أدركوا أهمية حفظ الوثائق الضرورية للحكم والسياسة والإدارة والدين لحياة الناس، كالوثائق الدينية والسياسية والاقتصادية والقانونية والإدارية وغيرها· ولم يكن هناك فرق بين حفظ المحفوظات (الأرشيفات) والمكتبات، فكلاهما يحفظ المعلومات المكتوبة على اختلاف أنواعها·

ويمكن القول: إن أقدم المكتبات التي عرفتها البشرية وظهرت في جنوبي العراق في بلاد الرافدين على أيدي السومريين الذين أقاموا حضارة مزدهرة خلال الألف الثالث قبل الميلاد· ففي مدينة "نبيور" Nippur (الموقع الحالي يدعى نُفر على بعد ١٥٠ كم جنوب شرقي بغداد) عاصمة بلاد سومر الثقافية والدينية كشفت بعثة من جامعة بنسلفانيا برئاسة هلبريشت Hiprecht وبيتيرز Peters وهاينس Haines بين ١٨٨٨–١٩٠٠، عن خمسين ألف لوح ذي طبيعة أدبية (أساطير وترانيم دينية وأمثال)، في القسم الشرقي من المدينة في منطقة أطلق عليها اسم "تل الألواح"· وقد ضم حسب شهادة حفريات جامعة شيكاغو التي بدأت في العام ١٩٤٨، ليس مكتبة

معبد مستقلة، كما افترض هلبريشت، بل الحي السكني للكتاب الكهنة الذين احتفظوا في بيوتهم بمجموعات من الألواح الطينية المختلفة.

كانت الألواح موضوعة على قواعد طينية منخفضة ارتفاعها نحو ٥٠ سم، وعرضها ٣٥ سم، وذلك على امتداد الجدران. وإن وجود رماد خشبي على الأرضية يقود إلى الاعتقاد بوجود رفوف خشبية كانت الألواح الكينية مرتبة عليها(١).

ميّز صموئيل نوح كريمر S.N. Kramer ، المختص باللغة السومرية، رُقيماً، من بين الرقم المكتشفة يعود إلى ٢٠٠٠ق. م. نُقشت على وجهيه أسماء اثنين وستين لوحاً في موضوعات مختلفة، تنتمي الألواح الثلاثة عشر الأخيرة منها إلى مجموعة ألواح الحكمة. وبالتالي فإن هذا الرُّقيم ما هو إلا فهرس لبعض الرُقم الموجودة في مكتبة نيبور. ويبدو أن الرُقم في هذه المكتبة كانت ترتب وتوضع في أماكن خاصة حسب موضوعاتها(٢).

وأظهرت المحفوظات الأثرية التي جرت في موقعي وماري وإيلا في سورية وجود مكتبات ضخمة تتمثل في الأرشيفات الملكية المكتشفة في هاتين المدينتين. ففي ماري (الموقع الحالي تل الحريري على الفرات بالقرب من البوكمال)، كشفت البعثة الأثرية الفرنسية برئاسة أندريه بارو Andre Parrot التي بدأت بالتنقيب في العام ١٩٣٣م، عن خمسة وعشرين ألف لوح مسماري، يعود معظمها إلى النصف الأول من القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وتمثل نصوصها اقتصادية وإدارية ودينية ومراسلات وغيرها، عُثر عليها مرتبة في حجرات متعددة في قصر ماري الملكي الشهير (وبخاصة في الحجرتين ١٠٨ و ١١٥)(٣).

عُثر في بلاد إيلا (تل مرديخ بالقرب من بلدة سراقب جنوبي حلب) على الألواح مبعثرة على الأرض بعد أن تحطمت الرفوف الخشبية التي كانت تحملها. وكان المسؤول عن المكتبة مكلفاً بترتيب وتصنيف ألواح مكتبته بشكل جيد يسهل الوصول إليها بسرعة عند الحاجة. فقد كان يكتب على أحد طرفي اللوح عنوان النص بشكل

مختصر بحيث يمكن للمسؤول أن يجد اللوح المطلوب بنظرة سريعة· وعندما لا يتوفر الخشب غالي الثمن كانت الألواح ترتب على رفوف من الطين مطلية بالقار، أو مغطاة بحصر منعاً للرطوبة، أو تُحفظ في جرار فخارية، أو في سلال مصنوعة من الطين والقصب، والتي كانت تستخدم أيضاً لنقل الألواح من مكان إلى آخر· وأحياناً كانت الألواح تحفظ في صناديق من الطين·

قامت بعثة من جامعة روما برئاسة باولو ماتييه P. Matthiae في الأعوام ١٩٧٥ و ١٩٧٦ بالكشف عن نحو ١٧٥٠٠ لوح وكسرة طينية في حجرتين من حجرات القصر الملكي (٢٤٠٠–٢٢٥٠ق·م)، تشكل بمجموعها المحفوظات الملكية، أو المكتبة، وتتألف من نصوص إدارية واقتصادية وقضائية ودينية وأدبية ومدرسية وقوائم معجمية (معجمات)، ورسائل ومعاهدات· ويُظهر لنا الحجرة الرئيسة ترتيباً مكتبياً علمياً للرُقم التي كانت موجودة فيها·

ففي هذه الحجرة البالغة أبعادها ٥،١٥ × ٣،٥٥م رُتبت الرُقم حسب فحواها، على رفوف خشبية (يُعتقد أن عددها ثلاثة)، مثبتة في الجدران ولها دعائم أرضية بحيث وضعت الصغيرة فوق والكبيرة تحت· ويبلغ عمق الرف ٨٠ سم، وبفصله عن الرف الآخر ٥٠ سم· وقد تحولت تلك الرفوف والدعائم الخشبية إلى رماد نتيجة النيران التي أَصابت القصر الملكي على يد نارام سين الأكادي (نحو ٢٢٥٠ق·م)، وأدت بالتالي إلى حرق الألواح الكينية واكتسابها صلابة ساعدتها على تحدي عاديات الزمن على مدى القرون الطويلة الماضية(٤)·

أما في أوجاريت، المركز الثقافي والتجاري العالمي، الذي بلغ أوج ازدهاره بين ١٤٠٠–١٢٠٠ ق·م، فقد عثرت البعثة الأثرية الفرنسية برئاسة كلود شيفر C.F.A Schaeffer، والتي بدأت التنقيب في العام ١٩٢٩، على العديد من المكتبات الخاصة، منها مكتبة الكهنة، ومكتبة لأحد الموظفين الملكيين والتي ضمت معجماً

بأربع لغات: سومرية – أكادية – حورية – أوغاريتية ومكتبة لموظف آخر ضمت معاجمَ وأعمالاً أدبية سومرية وبابلية وأوغاريتية[٥].

ومن المكتبات الخاصة المكتشفة في بلاد الرافدين مكتبة مؤلفة من نحو ثلاثة آلاف لوح طيني في بيت أحد الكهان يرقى في تاريخها إلى نحو ١٦٣٥ق.م. وقد كشفت عنها الحفريات الأثرية البلجيكية في تل الدير.

كذلك الأشخاص الذين أرسلهم آشور بانيبال، الملك الآشوري الشهير (٦٦٩–٦٢٧ق.م)، إلى المدن الأخرى لتقصي أخبار الألواح المكتوبة، أعلموه بوجود مكتبات خاصة متعددة في بلاد بابل، وأرسلوها إليه لتشكل جزءاً من مكتبته الضخمة التي أقامها في نينوى، والتي تعدّ أشهر مكتبات بلاد الرافدين، ومكتبات الشرق القديم عموماً، ومصدراً لا يقدر بثمن لمعرفة التاريخ والآداب والعلوم الرافدية المختلفة.

مما تجدر الإشارة إليه أن بعض ملوك آشور السابقين لآشور بانيبال أسسوا مكتبات خاصة بهم. فقد عثر فالتر أندريه W. Andrae في آشور (الموقع الحالي قلعة الشرقاط)، في العام ٤/ ١٩٠٥ في الفناء الجنوبي الغربي من معبد الإله آشور على مئات من الألواح الطينية التي تمثل مكتبة وأرشيفاً للملك تيجلات بيليصر الأول (١١١٢–١٠٧٤ق.م). وهي عبارة عن نسخ بابلية وآشورية من عصور أقدم تضم قوانين وأساطير وملاحم وترانيم وصلوات وتنبؤات وغيرها[٦].

إلى جانب هذه المكتبة الملكية اكتشف فالتر أندريه في الحفريات نفسها في آشور مكتبة خاصة في بيت أحد الكهنة، تضم عدداً كبيراً من النصوص الدينية والملحمية وقوائم معجمية، وقد ذّيلت باسم الكاهن كيصير نابو "كاهن التضرعات" في معبد آشور[٧].

وأقام الملك تيجلات بيليصر الثالث (٧٤٥–٧٢٧ق.م)، مكتبة في أوروك كانت تحتوي على ترجمات من الآشورية إلى الآرامية، وكتباً للقواعد ومعاجم. وعثر فيها على نسخة من ملحمة جلجامش، وعلى نسخة من أسطورة الطوفان.

لكن ما من أحد من هؤلاء الملوك السابقين وصل إلى الدرجة التي وصلها آشور بانيبال في عنايته بالعلوم والآداب والفنون. فقد كلف كتاب قصره بمهمة نسخ النصوص والأعمال الكتابية المختلفة وإيداع تلك النسخ في مكتبته. ويفتخر بذلك فيقول: "المختار من فن الكتابة، والرُقم التي لم يملكها أحد من الملوك أسلافي، حكمة نابو (إله الكتابة والكتاب والحكمة)، الأسافين المضغوطة على اختلافاتها، كتبتها على ألواح، ورتبتها، وراجعتها، ثم وضعتها وسط قصري لرؤيتها وقراءاتها"(٨).

وتتحدث ثلاثة نصوص من مكتبة آشور بانيبال عن وجود مكتبات خاصة عند العديد من العلماء الكتاب في نينوى فيها الكثير من الألواح الطينية والخشبية، كتبت عليها أعمال أدبية وعلمية تقليدية، جُلبت إلى المكتبة الملكية الجديدة أو يجب أن تُجلب.

أما الألواح المكتشفة في مكتبة آشور بانيبال فبلغت أكثر من خمسة وعشرين ألف لوح طيني تشمل أساطير وترانيم وملاحم (كأسطورة الخلق، وأسطورة الطوفان، وملحمة جلجامش)، ونصوصاً أخرى تتعلق بمختلف جوانب الحياة العلمية في بلاد الرافدين، كالطب والرياضيات، والفلك، والعمارة، والتنجيم، والجغرافية، والتاريخ، وقوائم بأسماء بلدان ومدن وأنهار وجبال ونباتات وطيور وغيرها. ويمثل بعض رُقمها معاجم لغوية كتبت باللغتين السومرية والأكادية. وهذه الألواح محفوظة حالياً في المتحف البريطاني في لندن، لأن البعثة التي كشفت عنها بين ١٨٤٥-١٨٥١، كانت بريطانية بقيادة أوستن هنري لايارد A.H. Layard.

جند آشور بانيبال عدداً كبيراً من العلماء والكتاب للعناية بمكتبته، وجلب ونسخ الرُقم المختلفة من مدن بلاد الرافدين الأخرى. فقد كان يرسل بعثات إلى المدن المعروفة آنذاك كمرتكز للآداب والعلوم مثل بابل وبورسيبا وكوثا وآشور، وبهدف الحصول على المؤلفات العلمية والأدبية المختلفة. وهناك رسالة، تبدو منه، توضح ذلك، نقتطف منها المقاطع التالية:

"كلمة الملك إلى شادونو، أحوالي جيدة، أرجو أن تكون أنت بخير، عندما تتسلم هذه الرسالة خذ معك هؤلاء الرجال الثلاثة (أسماؤهم مذكورة) ورجال العلم في مدينة بورسيبا، وابحث عن جميع الألواح تلك التي في بيوتهم، وتلك التي أودعت في معبد إزيدا Ezida (معبد الإله نابو في بورسيبا)". ثم يتابع فيقول:

وابحثوا عن الألواح القيمة الموجودة في خزائن كتبكم والتي لا توجد في بلاد آشور، وأرسلوها إليّ. وكتبت إلى الموظفين والمراقبين ..... ولن يمتنع أحد عن إعطائكم أي لوح تريدونه وإذا رأيت أي لوح أو (رُقيم) يخص الطقوس، لم أكتب لك عنه سابقاً، وتعتقد أنه مفيد لقصري، ابحث عنه واحصل عليه وأرسله إليّ"(١٠).

وهناك رسالة من أحد الكتاب إلى الملك آشوربانيبال يقول فيها:

"سنعمل بموجب تعليماتكم الموجهة إلينا لجمع الألواح المدونة باللغة السومرية".

ونقرأ في رسالة ثانية من كاتب آخر إلى الملك ما يلي:

"بناءً على أمركم سأجلب اللوح الطيني الخاص بالملك حمورابي، علماً أن النسخة الأصلية من هذا اللوح كانت قد تلفت وأمر حمورابي بكتابة نسخة عنها"(١١)

يتضح من ذلك حرص آشوربانيبال الشديد على الحصول على الألواح الهامة والنادرة ورغبته في اقتنائها في مكتبته.

ويبدو أن الألواح كانت تُعار أحياناً من المكتبات. فهناك لوح من مكتبة أوروك من عصر شاروكين الثاني ملك آشور (٧٢٢-٧٠٥ق.م)، كتب عليه أنه نسخة من لوح آخر استعاره "قصر آشور"، ويبدو أنه لم يُعَدْ إلى مكانه. كذلك استعير لوح آخر من أوروك من قبل نابو بولاصار ملك بابل(١٢).

وكان يجري تمييز محتوى الألواح عن طريق إضافة "تذييل (Colophons) إلى نهاية النص المكتوب، يحوي معلومات عن العمل المكتوب (عنوانه، وعدد أسطره، ومصدر النسخة المكتوبة)، ومعلومات عن الكاتب، والهدف من الكتابة، وأدعية وصلوات

والتأريخ، وإذا كان العمل الأدبي مكتوباً على ألواح متعددة (كملحمة جلجامش المكتوبة على اثني عشر لوحاً)، يجري تمييزها عن بعضها بترقيمها، أو بإضافة السطر الأخير من اللوح السابق، أو بعض كلمات منه، إلى بداية اللوح التالي، وكان عنوان العمل المكتوب يتألف من الكلمات الأولى منه، مثل: "إنوما إليش: عندما في العلى"، وإما من وصف محتواه. وإذا كان له عنوانان يمكن أن يّذكر الاثنان، مثل: "الذي رأى كل شيء"، سلسلة جلجامش".

أما الكاتب فيذكر نفسه بالصيغة المعتادة: "لوح فلان"، أو "الكاتب فلان"، أو يميز نفسه بكتابة "يد فلان"[١٣].

أما ذكر الهدف من الكتابة فهو لبيان استخدامات النص المكتوب للحصول على ثواب الآلهة على القيام بالكتابة. وكان الهدف من الأدعية والصلوات تحقيق الخير للكاتب وإبعاد الشر عنه، وحفظ اللوح المكتوب.

كما طوّر الكتاب نظاماً للتمييز بين الألواح، فمثلاً الألواح ذات الشكل المربع كانت لتسجيل عمليات الإقراض، والألواح المدورة لتسجيل المنتجات الزراعية.

كان مدير المكتبة يحمل اللقب الأكادي "ربّ جيرجيناكي" Rab gerginaki، بينما تسمى المكتبة "جيرجيناكو" Gerginakku، وهي كلمة مستعارة من اللغة السومرية، وتشير إلى الجرار الفخارية التي كانت تحفظ فيها بعض الرُقم الطينية[١٤].

كان الطين مادة الكتابة الرئيسة في بلاد الرافدين وشمالي سورية، تصنع منه ألواح مختلفة الأشكال (حسب الزمان والمكان والمضمون)، فهي إما مستطيلة وإما مربعة وإما أسطوانية وإما دائرية وإما موشورية، تجفف بعد كتابتها إما تحت أشعة الشمس أو تشوى في أفران خاصة، إذا كانت تتمتع بأهمية كبيرة، كي تصبح أكثر مقاومة.

بالإضافة إلى الطين استخدم الإنسان الرافدي مواد أخرى للكتابة، ولكن على نطاق ضيق، كالمعادن والأحجار. ويبدو أن فقر بلاد الرافدين بالمعادن والأحجار كان أحد

الأسباب الرئيسة في استخدام الطين كمادة أساسية للكتابة لتوفره في وديان نهري دجلة والفرات.

واستخدم سكان بلاد الرافدين الخشب والعاج أيضاً للكتابة، ولكن في حالات قليلة جداً، كما تدل على ذلك الآثار المكتشفة في مدينتي آشور وكلخو[١٥].

بالنسبة إلى مصر فقد عُثر فيها على مئات الألوف من البرديات (البردي كان مادة الكتابة الرئيسة في مصر القديمة) التي تعود إلى عصور مختلفة، دون أن تكون هناك إشارة إلى وجود مكتبة أو أرشيف، كما كان عليه الحال في بلاد الرافدين. ولكن ذلك لا يعني عدم الاهتمام بالعلوم والآداب والفنون وغيرها. وإنجازات الحضارة المصرية القديمة هي خير دليل على ذلك.

هناك شهادة من عصر متأخر يقدمها المؤرخ الإغريقي ديودور الصقلي Diodorus Siculus (القرن الأول قبل الميلاد) في "مكتبته التاريخية". فهو يصف مكتبة في طيبة تحوي نصوصاً مقدسة موجودة في معبد مدفن الفرعون المصري رعمسيس الثاني (١٢٩٠-١٢٢٤ق.م).

لكن علماء الآثار حديثاً لم يعثروا على أية دلائل على وجود مكتبة في خرائب المعبد. إلا أنهم اكتشفوا بالقرب من المعبد قبرين، لأب وابنه، كانا يعملان في المكتبة، الأب لقب "مدير الكتب"، والابن لقب "رئيس قسم الكتب"، مما يدل على وجود المكتبة التي يبدو أنها نُهبت وسُرقت.

غير أن أهم وأشهر مكتبة عرفتها مصر لا تعود إلى العصور القديمة، بل إلى العصر الهلنستي عندما حكمتها أسرة البطالمة، ألا وهي مكتبة الإسكندرية Bibeleutica Alexandrina، التي أمر بإنشائها بطليموس الأول Ptolemaios 1 مؤسس الدولة البطليمية في مصر (٣٢٣-٢٨٤ ق.م)، لتكون ملحقة بالموسيون Mouseion، معبد ربات الفنون والعلوم. وكلف بتنفيذها صاحب الفكرة الأول المفكر والسياسي الاثيني ديمتريوس الفاليري Demetrius Phalereus، وعينه مشرفاً ورئيساً للموسيون،

ووضع تحت تصرفه الأموال اللازمة لشراء الكتب، وجذب العلماء واستقدامهم إلى الإسكندرية[١٦].

وعمل خلفاء بطليموس الأول على تطوير الموسيون والمكتبة من خلال استقدام العلماء والمفكرين من مختلف أنحاء العالم الهلنستي إلى الإسكندرية، وجلب الكتب والمخطوطات، التي كانت عبارة عن لفائف من البردي، ووضعها في متناول الطلاب والباحثين، والذين كانوا يتلقون معونة مادية من الدولة تكفيهم مشقة العناء والبحث عن لقمة العيش، وتمكنهم من متابعة أعمالهم التعليمية والبحثية.

وكان النسّاخ في المكتبة يقومون بنسخ المخطوطات وبيعها لمن يرغب داخل مصر وخارجها. وقد وصف الجغرافي والمؤرخ الإغريقي سترابون Strabon، الذي زار مصر وأقام فيها خمس سنوات خلال الثلث الأخير من القرن الأول قبل الميلاد، مكتبة الإسكندرية بقوله:

"الموسيون جزء من القصور الملكية، وهو كتلة ضخمة من الأبنية والحدائق، ويشتمل على منتزه ورواق في مقاعد، وبيت كبير فيه قاعة لاجتماع العلماء أعضاء الموسيون، وهو مقسم إلى أقسام يرأس كل منها كاهن. وكانت رواتب العلماء والموظفين تُدفع من قبل الملك البطلمي، وفيما بعد من قبل الإمبراطور الروماني". لكنه لم يحدد موقع المكتبة من مبنى الموسيون.

وربما يكون السبب في ذلك هو أنها لم تعد موجودة عندما جاء سترابون إلى مصر، إذ إن الحريق الكبير الذي أصابها في أثناء "حرب الإسكندرية" ما بين يوليوس قيصر وبطليموس الثالث عشر وأعوانه في العام ٤٨ ق.م، كان قد أتى على معظم محتوياتها من الكتب والمخطوطات.

في عهد بطليموس الثالث بُني معبد السيرابيوم للإله الرسمي الجديد للبطالمة المدعو سرابيس Sarapis، وذلك في الحي المصري من الإسكندرية (الحي الخامس). وتميز هذا المعبد بالضخامة والروعة، وشاعت شهرته في العالم القديم، حتى قيل إنه أكبر

المعابد القديمة بعد معبد الكابيتول في روما، وبالطبع ضم هذا المعبد، شأنه شأن المعابد القديمة، مكتبة نمت بسرعة، وصارت توضع فيها الكتب التي ضاقت بها مكتبة الموسيون. وهكذا أصبح لطلاب وباحثي الموسيون مكتبة جديدة يمكن الاستفادة منها، وصارت المحاضرات والدروس تلقى في أروقة معبد السيرابيوم والحجرات الملحقة به.

أدى ذلك كله إلى جذب الإسكندرية لأدباء كبار من مختلف أنحاء العالم الهللنستي من أمثال كاليماخوس Callimachus الشاعر الذي أتى من برقة، وقام بفهرسة محتويات مكتبة الإسكندرية، والأديب زينودوتوس Zenodotus، الذي جاء من إفيسوس، والشاعر فيلتياس الذي قدم من جزيرة كوس، وغيرهم.

لم يقتصر الاهتمام في مكتبة الإسكندرية على الأدب فقط، بن سمس مختلف فروع المعرفة كالرياضيات، والهندسة، والفلك، والطبيعة، والجغرافية، وغيرها. ويكفي أن نشير في هذا المجال إلى أن العالم الرياضي والهندسي المعروف إقليدس Euclides، الذي وضع كتاباً في أصول الهندسة، وأرخميدس Archemedes، مكتشف قانون الكثافة النوعية للأشياء، وإراتوستينيس Eratosthenes، (من برقة) الجغرافي المشهور، الذي تولى رئاسة مكتبة الإسكندرية لفترة من الزمن، ونجح في قياس محيط الكرة الأرضية بطريقة علمية سليمة، وأريستارخوس Aristarchus، (من جزيرة ساموس) القائل بنظرية دوران الأرض يومياً حول محورها، وسنوياً حول الشمس، وهيروفيلوس Herophilus، (من خالقيدونية) الجرّاح والعالم في التشريح، ومكتشف الدورة الدموية، والذي قاس النبض باستعمال ساعة مائية، وأرستراتوس العالم في وظائف الأعضاء والأنسجة والأوعية الدموية، وهيبارخوس الفلكي، وغيرهم، كانوا من علماء الإسكندرية.

وكانت خير تزكية لأي طبيب أن يقال عنه إنه أتم دراسته في الموسيون. حرص ملوك البطالمة على تزويد مكتبة الإسكندرية بالكتب والمخطوطات من شتى أنحاء

العالم وفي مختلف فروع المعرفة. فقد ذكر يوستينوس Justinus أحد المؤرخين الرومان من القرن الثالث الميلادي أنه: "بينما كان بطليموس ملك مصر يؤسس مكتبة، اجتهد في أن يضم مجموعة من كتابات جميع الشعوب". وأورد أحد الشرّاح القدماء لمسرحيات أرستوفانس عن بداية نشوء المكتبة ما يلي:

"لأن ذلك الملك بطليموس (الثاني) فيلاديلفوس الذي كان على معرفة بالفلاسفة وغيرهم من المؤلفين المشهورين، بعد أن اقتنى الكتب، ودفع ثمنها من الأموال الملكية، من جميع أرجاء العالم قدر المستطاع، مستعيناً في ذلك بدمتريوس الفاليري (وغيره من النصحاء)، أنشأ مكتبتين: واحدة خارج القصر (مكتبة السيرابيوم)، والأخرى داخل القصر (مكتبة الموسيون). وكان في المكتبة الخارجية ٤٢٨٠٠ مجلداً، وفي مكتبة القصر ٤٠٠٠٠٠ مجلدٍ مختلفٍ(؟)، و ٩٠٠٠٠ مجلدٍ مفردٍ ومختصرات، كما ذكر كاليماخوس، أحد رجال القصر وأمين المكتبة الملكية، وإراتوسثينيس أمين المكتبة ذاتها من بعده بقليل"[١٧].

وأصدر بطليموس الثالث قراراً يفرض على كل من يأتي إلى الإسكندرية، أن يقدم ما لديه من مخطوطات إلى المكتبة، فيقوم النساخ بنسخها، ويعطوا صاحبها نسخة بينما يحتفظوا هم بالنسخة الأصلية. وكان هذا الملك يلجأ أحياناً إلى أساليب هي أقرب ما تكون إلى الاحتيال والخديعة، للحصول على مخطوطات أصلية، وإيداعها في مكتبة الإسكندرية. وملخص ذلك أنه طلب من مدينة أثينة المخطوطات الأصلية لمسرحيات إيسخيلوس وسوفوكليس ويوريبيدس ليتم نسخها في الإسكندرية، ثم تُعاد إلى أثينة. ودفع مقابل ذلك، كضمان مبلغ خمس عشرة تالنت من الفضة (نحو ٧،٥ كغ). وبعد الانتهاء من عملية النسخ أمر بطليموس الثالث بإرسال النسخ إلى أثينة وإبقاء المخطوطات الأصلية في مكتبة الإسكندرية، مضحياً بالفضة المدفوعة كضمان.

وكان قبل ذلك بزمن صاحب فكرة المكتبة وأمينها الأول ديمتريوس الفاليري قد تمكن من شراء مكتبة أستاذه أرسطو التي كان موجودة في مدرسة اللوكيون بأثينة، مقابل

دفع مبلغ ضخم من المال. وبذلك نالت مكتبة الإسكندرية شهرة كبيرة في العالم القديم، وأصبحت مقصداً للعلماء والمفكرين.

تقدر الدراسات الحديثة أن العدد الإجمالي للمخطوطات والكتب والتآليف التي حفظت في مكتبة الإسكندرية وصل في نهاية العصر البطلمي إلى نحو تسعمائة ألف، من بينها نحو مائتي ألف نهبها القائد الروماني ماركوس أنطونيوس من مكتبة برغاموم في آسية الصغرى، وأهداها إلى كليوباترة السابعة آخر ملكة بطلمية على مصر.

لم تقتصر المخطوطات والكتب والمؤلفات التي حفظت في مكتبة الإسكندرية على علوم وآداب الإغريق، بل شملت علوماً وآداباً مصرية قديمة، ورافدية، وفينيقية، وهندية، وغيرها، منها على سبيل المثال كتاب "تاريخ مصر القديم" Callimachus، الذي وضعه بالإغريقية الكاهن المصري مانيتون السمنودي في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد، وكتاب "تاريخ بابل القديم" Zenodotus، الذي ألّفه الكاهن البابلي برحوشا (بيروسوس) في القرن الثالث قبل الميلاد.

ولكن لسوء الحظ فإن هذا الكنز الضخم امتدت إليه مع مرور الزمن يد الخراب والتدمير، فاحترق في حرب الإسكندرية (في العام ٤٨ق.م) نحو أربعمائة ألف مخطوط وكتاب، وفقدت أعداد أخرى في القرن الثالث الميلادي أثناء الاضطرابات والمشاكل التي رافقت انتشار المسيحية في مصر، وبخاصة بعد أن أصدر الإمبراطور الروماني ثيودوسيوس الأول Theodosius 1 في العام ٣٩١م، قراراً بتدمير المعابد الوثنية في الإسكندرية.

وهكذا انتهى أمر معبد السيرابيوم والمكتبة الملحقة به. وعندما فتح العرب المسلمون مصر في العام ٦٤٢م، لا نسمع عن أي ذكر لمكتبة الإسكندرية، لا في كتب المؤرخين العرب أو البيزنطيين أو الأقباط. أما التهمة التي ألصقت بالعرب بأنهم هم الذين أحرقوا مكتبة الإسكندرية عندما فتحوا مصر، فلا أساس لها من الصحة، وتستند إلى روايات متأخرة من القرن الثالث عشر الميلادي[١٨].

المكتبات في بلاد الإغريق:

تعدّ الحضارات الإغريقية أول حضارة معروفة تؤسس مكتبات لاستعمال الطبقات الشعبية وأعضاء النخبة الحاكمة. ففي القرن السادس قبل الميلاد قام بيزيستراتوس Pisistartus (٥٥٣-٥٢٧ ق.م)، ديكتاتور أثينة بتأسيس أول مكتبة في بلاد الإغريق، كما قام بوليكراتيس Polycrates ديكتاتور جزيرة ساموس (٥٣٥-٥١٥ق.م)، الذي كان يحب جمع العلماء والأدباء والشعراء والموسيقيين حوله بتأسيس مكتبة أيضاً. لكن معظم الناس كانوا أميين، وبالتالي فإن هذه المكتبات خدمت نسبة صغيرة من مجموع السكان فقط.

بالإضافة إلى المكتبات الحكومية أسس الأغنياء وأعضاء الطبقة المفكرة مكتبات خاصة، وكذلك مكتبات متخصصة في الطب والفلسفة والعلوم الأخرى. ففي القرن الرابع أسس كل من أفلاطون وأرسطو مدرستيهما الشهريتين، الأكادية واللوكيون، في أثينة، وضمت كل منهما مكتبة كبيرة في مختلف العلوم، وكان لدى العلماء يوريبيدس Euripides وأفلاطون وهيردوت وتوكيديدس مكتبات خاصة مهمة.

مكتبة برغاموم:

كانت مكتبة برغاموم (تعرف أيضاً باسم برغالمون أو برغاموس) المكتبة المنافسة الوحيدة لمكتبة الإسكندرية من حيث الحجم والمحتوى لعقود من السنين، وكانت موجودة في مدينة برغاموم Pergamum شمال غربي آسية الصغرى.

تشير الدراسات والبحوث الأثرية إلى أن مكتبة برغاموم كانت تحوي مائتي ألف لفافة ومخطوط. مثل مكتبة الإسكندرية وكان لها فهرس لتسهيل الدخول إلى مجموعات الكتب الموجودة.

أسس المكتبة أتالوس الأول سـ تير Attalus I. Soter الذي حكم من ٢٤١ إلى ١٩٧ق.م، وأصبح سيد شمال غربي آسية الصغرى بانتصاراته على القوط وعلى

الملك السلوقي أنطوخوس الثالث. وبتحالفه مع روما. وجعل عاصمته المركز الفني والأدبي لآسية الصغرى، وقد وسّع المكتبة بشكل كبير ابنه يومينيس الثاني Eumenes II الذي حكم من ١٩٧ إلى نحو ١٦٠ ق.م، وتابع سياسة والده في التحالف مع روما[١٩]

ويعود إلى عهده مذبح زيوس وتطوير المكتبة، حيث قامت مجموعة من العلماء بتأسيس مدرسة لدراسة قواعد اللغة الإغريقية مقابل علماء مكتبة الإسكندرية. وقام أتالوس الثالث الذي أصبح حاكم برغاموم في العام ١٣٨ ق. م، بالوصية بمملكته ومكتبته للرومان في العام ١٣٣ق.م.

كما تذكر بعض المصادر الرومانية (بليني الأكبر وقارو مثلاً) منع بطليموس الثاني حاكم مصر (٢٨٥-٢٤٦ق.م)، تصدير البردي من مصر إلى برغاموم لأنه كان يغار من غنى مكتبة برغاموم بالكتب. فشجع هذا المنع الكتاب في مكتبة برغاموم على اختراع مادة بديلة عن البردي في الكتابة. فأخذوا بنسخ العديد من نصوص مكتبتهم على الرق، (باللاتينية Pergamen، ومنها الكلمة الإنكليزية Parchment، والكلمة الفرنسية Pergamen والألمانية Parchomin)، وهو مادة مصنوعة من جلود الحيوانات الصغيرة (أغنام - ماعز - عجول). ومما تجدر الإشارة إليه أن الرق كان أكثر متانة من البردي، وبخاصة عندما تخاط صفحات متعددة منه بعضها ببعض لتشكل كتاباً، وبسبب متانته المتزايدة، حل في العام ٤٠٠ م محل البردي كمادة أساسية للكتابة في أنحاء أوروبة[٢٠]. كانت برغاموم مركزاً مهماً للثقافة الإغريقية. حالياً تحيط خرائب برغاموم بمدينة برغامة التركية.

المكتبات في روما القديمة:

يمكن القول: إن اهتمام الرومان بالكتب والمكتبات كان نتيجة احتكاكهم ببلاد الإغريق والشرق عموماً، فعندما احتلوا مقدونيا في العام ١٤٦ق.م، استولوا على مجموعات ضخمة من الكتب والمؤلفات من المكتبات الإغريقية المنتشرة، وحمل الضباط الرومان

هذه الكتب والمؤلفات غالباً إلى فيلاتهم الخاصة كغنائم حرب. ومع تزايد قوة روما واتساع دولتها أصبح تقليداً لدى القادة الرومان أن يحيطوا أنفسهم بالكتب كدليل على التميز الاجتماعي.

كان لدى شيشرون Cicero (١٠٦-٤٣ق.م)، الخطيب الروماني الشهير مكتبة خاصة في روما، وحصل على كتبها عن طريق الشراء من بلاد الإغريق، أو روما نفسها. واستولى الجنرال ورجل الدولة الروماني لوكولوس L.L. Lucullus (نحو ١١٠-٥٦ق.م)، الذي حارب ميثراداتيس الرابع ملك بونتوس في آسية الصغرى بين ٧٤-٦٦ق.م، والذي كان يعدّ أحد أغنى الرجال في العالم الروماني آنذاك، وكان مشهوراً بطريقة حياته الفارهة، وعلى مكتبة ضخمة كجزء من غنائمه الحربية، والتي وضعها تحت تصرف المهتمين بالثقافة والفكر في روما. ويخبرنا شيشرون عن زيارته تلك المكتبة لاستعارة كتاب، حيث وجد هناك صديقه كاتو تحيط به كتب الفلسفة الرواقية. وتحدث بتقدير عن نوعية الكتب الموجودة فيها كاتب السير المشهور بلوتارخ Plutarch (٤٦-١٢٠ق.م).

أخذ عدد المكتبات الخاصة بالازدياد مع بداية العصر الإمبراطوري (٢٧ق.م)، بسبب اتساع الإمبراطورية الرومانية، وتزايد الحاجة للكتاب للنشاطات العملية والأدبية. إلا أنه كان هناك من يجمع الكتب في المجتمع الروماني من الأغنياء للتفاخر والتباهي إلى درجة أن ذلك أصبح تقليداً عند الطبقة الغنية. حتى أن الفيلسوف والخطيب ورجل الدولة سينيكا Seneca (٤ ق.م - ٦٥م)، سخر من هؤلاء بقوله: "إن أصحاب مثل هذه المكتبات لم يقرؤوا في حياتهم حتى عناوين الكتب التي لديهم". وتعبّر هذه السخرية عن ضيق المثقفين الفقراء بواقعهم حيث لا يستطيعون شراء الكتب، بينما يتباهى الأغنياء باقتناء الكتب دون الاستفادة منها[٢١].

عمل الأباطرة على إنشاء مكتبات خاصة بهم في قصورهم. وكذلك فعل العلماء والمفكرون الكبار. فبليني الأكبر Pliny the Elder (٢٣-٧٩م)، كانت عنده مكتبة

خاصة اعتمد عليها في كتابة عمله الموسوعي "التاريخ الطبيعي" Herculaneum. كما أن بلوتارخ كاتب السير المار ذكره آنفاً امتلك مكتبة خاصة. والمكتبة الخاصة الوحيدة المكتشفة حديثاً هي مكتبة أحد الأغنياء في مدينة هيركولانيوم Herculaneum، التي غطتها حمم بركان فيزوف في العام ٧٩م. وكانت تضم حوالي ألفي لفافة من البردي مرتبة في ثلاث قاعات بجانب الجدران. كتبت باللغة الإغريقية، وسميت الفيلا التي اكتشفت فيها "فيلا البرديات".

كان يوليوس قيصر J. Caesar (١٠٠-٤٤ق.م)، رجل الدولة العسكري والمشهور وأول من فكر بإقامة مكتبة عامة في روما، وربما أتته هذه الفكرة بعد رؤيته مكتبة الإسكندرية ذائعة الصيت آنذاك. وعهد بتنفيذ فكرته في العام ٤٧ق.م، إلى المفكر الروماني المشهور ماركوس تيرينتيوس فارو M. T. Varro (١١٦-٢٧ق.م)، الذي وضع مقالة بعنوان "عن المكتبات" De bibliothecis، والتي لم يعثر عليها حتى الآن.

ويمكن اعتبار المكتبتين اللتين أنشأهما الإمبراطور أغسطس في العام ٢٨ ق.م، أول مكتبتين عامتين ي روما. وكانتا مرتبطين بمعبد الإله أبولو. بنيت الأول في تل البلاتين Mons Platinus ، فصارت تعرف باسم "مكتبة البلاتين"، وبنيت الثانية في ساحة الإله مارس تكريماً لأخت لإمبراطور أكتافيا. وانقسمت كل مكتبة، كشأن المكتبات اللاحقة إلى قسمين: الأول للمؤلفات باللغة اللاتينية، الثاني للمؤلفات باللغة الإغريقية.

اهتم خلفاء أغسطس ببناء المكتبات في روما، وأشهرهم الإمبراطور ترايان Trajan (٩٨-١١٧م)، الذي بنى أهم مكتبة عامة في روما في العام ١١٤م. هي مكتبة Ulpia Bibliotheca التي استمرت حتى القرن الخامس الميلادي. وقد شيدت في ساحة ترايان، وكانت تتألف من بناءين متقابلين يفصل بينهما عمود ترايان الشهير، وتدل

إقامتهما في هذا المكان المهم من روما على المكانة السامية التي بلغها الكتاب والمكتبات في تفكير الرومان[٢٢].

كانت مكتبة أولبيا كمعظم المكتبات الرومانية مقسمة إلى قسمين: إغريقي ولاتيني وأمر الإمبراطور ترايان بإقامة مكتبة في الحمامات التي كان قد أمر ببنائها في روما. ويعبر هذا عن رغبة الإمبراطور في جعل إمكانية الوصول إلى الكتاب سهلة في أكثر الأماكن التي يوجد فيها الناس. فالحمامات Thermae عند الرومان لم تكن مكاناً للاستحمام فقط، بل مركزاً للقاءات والنشاطات المختلفة أيضاً، بما فيها الثقافية. لذلك زُوّدت بالمكتبات. فبعد ترايان بنى كاراكلا Caracalla (٢١١-٢١٧م)، حماماته الشهيرة في روما وزوّدها بمكتبات. وكذلك فعل ديوقلتيان Diocletian (٢٨٤-٣٠٥م) فيما بعد.

في نهاية القرن الثالث الميلادي كانت روما تتباهى بوجود نحو ثلاثين مكتبة شبه عامة فيها، معظمها مرتبط بالمعابد.

كانت محتويات هذه المكتبات مقسمة حسب اللغة إلى قسمين: لاتيني وإغريقي، ورتبت الكتب واللفائف حسب الموضوع، ثم أبجدياً حسب المؤلف.

ولكن على الرغم من وضع المكتبات في أبنية فخمة فإن مجموعات الكتب الرومانية كانت صغيرة من حيث الحجم، ومعرضة بسهولة لأخطار الحرائق والحشرات وغيرها.

ازدهرت المكتبات في معظم أرجاء العالم الروماني، وليس في العاصمة روما فقط. ومن أشهر المكتبات التي عرفت خارج إيطالية مكتبة مدينة ثاموغادي Thamugadi (حالياً تيمغاد في شمال شرقي الجزائر)، وهي المدينة الرومانية التي أمر ببنائها الإمبراطور ترايان في العام ١٠٠م، لتكون مركزاً دفاعياً مهماً عن نوميديا، والتي

تراوح عدد سكانها بين عشرة وخمسة عشر ألف نسمة، وضمت ساحة ومكتبة عامة ومسرحاً يتسع لنحو أربعة آلاف متفرج.

تعرضت روما بدءاً من القرن الرابع الميلادي لمشاكل وأزمات متعددة داخلية وخارجية. وترك هذا أثره بشكل واضح في الحياة الثقافية والمكتبات التي أخذت تختفي تدريجياً الواحدة تلو الأخرى. وقد وصف المؤرخ الروماني أميانوس مارسيلينوس A. Marcellinus (٣٣٠-٣٩٥م)، ذلك بقوله: "إن الحياة ماتت في كل المكتبات التي أصبحت كالمقابر".

الهوامش

(١) انظر تفاصيل ذلك في: J.P., The Nippur Library , in: Journal of the American Oriental Society 26 (1905), P. 145-164 ; Gibson, M., Nippu 1975, A Summary Report, Sumer 34 p 114-121

(٢) Kramer, S.N. , History Begins at Sumer, New York 1959

(٣) بارو، أندريه، ماري، ترجمة د. رباح نفاخ، دمشق ١٩٧٩، ص ١٦٩-١٨٦.

(٤) Pettinato , G. , The Archives of Ebla, An Empire inscribed in Clay, -4 Garden City – New York 1981, P. 42 ff.; Wellish, H.H., Ebla: The world's oldest Library, in : the journal of library History 16 (1981), Nr.3, P. 488-509.

(٥) انظر تفاصيل ذلك في:

Burr, V., Bibliotheken in Ugarit, in Bibliothekwesen und Bibliographie Zeitschrift futer14 (1967), S 154-167

(٦) Otten, H., Bibliotheken im Alten Orient, in: Das Altertum 1(1955) S.69.

(٧) Ibid. , S. 69-7o

(٨) مرعي، عيد. عبد الله، فيصل، **تاريخ الوطن العربي القـديم (بـلاد الرافـدين)**، جامعة دمشق، ١٩٩٥-١٩٩٦، ص ٣٨٧.

(٩) Freydank, H., Schreiber, Sehule und Bildung in alten Mesopotamien, -9 in: Das Altertum 31(1985), S. 198.

(١٠) Chiera, E., They wrote on Clay, Chicago 1938, P. 173 ff.

(١١) Driver, G.R., Semitic writing from pictograph to Alphabet, London 1976, P. 77.

(١٢) Ibid.,P.76.

(١٣) انظر مقالنا: **الكتابة والتعليم في بلاد الرافدين**، مجلة دراسات تاريخية ٤١-٤٢ (١٩٩٢)، ص ٢٩-٣٠.

(١٤) Von Soden, W., Akkadisches handwoerterbuch I, S. 284 b.

(١٥) انظر مقالنا: **الكتابة والتعليم في بلاد الرافدين**، ص ١٤.

(١٦) انظر عن مكتبة الإسكندرية بالتفصيل: العبادي، مصطفى، **العصر الهلنستي**، مصر، بيروت، ١٩٨٨، ص ١٥١ وما بعدها.

(١٧) **المرجع السابق**، ص ١٥٨.

(١٨) **المرجع السابق**، ص ١٩٢ وما بعدها.

(١٩) استمرار ازدهار برغاموم في عهد أتالوس الثاني فيلاديلفوس (١٦٠-١٣٨ق.م) وفي عهد أتالوس الثالث فيلوميتور (١٣٨-١٣٣ق.م). لم يكن لهذا الأخير وريث فأوصى بمملكته للرومان، وبقيت برغاموم تحت السيطرة الرومانية واحدة من مدن آسية الصغرى الرئيسية، وأصبحت عاصمة مقاطعة آسية.

(٢٠) انظر عن تفاصيل صناعة الرق واستخدامه للكتابة، والكسندر ستيبتشفيتش، **تاريخ الكتاب**، القسم الأول، ترجمة محمد الأرناؤوط، عالم المعرفة ١٦٩، الكويت، ١٩٩٣، ص ٨٦-٩٢.

(٢١) **المرجع السابق**، ص ١٣٤.

(٢٢) **المرجع السابق**، ص ١٣٧.

أخبار أوغاريت في مراسلات العمارنة

الأستاذ الدكتور فاروق إسماعيل
قسم التاريخ
جامعة حلب

مدخل:

تعدّ الرسائل التي كشف عنها موقع تل العمارنة (أخيتاتون) شمالي أسيوط بمصر - منذ سنة ١٨٨٧م- أهم مصادر تاريخ بلاد الشام عامة خلال القرن الرابع عشر ق.م.

إنها رسائل تبادلها عدد من الملوك البابليين والآشوريين والميتانيين والحثيين، ومجموعة من ملوك مدن الشام وحكامها - ولاسيما في المناطق الساحلية - مع الفراعنة حكام مصر خلال الفترة التاريخية التي صارت تعرف نسبة إليه بفترة العمارنة، وتمتد بين نحو ١٣٦١/ ١٣٦٠-١٣٣١ق.م[١].

يبلغ عدد الرسائل المعروفة حتى الآن (٣٥٠) رسالة، وقد حررت باللغة الأكدية (اللهجة البابلية الوسيطة) عدا رسالة واحدة باللهجة الآشورية (EA 15)، وأخرى باللغة الحورية - الميتانية (EA 24)، واثنتان باللغة الحثية (EA 31, 32). وتظهر في لغتها مظاهر لغوية خاصة تعكس تأثيرها باللغة الحورية المستخدمة في مملكة ميتاني، وبلغات بلاد كنعان في سواحل بلاد الشام[٢].

وتعبّر الرسائل – من حيث مضمونها – عن الأوضاع السياسية العامة في الشرق القديم، ومواقف الحكام بلاد الشام وطبيعة علاقتهم بفراعنة مصر، وتبيّن حدود التأثير السياسي المصري والتحالفات المعقودة بهدف مواجهة الأخطار الحثية التي كانت تحدث في شمالي سورية. كما أنها تصور انقسام إمارات بلاد الشام في ولائها وتبعيتها للقوى السياسية الرئيسة (مصر، المملكة الحثية، المملكة الميتانية) وصراعاتها الداخلية الناجمة عن ذلك، مما جعل الوضع السياسي العام مضطرباً متوتراً أثر في مجرى التطور الحضاري العام، ومنع قيام وحدة سياسية بين الكيانات السياسية الصغيرة، بل فرض على الحكام في مدن بلاد الشام أن يبحث كل منهم عن مصلحته ويسعى إلى الحفاظ على حكمه وضمان استمراريته.

وكانت أوغاريت (رأس الشمرا، شمالي اللاذقية) آنذاك مملكة صغيرة قائمة في أقصى المناطق الشمالية الساحلية الخاضعة لنفوذ مصري، وتسعى – مثل غيرها – إلى ضمان مصالحها التجارية كأبرز مرافئ المنطقة، وإلى المحافظة على كيانها السياسي المتاخم لمناطق النفوذ الحثي في الشمال ولمنطقة الصراع الحثي – الميتاني في جهة الشرق.

وفي هذه الفترة كان الحوريون والميتانيون قد أسسوا معاً مملكة ميتاني في الجزيرة السورية، ومدوا نفوذهم غرباً في مناطق شمالي سورية، ونتج عن ذلك دخولهم في صراع مع الحثيين حول أحقية السيادة في المناطق الواقعة بين نهر الفرات والبحر الأبيض المتوسط. ويبدو أن الحوريين نجحوا (نحو ١٤٧٠ ق.م)، في فرض سيادتهم على حلب ونيّا (منطقة سهل الغاب)، وموكيش (ألالاخ ومناطق أعالي العاصي حتى شواطئ البحر). وكانت إمارات (أو دويلات) سورية الوسطى والجنوبية منقسمة في ولائها للممالك الكبرى المحيطة بها (الميتانية، الحثية، المصرية).

لم تذكر أوغاريت في تقارير الملوك المصريين عن حملاتهم إلى سورية آنذاك، ولكنها كانت في الراجح خاضعة للمراقبة المصرية. ثم جاء ذكرها – لأول مرة – ضمن

تقرير عن أحداث السنة السابعة من عهد الفرعون أمنوفس الثاني (١٤٢٨-١٤٠٠ق.م)[٣]. وفي هذه الفترة كان قد اعتلى عرش ميتاني الملك شوستر (نحو ١٤٢٠-١٤٠٠ ق.م)، وازدهرت مملكته وقويت، حيث احتل آشور، وعقد معاهدة تحالف مع مصر، واستقر في مناطق ألالاخ، كما شمل أوغاريت أيضاً[٤].

في مطلع القرن الرابع عشر قبل الميلاد، استمر الصراع بين مملكتي ميتاني ومصر حول السيادة على سورية، ثم توقف بعد المصاهرة والتفاهم بين أرتتما الأول (١٤٠٠-١٣٨٠ ق. م) وتحوتمس الرابع (١٤٠٠-١٣٩٠ق.م). ويبدو من رسالة كتبت بعد عهديهما وتضمنت استرجاعاً لأنهار قديمة أنه تم تنظيم حدود النفوذ بينهما، وصارت أوغاريت ومعظم المناطق الساحلية ضمن نطاق النفوذ المصري.

صارت أوغاريت في القرن الرابع عشر ق. م. مملكة مستقلة تماماً، وحكمها أمّيس المّرو(الأول) الذي عاصر الفرعون أمنوفس الثالث (١٣٩٠-١٣٥٢ق.م)، وارتبط به برابطة الولاء والصداقة. كما استطاع إرضاء الحثيين في الوقت ذاته، وهي سياسة برع فيها ملوك أوغاريت في الفترة التاريخية التالية ومن ثم وقفوا في الحفاظ على الكيان السياسي لمملكتهم وسط الصراع المصري - الحثي المتزايد خلال "فترة العمارنة".

رسائل أوغاريت إلى العمارنة:

أشرنا إلى أن أوغاريت مرت بعلاقات حسنة مع مصر خلال فترة العمارنة (١٣٦١-١٣٣١ق.م)، وقد تضمنت مراسلات العمارنة خمس رسائل مرسلة من أوغاريت إلى العمارنة في مصر، وهي الرسائل الآتية:

١- العمارنة ٤٥[٥]:

رسالة من أميس تمرو (الأول) ملك أوغاريت إلى الفرعون أمنوفس الثالث. يقول له فيها ما يأتي:

قل للملك، الشمس، سيدي. (هذه) رسالة أميس تمرو خادمك:

على قدميك أجثو سبعاً ثم سبع مرات. ليت كل شيء يكون سليماً لدى الملك، الشمس، سيدي؛ أسرتك، زوجتك الرئيسة، زوجاتك الأخريات، أبنائك، رماة السهام لديك، وكل ما يخص الملك، الشمس، سيدي. ليت كل شيء يكون خير جداً جداً.

...... وأنا قلت ما يأتي: "هؤلاء الرجال مصريون – فلماذا يتوجب عليّ أن أسلمهم لك؟" سأجهز.... وهو سوف يمتلك...... أنا أسلمهم إلى الشمس، سيدي وأرسل رسولي إلى الشمس، سيدي، بسرعة. ها أنذا الآن أسلمهم إلى الشمس، سيدي.

أمر ثانٍ؛ ملك .... كتب يقول: " لماذا .... وهل تحجز........؟" ومرة ثانية كتب إلي، وقال ما يأتي: "........ وإلى مصر ... إن ترسل..... فسوف......". أنا خادم الشمس، سيدي، حقاً.

أمر آخر؛ السماء تمنع أن تعود الشمس، سيدي، ضدي. ليته يرسل إلى حياة روحي، وليت فمه ينطق بحياة روحي، وليت الشمس، سيدي يعلم: إن .... إلى أوغاريت ....

(يلي ذلك أكثر من عشرة سطور مهشمة، لن يبق منها سوى آثار علامات متفرقة).

يبدو أن الرسالة أرسلت مع رسالة أوغاريتي إلى البلاط المصري، واستهدفت ثلاثة أمور، هي:

أ– تسليم رجال مصريين اعتقلوا في أوغاريت لأسباب مجهولة.

ب– أمر غير واضح بسبب وجود نواقص مهمة في النص، وربما يكون متعلقاً بتحريض أحد الملوك المجاورين لملك أوغاريت على الإهمال المصري له.

ج– مناشدة الفرعون بأن يعزز موقفه من ملك أوغاريت الوفي المخلص له.

والرسالة بشكل عام تؤكد صلة الولاء والتحالف بين أوغاريت ومصر. وربما كانت هناك أمور أخرى في الجزء المهشم منها.

٢- العمارنة ٤٦[٦]:

رسالة يرجح الباحثون أنها مرسلة من أميس تمرو (الأول) إلى الفرعون أمنوفس الثالث أيضاً، وقد وصلت إلينا في حالة مهشمة لدرجة يصعب تقديم مترابطة لها· ويتضح من بعض كلماتها أنها تعبر عن إخلاص الملك الأوغاريتي لمصر·

٢- العمارنة ٤٧[٧]:

مطلع الرسالة مفقود، ولذلك غاب عنا اسم مرسل الرسالة، ولكنها تعود - على الأرجح- إلى أميس تمرو (الأول) أيضاً· جاء فيها ما يأتي:

.... أسلافي خدموا لدى أسلافك، والآن أنا أيضاً خادم لدى الملك، الشمس، سيدي حقاً·

إضافة إلى ذلك؛ أرسلتُ رسولي إلى سيدي، ولكن سيدي لم يستفسر منه! ولكل رسل الملوك الآخرين أعطيت رقميك؛ ورحت ترسلهم، وترسل إليهم رسلك الخاصين أيضاً· ولكن إلي وإلى رسلي لم تعطِ رقيمك ولم ترسل إلي رسولك الخاص· هل أُعامل بشكل يتناسب مع وفاء قلبي؟!

أمر ثانٍ؛ لماذا تصغي إلى جميع كلمات خاتيا؟.................. حدث أحداً قادراً....................

إنها في جزئها الأخير رسالة عتاب، لأن الفرعون لم يبالِ برسل الملك الأوغاريتي في بلاطه، ولم يحملهم رسالة إليه، بل ولم يرسل إليه - كغيره من حكام المنطقة- رسولاً خاصاً يفيده بتوجيهاته· وقد لقي ذلك استغراب الملك الأوغاريتي الواثق من وفائه له!

ويبدو أن ملك أوغاريت شك في وشاية ما قام به خاتيا المعروف في رسالتين أخريتين[٨] كرسول ملكي مصري، أوفد مرة إلى زعيم إحدى القبائل الفلسطينية

(EA 301)، وأخذ منه (٥٠٠) ثور و (٢٠) فتاة، وأوفد مرة أخرى إلى حاكم غــزة لاقتناء نادلات جميلات (EA 369)، ووصف آنذاك بالمراقب العام لكتائب النبالين.

٤- العمارنة ٤٨ (١٠):

رسالة من ···· خبا إلى زوجة الفرعون المصري. والراجح أن المرسلة هي بــودو - خبا إحدى زوجات الملك الأوغاريتي نقم أدّو (الثاني)، أنما الملكة المصــرية فيــري ليفراني Liverani أنها

إحدى زوجات الفرعون أمنوفس الرابع (أخناتون) (١٣٥٢-١٣٣٦ق.م).

جاء في الرسالة ما يأتي:

إلى ····· سيدتي (هذه) رسالة ····خبا خادمتك. أجثو على قدمي سيدتي. ليــت كــل شيء لدى سيدتي يكون بخير.

لقد أعطيت خادمتك············ وها أنذا أرسل إلى سيدتي مع هذا (الرقيم) ········ وجرة من (عطر) البلسم.

تبدو الرسالة نادرة من حيث ما جاء فيها من تبادل الهدايا الخاصة بين الملكات آنذاك، ومن ثم فهي تدلل على علاقات وثيقة بين المملكتين.

٥- العمارنة ٤٩ (١١):

رسالة من نقم أدّو (الثاني) ملك أوغاريت إلى الفرعون أمنوفس الرابع، جاء فيها مــا يأتي:

إلى الملك، الشمس، سيدي. (هذه) رسالة نقم أدّو خادمك:

أجثوا على قدمي الملك، الشمس، سيدي، ليت كل شيء يكــون بخيــر لــدى الملــك، الشمس، سيدي، ولدى أسرته، وزوجته الرئيســة، وزوجاتــه الأخريــات، وأبنائــه، والنبالين، وكل شيء آخر يعود إلى الملك، الشمس، سيدي················

.... سابقاً أعطى..... إلى بيت أبي. ليت سيدي يعطيني مرافقين خادمين اثنين؛ خادمين للقصر الملكي يكونان من بلاد كوش. واعطني طبيباً يعمل في القصر الملكي، فهنا لا يوجد طبيب.

انظر! لتسأل خَرَمّسّا (عن ذلك). ومع هذا (القيم) أرسل كهدية تحية....... ومئة ....

لا تختلف الصيغ التعبيرية في مقدمة الرسالة عما ورد في مطلع رسائل أميس تمرو (الأول). أما من حيث المضمون فالرسالة تشير إلى أن بلاد كوش (مناطق النوبة في جنوبي مصر) كانت موطناً لخدم ثقاة مرغوب فيهم ضمن القصور الملكية، وإلى تطور مصر وشهرتها في مجال الطب، وهي حقيقة تدل عليها وثائق كتابية مصرية كثيرة؛ أشهرها بردية هيرست وبردية إيبر الطبيتان وقوائم في علم التشريح وغيرها[١٢]؟.

أخبار متفرقة عن أوغاريت رسائل العمارنة:

إضافة إلى ما سبق؛ ثمة خمس رسائل أخرى تذكر أوغاريت ضمن سياقات مختلفة. ففي الرسالة (EA 1)[١٣]، يرد ذكرها بشكل عابر، وهي رسالة مطولة من الفرعون أمنوفس الثالث إلى الملك الكاشي كدشمان إنليل (الأول) ملك بلاد كردونياش (بابل) (١٣٧٤-١٣٦٠ق.م).

يرد فيها الفرعون على طلبه إحدى بناته زوجة له، وعلى قلقه بشأن مصير أخته، زوجة الفرعون التي ما عادت في البلاد المصرية، حسب ما أعلمه رسله إلى مصر.

يعلل الفرعون ذلك بأن رسله تافهون غير صادقين، لا أحد منهم ميزها، ولذلك ينصحه بإرسال أحد وجهائه المحترمين القادرين على تمييزها ونقل حقيقة أوضاعها الحسنة. وتكرر الرسالة ما كان الملك الكاشي قد كتبه إلى الفرعون: "ربما كانت(المرأة) التي

رآها أحد رسلي ابنة رجل فقير، أو ابنة أحد الكشكيين، أو ابنة أحد (رعايا) مملكة خاني حَلْبَت، أو ابنة أحد (رعايا) أوغاريت!؟

لقد أراد بذلك التعبير عن أقاليم مختلفة، فالكشكيون كانوا يقيمون في أقصى شمالي بلاد الأناضول (في سواحل البحر الأسود الجنوبية)، وخاني جلبت هي المناطق الحورية الشمالية في أعالي نهري الفرات ودجلة، وأوغاريت تمثل مناطق شمالي الساحل المتوسطي.

وفي الرسالة (EA 89)[١٤]، نقرأ التأكيد على عظمة القصر الملكي في أوغاريت، وعدم وجود مثيل له؛ على الأقل في المناطق الساحلية، إنها رسالة مرسلة من حاكم جبلا (جبيل) ونبه فيها الفرعون إلى الوضع الخطير في صورّو (صور)؛ حيث حصل فيها تمرد أدى إلى قتل حاكمها وزوجته وأولادهما. ويغري الفرعون بالتدخل قائلاً: ألم يسأل الملك عن حاكم صورو! وهو عظيم بثرواته (الضخمة) كالبحر. انظر! ليس هناك مقر حكم يماثل مقر الحكم في صورو، إنه كالقصر الملكي في أوغاريت.

أما الرسالة (EA 98)[١٥]، فهي موجهة من يَفَخ هدّا حاكم بيروت إلى يَنْجم المراقب المصري العام. يعاتبه في مطلعها بقوله: لماذا تهمل مدينة صُمُر (تل الكزل، جنوبي طرطوس). حتى أن كل البلدان من جبلا إلى أوغاريت صارت معادية لها في ظل حكم (حاكمها) أزيرو!

وهو يريد بذلك التعبير عن أن مناطق جنوبي صمر مركز إدارة إمارة أمورو حتى جبلا، ومناطق شمالي صمر حتى أوغاريت صارت معادية لها بسبب سوء تصرفات حاكمها. وفي ذلك إشارة إلى القوى الأساسية الثالث في الجزء الشمالي من سواحل البحر المتوسط.

وتشير الرسالة (EA 126)[١٧]، إلى أن مملكة أوغاريت كانت مصدراً أساسياً لأنواع الخشب، فقد كتب حاكم جبلا إلى الفرعون يعلمه بأنه حقق طلبه وأمن الخشب

من بلاد سُلخي ومن أوغاريت، ولكنه غير قادر على إرسال سفنه إلى هناك بسبب الحرب بينه وبين أزيرو حاكم بلاد أمورو الفاصلة بينه وبين أوغاريت.

وأخيراً في الرسالة (EA 151)[١٨]، نقرأ تقريراً شاملاً عن بلاد كنعان أرسله أبي ملكو حاكم صورو إلى الفرعون، يصف له فيها سوء الأوضاع المعيشية في مدينته: إننا نقيم على البحر، ولكن لا ماء لدينا ولا خشب؛ ويقول له: لقد كتب الملك سيدي إلي قائلاً: اكتب لي عما سمعته من بلاد كنعان. أقول: لقد مات ملك دانونا، وصار أخوه ملكاً بعد موته، وبلاده تشهد السلام، والنيران التهمت القصر الملكي في أوغاريت، تهدم نصفه، ونصفه زال.

إن القصر الملكي هو القصر الكبير الواقع في الجزء الجنوبي الغربي من مدينة أوغاريت، بين القصرين الشمالي والجنوبي. وقد حصل الدمار الجزئي المذكور خلال حكم نقم أدّو (الثاني) الذي أرسل الرسالة (EA 49)، التي مرت بنا سابقاً – إلى الفرعون أمنوفس الرابع؛ أي في مطلع النصف الثاني من القرن الرابع عشر ق. م. وهو حدث لا نعرف تفصيلاته، والراجح أنه كان نتيجة كارثة طبيعية لا عمل عسكري، لأن المصادر الكتابية تخلوا من إشارات إلى حروب مدمرة في أوغاريت آنذاك.

الخاتمة:

نتبيّن مما سبق أن وجود مملكة أوغاريت ارتبط بأهميتها الاقتصادية وعلاقاتها الواسعة، وبمينائها الذي التقى فيه تجار مناطق الشرق القديم المختلفة.

لقد خضعت أوغاريت للمراقبة المصرية زمناً طويلاً، ولكنه كان خضوعاً اسمياً شكلياً يضمن استمرار العلاقات الاقتصادية ذات المنفعة المتبادلة. وكان ذلك يثير الحثيين بين فترة وأخرى، فيقومون بحملات إلى سورية الشمالية والداخلية، وتشعر أوغاريت

بالخطر فيتصرف ملوكها بدبلوماسية ناجحة معهم، حيث يجزلون لهم العطايا والضرائب لاتقاء شرهم.

لقد وفق ملوك أوغاريت في المحافظة على العلاقات الحسنة مع مصر، وسد أفواه الحثيين ورسائل العمارنة التي عرضناها توضح الإطار السياسي المستقل ضمن إطار العلاقات المتميزة مع مصر أما علاقاتها مع المملكة الحثية فتنعكس بشكل واضح في المصادر الكتابية الحثية والأوغاريتية.

الهوامش

(١) بدأ نشر رسائل العمارنة منذ ١٨٨٩-١٨٩٠، وصدرت عدة ترجمات لها آخرها ترجمة موران إلى اللغة الفرنسية (١٩٨٧) ثم إلى الإنكليزية (١٩٩٢)؛ وهي ترجمة كاملة دقيقة استفادت من جهود البحثين السابقين كلهم. راجع:

William L. Moran: les Lettres d' El – Amarna. Paris, 1987, The Amarna Lettres. The John Hopkins University press. Baltimore and London 1992

(٢) William L. Moran: the Amarna...............P. XVIII. Franz M. Th. Booehl: Die Sprache der Amarnabriefe, LSS V/2, Leipzig 1909.

وثمة عدد من البحوث التي درست المظاهر اللغوية في مجموعات من رسائل العمارنة التي تنتمي إلى إطار جغرافي معين؛ مثل أكدية بلاد أمورو، لهجة جبيل، أكدية رسائل الملك الميتاني تشرتا.

(٣) راجع: د. أحمد أرحيم هبو: **تاريخ الشرق القديم** (٣) مصر، دار الحكمة اليمانية، صنعاء ١٩٩٥، ص ١٦٣.

(٤) راجع سلسلة أعداد أرشيف ماري الملكي Archives Royales de Mari

(٥) راجع: D.J. Wisman: The Alalkh Tablets. London 1953.

(٦) Ibid

(٧) H. Klengel: Geschichte Cyriens im 2. Jahrtausend vu. Teil 2 Akademie- Verlag Berlin 1969 , 329.

(٨) جرنوت فيلهم: **الحوريون تاريخهم وحضارتهم**. تر: د. فاروق إسماعيل. دال جدل، حلب، ٢٠٠٠، ص ٦٢.

(٩) William L. Moran: The Amarna......p. 177

(١٠) Ibid. p. 118

(١١) Ibid. p. 119

(١٢) Ibid. p. 342,366

(١٣) Ibid. p. 120

(١٤) M. Liveranni: storia di Ugarit. Studi Semitici 6, Rome , 1962, 51 ff

(١٥) Ibid. p. 120

(١٦) E. Edel: Aegyptische Aertzte und aegyptische Medizin am hethitischen Koenigshof: Neue funde von keikschriftbriefen Ramses II aus Bogazkoey.

(١٧) William L. Moran: The Amarna......p. 1

(١٨) Ibid. p. 162

(١٩) Ibid. p. 171

(٢٠) Ibid. p. 205

(٢١) Ibid. p. 238

التيجان النبطية طرزها وأصولها المعمارية

الدكتور
عاطف محمد سعيد الشياب
قسم الآثار
كلية الآثار والأنثربولوجيا
إربد
جامعة اليرموك- الأردن

الدكتور
شاهر ربابعة
قسم الهندسة المعمارية
كلية الهندسة
الزرقاء
الجامعة الهاشمية- الأردن

ملخص:

تميزت الدراسات السابقة التي أجريت حول العمارة النبطية أنها تناولت قضايا معمارية عامة، كما وردت من خلال كتابة بعض التقارير والمقالات المتعلقة بالمسوحات والاكتشافات الأثرية لجوانب الحضارة النبطية المختلفة، لذلك كان لا بد من عمل دراسة تحليلية تبين التفاصيل المعمارية لتيجان وطراز الأعمدة في البتراء وغيرها من المواقع النبطية الأخرى، اعتمدت هذه الدراسة على مراجعة المادة العلمية المنشورة وغير المنشورة من أجل الوصول إلى وصف تحليلي للتفاصيل والأصول المعمارية لتيجان تلك الأعمدة. وتوصلت الدراسة إلى تصنيف جديد لتيجان الأعمدة

النبطية، احتوى على ثلاثة طرز رئيسة بأنواع وأشكال مختلفة. بينت الدراسة أن استخدام المعماريين النبطيين لثلاثة طرز معمارية رئيسة يدل على إدراكهم وفهمهم للأنماط الكلاسيكية التي كانت سائدة آنذاك، أما تعدد أنواع وأشكال تلك الطرز فهو مؤشر على الإضافات والتحويرات الإبداعية التي نفذت من قبلهم والتي جاءت لتعبر عن الهوية المعمارية النبطية الخاصة بهم.

مقدمة:

لقد بينت المصادر التاريخية والاكتشافات الأثرية أن هناك ثلاثة طرز معمارية يونانية متمثلة بأنواع مختلفة من التيجان: الدوري Doric Order، والأيوني Ionic Order، والكورنثي Corinth Order (الشكل ١).

ظهر الطراز الدوري في الفترة الأرخية Archaic، في المنطقة الشمالية الشرقية من شبه جزيرة البليوبونيز Peloponnese، حيث كان مشغولاً في بادئ الأمر من مادة الخشب، ليتم تنفيذه مع نهاية القرن السابع قبل الميلاد ولأول مرة من مادة الحجر، تلا ذلك تعديل الأجزاء العلوية خلال القرن السادس قبل الميلاد، لتصبح مادتها الأساسية من الحجر وبهذه الطريقة تشكل العمود الدوري. وخير مثال على ذلك، الطرز الموجودة في كل من معبد أبوللو في ثيرمون Thermon، الذي يعود بناؤه إلى عام ٦٣٠ق.م. ومعبد هيرا الواقع في مدينة أولمبيا الذي يعود إلى عام ٥٨٠ ق.م. (Vitruvius IV, III, 1-10; Lawrence 1996: 66-67; 78). إن أهم ما يميز الطراز الدوري اليوناني هو أن تيجان أعمدته تتكون من جزأين رئيسين: يسمى الجزء الأول الطبلية أو الصلب المائل Echinus، أما الجزء الثاني فيسمى الوسادة Abacus (الشكل ١ – أ).

أما الطراز الأيوني (الشكل ١ – ب). فقد نشأ بشكله الحقيقي مع بداية القرن السادس قبل الميلاد في جزر بحر إيجة وبعض السواحل الواقعة في المستعمرات الشرقية في القرن السابع قبل الميلاد، ومثال على ذلك التيجان الموجودة في معبد أفسوس

Ephesos، حيث كان هذا الطراز رمزاً للمستعمرات الأيونية التي لم يحتلها الدوريون في آسية الصغرى وبعض الجزر المقابلة في بحر إيجة. تتكون تيجان هـذا الطـراز (الشكل ١ – ب)، من جزأين رئيسين: الجزء الأول يسمى المخـدة العليـا Abacus، والجزء الثاني جسم التاج الذي يحتوي على أشكال حلزونية زاوية Volute، وزخرفة البيضة والسهم في الوسط (; Lawrence 1996:90).

إنّ الطراز الكورنثي يشبه في تكوينه الطراز الأيوني، إلا أنه يختلف عنه فـي تـاج العمود الذي يتكون من زخارف على شكل أوراق الأكـانثوس Acnthus Leaves، وعددٍ من الأشكال الحلزونية (الشكل (١ – ج)، ويعتبر هذا الطراز تقليداً في تفاصـيله لنبات الخنشار من حيث خطوطه وأغصانه مما جعل له تأثيرات جمالية جذابة أكثـر من الطرز الأخـرى (Lawence 1996: 134; Onians 1979: 73. Vitrinius (IV1, 1-12).

استمر استخدام هذه الطرز المعمارية الثلاثة في الفترة الرومانية مع التركيـز علـى الطراز الكورنثي، حيث تم إدخال بعض التعديلات على بعضها والمزج بين العناصر الزخرفية لبعضها الآخر بعد ذلك التاج المركب[١]، والنتاج التوسكاني.

قام العديد من الباحثين والدارسين للتيجـان اليونانيـة بإعطـاء بعـض التفسـيرات والمدلولات لاستعمالاتها، والتي جاء من أهمهـا: المـدلول المعمـاري والإنشـائي، والمدلول السياسي المعبر عن هوية وأصالة هذه التيجان، إضافة إلى بعض الإشارات المعبرة عن النفوذ الذي كان سائداً في تلك المناطق. (Onians 1979: 72-3).

كان الأنباط على تماس مباشر مع العالم الهلنستي والروماني فاستخدموا تيجان الأعمدة بأشكال مختلفة، إلا أن معرفة وتحديد طبيعة وهوية تيجانهم من حيث تصنيفها وتحديد أنواعها ومدلولاتها وأصولها المعمارية ما زالت تشكل معضلة بسبب تداخل التأثيرات المعمارية المختلفة المتأتية من الحضارات التي عاصرتها أو التي سبقتها.

إن أهم ما يميز العمارة النبطية تلك الصروح المعمارية المنحوتة والمبنية، التي ما زالت شاهدة على فنهم وإبداعاتهم حتى الآن، حيث تم العثور على ما يقارب من ثمانمائة منحوتة في عاصمتهم البتراء (Brünnow, and Domaszewski 1904)، إضافة إلى ما تم الكشف عنه من واجهات منحوتة في مدائن صالح، كما استخدم المعماريون الأنباط أشكالاً مختلفة من الطرز المعمارية النبطية، والمتمثلة بالتيجان الموجودة على الواجهات الصخرية، وجانبي السيق، وواجهة الخزنة، وقبر الجندي الروماني، ومضافة الأسود، والدير في البتراء، إضافة إلى ما تم الكشف عنه في الأبنية الحرة كما هو موجود على واجهات المعابد الدينية كمعبد قصر البنت، ومعبد الأسود المجنحة، والمعبد الكبير، والمسرح الكبير، في البتراء.

أما خارج البتراء فقد استخدم المعماريون الأنباط الطرز الكلاسيكية بأشكال تيجان مختلفة، تيجان خربة التنور، ومعبد خربة الذريح، ومعبد قصر الربة، في جنوب الأردن، كما تم الكشف عن بعض التيجان في منطقة حوران في سورية، مثل مواقع سيع، والصنمين، والسويداء، إضافة إلى ما تم الكشف عنه في صحراء النقب وسيناء، ومدائن صالح وغيرها من المعابد والأوابد النبطية التي انتشرت في معظم مواقع المملكة النبطية المترامية الأطراف.

الدراسات السابقة:

تعدّ الدراسات والأبحاث الأولية التي تناولت موضوع طرز التيجان النبطية دراسات وصفية نوعاً ما، ولم يتم حتى الآن عمل دراسات تحليلية معمارية شاملة لتلك الطرز، وإنما وردت بعض المعلومات حولها من خلال بعض التقارير التي كتبت حول الحفريات الأثرية التي أجريت في المواقع النبطية المختلفة[٢].

حاول عدد من الباحثين دراسة تيجان الأعمدة النبطية من خلال الحفريات والاكتشافات التي تمت في بعض المواقع، فقسمها ستاركي Starcky إلى مجموعتين رئيستين: المجموعة الأولى والتي أطلق عليها عدة مسميات: التيجان النبطية، التيجان الكلاسيكية

الخالية من الزخارف والتيجان غير المزخرفة، أما المجموعة الثانية فقد أطلق عليها اسم التاج الكورنثي النبطي أو النباتي (Starcky 1966 641-942).

تناول الباحث جوزيف باتريخ Joseph Patrich دراسة التيجان النبطية، ونشر نتائج دراسته في كتابه بعنوان: نشأة الفن النبطي، فقسم التيجان النبطية إلى نوعين رئيسين على غرار التصنيف الذي ذكره الباحث ستاركي، حيث أشار إلى أن الزخارف الموجودة على الواجهة المعمارية لمعبد الدير قليلة نوعاً ما وتتمثل في مجموعات محددة من التيجان النبطية التي هي ربما تطورت عن تلك التيجان غير المزخرفة. وإن الخطوط الواضحة على أطراف التيجان غير المزخرفة تعتبر انتقالية لعملية تحت التيجان الكورنثية. وقد أطلق عليه التاج الكورنثي غير المكتمل Unfinished Corinthian Capital (Patrich 1990 :123).

قامت الباحثة مكانزي Judith McKenzie بتأريخ الواجهات الصخرية في مدينة البتراء من خلال مقارنة الحليات المعمارية لتلك الواجهات بما فيها أشكال التيجان الأعمدة مع الحليات التي ظهرت في الإسكندرية (McKenzie, 1983, 70, 116-7, 94-96) ، ومن خلال ذلك صنفت التيجان إلى عدة أنواع: التيجان غير المزخرفة والتيجان النباتية، والتيجان الكورنثية (McKenzie 2005 :190) ، إضافة إلى وجود تيجان ذات الزخارف الخرافية وزخرفة الأغنام Goats, griffins، حيث وضعت هذه الزخارف مكان الزخارف الحلزونية الزاوية والمشابه لما هو موجود في Palazzo delle Colonne in Ptolemais.

(Lyttelton 1974:55, fig 14; McKenzie 2005: 75,95).

خلصت مكانزي إلى أن أشكال التيجان النبطية متأثرة إلى حد كبير بالتيجان التي ظهرت في الإسكندرية، وعللت ظهور التيجان النبطية الخالية من الزخارف بأنه ناتج عن تنفيذ الحليات الزخرفية من قبل نحاتين قادمين من الإسكندرية، قاموا بتدريب النحاتين الأنباط على نحتها، كما هو الحال في تيجان الخزنة (McKenzie.

2005:116-7)

كشفت الحفريات الأثرية التي أجريت في عــامي ١٩٩٣ و ١٩٩٦ بمنطقــة القصــر والربة بمحافظة الكرك – الأردن، عن بعض التيجان النبطية الأيونية والكورنثية، التي يمكن مقارنتها مع التيجان النبطية الأخرى، ليتم إدراجها ضمن التصــنيفات الجديــدة لتلك الطرز المعمارية (Shiyab, A. 1993-1996 un-published).

طرز التيجان النبطية:

تعدّ التيجان النبطية من أهم العناصر المميزة التي تم تشكيلها خلال القرن الأول قبــل الميلاد وأواسط القرن الثامن الميلادي، حيث إن الدراسات التي أجريت حــول تلــك التيجان لم تتم بطريقة توضح الملامح الأصلية لكل نوع من هــذه التيجــان وبالتــالي معرفة التأثيرات المختلفة على تشكيلها، كما أنها لم تكن شاملة لكافة المواقع النبطيــة، فكان التركيز منصباً على مدينة البتراء، الأمر الذي تطلب وضع تصنيف جديد لطرز وأنواع التيجان النبطية اعتماداً على النصوص المنشورة وغيــر المنشــورة وعلــى الاكتشافات والحفريات الأثرية في المواقع النبطية المختلفة، حيث تم تصنيف أشــكال التيجان النبطية إلى الطرز التالية:

الطراز الأول: التيجان المجسدة الدورية وشبه الدورية:

Blocked out Doric and Pseudo-Done Capitals

هذا الطراز المعماري يتكون من عدة أنواع:

النوع الأول: التيجان الدورية العادية: Normal Doric

ظهر هذا النوع من التيجان في البناء الواقع بين منطقة الحمامات وبوابــة اليتمنــوس (McKenzie 2005: p1. 77-b) ، وفي أعمدة الرواق الأمامي لقبر المحكمة Urn Tomb (McKenzie 2005: p1. 96-e)، ويتميز هذا النوع مــن التيجــان بأنــه يتكون من زخرفة الطبلية أو ما يسمى عنق العمــود أو الصــلب المائــل Echinus،

وزخرفة المخدة الوسادة Abacus (الشكل ١ – أ)، لكن الأنباط قاموا بزيادة أبعاد الأباكوس ليكون بارزاً نوعاً ما عن الجزء المسمى طبلية أو عنق التاج Echinus.

النوع الثاني: التيجان ذات زخرفة الصرة واللسان: Boss and Tongue

يتميز هذا النوع (الشكل ٢ – أ – ب)، بقلة زخارفه ويتكون من زخرفة على شكل قرون في زواياه العليا، ووجود زخرفة تشبه الصرة (عقدة، زر)، في وسط السطح المقعر لتاج العمود وبين القرنين، وتميزت هذه التيجان بظهور زخرفة اللسان تحت كل قرن، إضافة إلى وجود الحلية المعمارية المحدبة ذات السطح المدور، والمسماة الزخرفة الاستراجلية Asatragal، وزخرفة رباط عنق التاج Necking ومن الأمثلة على ذلك: التيجان الموجودة على واجهة الدير، وقبر الجندي الروماني، والتيجان الموجودة على الواجهة المثلثة الشكل فوق مدخل رقم ٨٤٦، الموجودة في منطقة البيضا Beidha، وتيجان قبر القصر في البتراء (McKenzie 2005: 43, p1, 110-b; 95, p1, 148). هذا النوع من التيجان يعادل النوع الثاني من التيجان النبطية حسب تصنيف مكانزي (McKenzie 2005: 190, Diag: 14-h-d).

والذي يماثل النوع الرابع من تيجان الإسكندرية، حيث اعتبرته نموذجاً غير مكتمل النحت للتاج النباتي من النوع الأول في تصنيفها (McKenzie 2005: 190, Diag:14-h-d).

ظهرت تيجان نبطية لمثل هذا النوع على واجهات بعض مدائن صالح التي يعود بعضها لعهد الحارث الرابع ملك الأنباط. إذ ظهرت مثل هذه التيجان على واجهة رقم B6، التي تعود إلى السنة الأولى الميلادية. (McKenzie 2005: 16, pl. 2 a-b). وعلى واجهات قبر رقم C6، الذي يؤرخ إلى عام ٣٦ ب. م. (McKenzie 2005:17, pl,8-a)، كما ظهرت بعض التيجان على واجهة قبر رقم E3، والتي تعود إلى ٩ ق. م. – ٤٠ ب. م. (McKenzie 2005: 17, pl. 8 -b).

النوع الثالث: زخرفة القلب واللسان المعكوس:

هذا النوع (الشكل ٢-هـ)، من التيجان يكون فيها شكل الصرة أو العقدة تشبه زخرفة القلب مع وجود زخرفة اللسان المقلوب تحت زخرفة القرون ويقع تحت زخرفة اللسان المعكوس زخرفة رباط العنق التي يوجد تحتها زخارف مقولبة الأشكال، تبرز الإطارات العليا عن السفلى بشكل واضح، حيث وجد مثل هذا النوع من الزخارف في واجهة الطابق العلوي من الدير في البتراء، (McKenzie 2005: 41, pl. 141 a)

إن هذا النوع من التيجان يعادل النوع الأول للتاج النبطي في تصنيف مكانزي (McKenzie 2005: 190, Diag: 14-g). والذي اعتبرته تاجاً غير مكتمل النحت للتاج النباتي من النوع الأول في تصنيفها.

النوع الرابع: التيجان ذات زخرفة الصرة بدون زخرفة اللسان:

يتميز هذا النوع (شكل ٢-ج)، بقلة زخارفه والمتمثل معظمها بزخرفة على شكل قرون تقع في زواياه العليا تمتد إلى بداية زخرفة رباط العنق، مع وجود زخرفة تشبه الصرة (عقدة، زر)، تقع في وسط السطح المقعر لتاج العمود وبين القرنين، وتميزت هذه التيجان بعدم ظهور زخرفة اللسان تحت كل قرن. وقد ظهر مثل هذا النوع من التيجان على مداخل وقبور مدائن صالح، مثل قبر رقم B23، الذي يعود تاريخه إلى عام ٥٠ ب.م. (McKenzie 2005: pl, 2-c). وهذا النوع من التيجان يعادل النوع الثالث من التيجان النبطية حسب التصنيف الذي وضعته مكانزي (McKenzie 2005: 190, Diag: 14-j).

النوع الخامس: التيجان المقولبة: Moulded Capital

أطلق على هذا النوع (الشكل ٢- و)، من التيجان في بعض الأحيان اسم التيجان النبطية البارزة المقولبة، وفي أحيانٍ أخرى الأفاريز المتدرجة. يتميز هذا النوع من التيجان بوجود إطارات مقولبة وبروز عنق التاج المستطيل الشكل عن بقية أجزاء

التاج، حيث يقع تحت عنقه مجموعة من الإطارات الحجرية البارزة والمقعرة الشكل Annulet. أما رباط عنق التاج فهو مستطيل الشكل وعريض إلى حد ما، ومثال ذلك التيجان الموجودة على الواجهة الداخلية للحجرة رقم ٤٦٨، الموجودة في البتراء (McKenzie 2005: pl, 112).

النوع السادس: التاج مشطوف الحافة Bevelled Capital

يتميز هذا النوع (الشكل ٢- ز)، من التيجان النبطية بأنه بسيط ويتكون من عنق التاج Abacus الموجود في أعلاه وذو خطوط مستقيمة وهي ذات شكل غير عريض، أما مخدته Echinus الواقعة تحت منطقة العنق فإنها مائلة بشكل كبير وعريضة نوعاً ما، بالمقارنة مع الأباكوس، ويلي المخدة من الأسفل رباط عنقه المستطيل الشكل. ومثال ذلك: التيجان الموجودة على مدفن رقم ١٠ ومدفن E16 الموجودين في مدائن صالح (McKenzie 2005: pl, 10).

النوع السابع: التيجان المختلطة – الممزوجة:

وهو عبارة عن تاج (الشكل ٢- د)، ناتج عن دمج أو مزج زخارف التيجان مشطوفة الحافة (الشكل ٢- ز)، مع زخارف التيجان النبطية ذات زخرفة الصرة بدون زخرفة اللسان (الشكل ٢- ج)، وبعد عملية الدمج أصبح شكل العقدة يشبه شكل المعين مع بعض الاختلافات في شكل نهاية الزوايا. وقد أطلقت عليه مكانزي اسم التاج ذا الزخرفة اللولبية بالطراز الأيوني Pseudo- Ionic. مع العلم بأن هذا النوع لا يحتوي على الزخارف الخاصة بالطراز الأيوني. وقد ظهر مثل هذا النوع من التيجان في قبر القصر – الجزء الثاني Palace Tomb بالقرب من شارع الأعمدة، والمضافة Trichlinium بمدينة البتراء (McKenzie 2005:46, pl,141 a,pl 149-a).

من خلال استعراض الأنواع المختلفة للطراز الأول يتضح أن الزخرفة المحمولة فوق العمود الدوري Entablature، تحتوي على زخرفة الإفريز Frieze، التي تشتمل على زخرفة الميتوب Metope والتراجليف Trigliyph. هذه الزخارف لم تظهر إلا

في زخرفة الطراز الدوري وذلك حسب العرف المعماري الكلاسيكي، وإن هذا الاستنتاج لا يتفق مع ما ذكرته مكانزي وغيرها من الباحثين من أن هذا النوع من التيجان هي تيجان كورنثية غير مكتملة
(McKenzie 2005:116; Patrich 1990,123)'Unfinished Corinthian Capital.

وبناء على ذلك فإن الأسلوب المتميز في نحت تيجان الطراز الأول بأنواعه المختلفة يعبر عن الأصالة النبطية وعن مدى ملاءمته للروح الوطنية الفنية المفضلة لدى الأنباط ويؤكد بأن هذا الإنجاز قد نفذ بمهارة وتقنية عالية من قبل نحاتين نبطيين وهذا يتفق مع بعض الدراسات التي تمت مؤخراً حول تقنيات النحت النبطي، (Rababeh 2005: 227).

الطراز الثاني: التيجان ذات الزخارف الأيونية: Ionic Capital

يمكن تقسيم هذا الطراز إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: تيجان الربة:

ظهر هذا النوع من التيجان في موقع الربة – محافظة الكرك (الشكل ٣ أ ،]). خاصة في موقع التجمعات السكنية منزل رقم (١)، تميز هذا النوع من التيجان بظهور الزخرفة الحلزونية في زوايا التاج الأربعة مع وجود زخرفتين في كل جهة من أجزاء التاج تشبه شكل القلب البارز، التي تشبه زخرفة البيضة والسهم أو اللسان Egg and Tongue المعروفة عند الأنباط. وما يميز هذا النوع من التيجان هو أن زخرفة البيضة كبيرة الحجم وعددها اثنتان في كل جهة، وإن زخرفة السهم الواقع بين زخرفة البيضتين غير واضحة المعالم (الشكل٣– أ). كما أن الزخارف الحلزونية Volute بسيطة ومساوية في منسوب الارتفاع لزخرفة البيضة والسهم (الشكل٣–ب). ويقع فوق الزخرفة الحلزونية عنق التاج Abacus الخالي من الزخارف.

النوع الثاني: تيجان جنوب حوران:

تم العثور على هذا النوع في واجهة معبد سلم في جنوب حوران، وتتكون هذه التيجان من الزخارف الحلزونية وزخرفة البيضة والسهم، وهذه الزخرفة حجمها أصغر مما عثر عليه في تيجان الربة والقصر. إن زخارف أوراق بعض التويجات النباتية لتيجان حوران تنبثق من الزخارف الحلزونية بشكل أفقي باتجاه زخرفة البيضة والسهم صغيرة الحجم متقنة التنفيذ. ويوجد أسفل زخرفة البيضة والسهم زخرفة الإبهام منفذة بشكل منسق ودقيق ويقع أسفل هذه الزخرفة صف واحد من زخارف أوراق النخيل ذات الجمال الفائق.

النوع الثالث: تيجان ذات رؤوس الفيلة Zoomorphic – Capitals

تميز هذا النوع من التيجان بوضع زخرفة رؤوس الفيلة بدلاً من زخرفة اللفائف الحلزونية (الشكل ٣- ج)، وتم العثور على هذا النوع من التيجان في أعمدة رواق الساحة السفلى من "المعبد الكبير"، وفي البتراء. حيث تم العثور على تاج عمود منحوت من الحجر الجيري عليه زخرفة رأس فيل حلزوني ويبلغ عرض التاج حوالي ٨٦ سم، كما تم الكشف عن كسر حجرية محفور عليها زخارف معمارية مثل خرطوم الفيل Cheek - piece وآذان الفيل (Joukowsky 1995ADAJ, XXXIX: 252, p1, 10,11; 1996, Elephant ears ADAJ XL:191 , p1, 13; 1998a: Fig, 5.13, 14; 1998b 303, p1, 15)

الطراز الثالث: التيجان النبطية الكورنثية وشبه الكورنثية:

يمكن تصنيف هذا الطراز إلى الأنواع التالية:

النوع الأول: التيجان الكورنثية العادية The Normal Corinthian Capitals

هذه التيجان متأثرة نوعاً ما بالتيجان اليونانية (الشكل١- ج)، التي تم العثور على نموذج واحد منها من الرخام في مدينة البتراء(McKenzje2005:189,p1,39-c-).

وقد ظهر بعض أنواع من هذه التيجان الكورنثية في الربة كانت تزين أعمدة طريق تراجان (الشكل ٤ – ح). كما ظهر العديد من هذه التيجان في منطقتي الربة والقصر تحتوي على صفين من أوراق الأكانتوس ذات الأوراق العريضة والمنتشرة في كل الاتجاهات (الشكل ٤ – ح). أما بعض التيجان فقد ظهر في كل جهة عليها صفان من أوراق الأكانتوس وفي منتصفها زخرفتين حلزونيتين في كل جهة من أجزاء التاج، إذ بلغ عدد هذه الزخارف في كل أجزاء التاج ثمانية زخارف مشابه لبعض التيجان التي تم العثور عليها في البتراء (McKenzie 2005: 11, p1, 200 a, b , c; p1,44-).

النوع الثاني: التيجان الكورنثية النباتية المتشابكة:

هذا النوع من التيجان متأثر ببعض أنواع التيجان التي وجدت في الإسكندرية، ومثال ذلك ما وجد في قبر مصطفى باشا رقم١ و٢، في الإسكندرية : McKenzie, 2005 95, P1: 199-) . ويتميز هذا النوع سن التيجان باحتوائه على زخرفة من أوراق الكرة المتشابكة (McKenzie, 2005: *95,* P1:48-a) المماثل لبعض الأنواع الموجودة في الإسكندرية التي تعود إلى القرن الأول الميلادي (McKenzie, 2005, :95, P1:201,202). ويمكن تقسيم هذا النوع إلى شكلين رئيسين:

الشكل الأول:

هذا الشكل من التيجان يشبه التاج الكورنثي العادي لكنه يختلف عنه بخلوه من زخرفة الهيلكس وزخرفة الكاوليكوس وباقة الورود. والكولار، حيث تم وضع بدل من هذه الزخارف أوراق العنب المتشابكة. وإن هذا الشكل يعادل النوع الأول من التيجان النباتية لتصنيف مكانزي (الشكل ٤ – و) وقد تم العثور على مثله في الطابق السفلي من الخزنة (McKenzie, 2005, :41, P1:41-b,42-b). ، ومعبد الأسود المجنحة ، وقصر البنت، والحمامات، والمعبد الكبير، في البتراء والمكان المقدس في البيضاء

(Patrica et al. 2005:3)، وما زالت عليها أثار المثقاب Drill واضحة. كذلك ظهر مثل هذا النوع من التيجان النبطية في معبد خربة الذريح على أعمدة المدخل المتوجة والمزينة بنبات الأقنثا والمحاطة بالفاكهة التي وجدت مثيلاتها في معبد خربة التنور (Muheisen- Villeneuve 1988: fig 9)، حيث كانت واجهة معبد خربة الذريح بوابة ضخمة ذات أعمدة مندمجة تزينها تيجان في مركز واجهة المعبد والعائدة إلى القرن الثاني الميلادي (أمانة عمان ٢٠٠٢: ٤٥).

الشكل الثاني:

هذا النوع من التيجان يشبه الشكل الأول لكن ارتفاعه أقل نوعاً ما، الأمر الذي أدى إلى اختصار بعض أوراق الأكانتوس في الوسط وظهور زخرفة بسيطة على شكل أوراق نباتية متشابكة مكان زخرفة الهيلكس، حيث يظهر على الجانبين زخرفة لورقتين من أوراق الأكانتوس. وإن هذا الشكل يعادل النوع الثاني من التيجان النباتية لتصنيف الكورنثي، والقبر رقم ٧٠، وبوابة التيمنوس، ومضافة الأسود، في البتراء، بالإضافة إلى ما تم العثور عليه في تيجان خربة الذريح.

النوع الثالث: التيجان الكورنثية ذات الزخارف النخيلية:

تم العثور على هذه التيجان في معبد قصر الربة؛حيث يتكون تاج هذا النوع (الشكل ٥؛ ٦؛ ٧) من زخرفة حلزونية زاوية بسيطة وغير واضحة المعالم وتقع زخرفة الهيلكس Heliz ذات الزخارف الحلزونية المتقابلة في منتصف واجهة التاج، وهذا يشبه نوع التاج الكورنثي الهلنستي (الشكل ٤- ز)، بالرغم من أن نقطة التقاء سيقان الهيلكس مع سيقان الزخرفة الحلزونية الركنية جاءت مرتفعة بمنسوب الزخرفتين وبدون زخرفة الكاوكولس (شكل ٥ -أ). إن أهم ما يميز هذا النوع من التيجان هو وجود أوراق نخيلية بدل من أوراق الأكانتوس (الشكل ٥- لـ ، ٦- أ،ب)، إذ يوجد شجرة نخيل في الوسط وعلى جانبيها تقع ورقتي نخيل واسعة المساحة. هذه الطرز

من التيجان النبطية متأثرة بالطراز الهلنستي الكورنثي مع استخدام الفنان النبطي زخرفة الأوراق النخيلية المتواجدة بكثرة في الطبيعة كزخرفة بديلة لأوراق الأكانتوس وهذا دليل على تأثر الفنان النبطي بالطبيعة (الشكل ٥ -أ، ب، ٦- أ، ب).

لم يقتصر إبداع الفنان النبطي فقط على استنباط أشكال وأنوع مختلفة من الطرز المعمارية الكلاسيكية، لكنهم برعوا أيضاً في نحت وإضافة بعض الأشكال والزخارف الجديدة: الآدمية، والإلهية، والحيوانية، والخرافية، والمركبة وغيرها من الزخارف.

اشتهر الأنباط ببعض الطرق المميزة في معالجة تيجانهم فكانت تتمثل هذه المعالجة بإضافة الرؤوس الإنسانية والتركيز على النصف الأعلى من جسم الإنسان ليضعوها على تيجانهم ومثال ذلك التيجان الموجودة في معبد اليسع في جنوبي سورية (Hammond 1973: 83)، كما وضع الفنان النبطي زخرفة رأس آدمي Head of pan بدلاً من زخرفة الوردة في التيجان المكتشفة في المكان المرتفع المقدس في موقع البيضاء – البتراء Beidha (Patrica, 2005: 3).

وظهر في متحف البتراء رأس أنثوي على تاج عمود بازر مشغول من الحجر الرملي: الأنف محطم والفم مفتوح والأعين واسعة، تحتوي بؤبؤاً صغيراً غائراً إلى الداخل، الحواجب محطمة، الذقن ضيق وجزء منه محطم تنحدر خصلات الشعر الأمامية على الجبين وتصف باقي الخصلات نحو الجوانب. كما تتسم ملامح الوجه بالذهول. وبلغ ارتفاع هذه المنحوتة ٢٠ سم وعرضها ٣٧ سم، وسمكها ٤٢ سم، وجزؤها الأسفل شبيه برأس أنثوي.

ظهرت بعض التيجان النبطية ذات الزخارف المركبة Compound Capitals التي تتكون من زخارف متعددة من أهمها: زخارف عناقيد العنب، وأوراق الأكانتوس بالإضافة إلى أوراق الكرمة والخروب وسمي هذا النوع من التيجان بتاج اللفائف النباتية المسكونة Inhabited scrolls والتي كانت عبارة عن لفائف من النباتات يخرج من وسطها جسم بشري يحمل عصا مرقطة (Hammond 1973: 83)،

ومثال ذلك ما ظهر على منحوتة تاجية تقع جنوب غرب البوابة التذكارية في البتراء· عثر على تاج يحمل رأس سنور (٣) برونزي عليه زخارف جسم معتدل، يرتدي لباس الإلهة إيزيس المصرية (Zayadine 1990: 118-122, pl37; Hammond, 1990, pl. Isis 111-2) وظهر على بعض التيجان صور الآلهة النبطية أو الآلهة الأخرى التي كان يعبدها الأنباط بأشكال وأطوار مختلفة وخاصة عندما تطورت الآلهة النبطية وأصبحت تضاهي وتماثل الإلهة اليونانية، والسورية، والمصرية· وقد ظهر هذا النوع من التيجان على شكل تاج أنثوي تظهر فيه الإلهة تيكي Tyche تركب دلفيناً، وعرف هذا النوع من التيجان باسم Polis Crown (Zayadine 1990: 118).

ظهر العديد من التيجان التي تحمل زخارف مجنحة في معبد الأسود المجنحة الذي بني في نهاية القرن الأول الميلادي، حيث سمي بهذا الاسم نظراً لوجود منحوتات الأسود المجنحة التي كانت تتوج أعمدته (Joukowsky 1998: 303, pk 15; Hammond, 1973: pl 30; 1990, pl 111-1; 1977-1978: 85; 1996: 25)، وتم العثور على تاجية عمود مجسمة ذات أبعاد ثلاثية عليها زخارف تمثل أسداً مجنحاً رابضاً على جزء من تاج العمود مضلع يتسع من الأعلى (Hammond: 1986: 20).

إن ظهور الزخرفة المجنحة على بعض التيجان النبطية في البتراء وغيرها من المناطق تشير إلى بعض التأثيرات الشرقية التي ظهر مثلها على بعض المنحوتات الآشورية ذات الأبعاد الثلاثية في منطقة خراسان ونمرود في العراق والتي تعود إلى القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد (Parrot 1961: 20-23) .

لقد ظهرت منحوتات تاجية تمثل أشكالاً خرافية مجنحة Sphinx عبارة عن جسم حيوان مجنح له رأس آدمي تعتليه قبعة مخروطية الشكل وتتسدل خصلات الشعر على جانبيه (McKenzie 2005, pl 63- 71)، كما ظهرت بعض الحيوانات المجنحة في الحجر – مدائن صالح على مدخل أحد المدافن (أنصاري ١٩٩٠: pl, b 24).

تم العثور في معبد الأسود المجنحة على جزء من منحوتة بارزة من الحجر الرملي تمثل الجزء الأمامي من أسيد على تاج عمود، كانت تحيط الرأس منه خصلات الشعر مموجة ومصففة نحو الخلف تعتليه قرون مزخرفة الأعين واسعة، والفم مفتوح مكسور الأطراف وتحاط الرقبة بخصلات شعر أجعد يشبه شكل أوراق الشجر صغيرة الحجم، كما يلتف حول الرقبة طوق سميك يتكون من أربعة خطوط متوازية معقود من الأمام ومكسور الأطراف. ويبدو أن الفنان كان قد اهتم بملء الأسطح الملساء في جسم الأسد دون الاهتمام بالتعبير عنه بواقعية (الخوري ١٩٩٠: ٥٤ لوحة ٦٠).

وظهر في معبد خربة التنور بعض التيجان التي تحمل رأس أسد (Gluecl 1997: 238)، وتيجان أعمدة أخرى في معبد خربة الذريح منحوتة تمثل رأس أسد بدلاً من الأشكال الحلزونية التي كانت تزين في العادة زوايا التيجان الكورنثية المنحوتة من الحجر الكلسي (أمانة عمان ٢٠٠٢: ٦١ لوحة ٨٢).

إن الأشكال الحيوانية المتمثلة بزخارف الأسود التي وجدت في المناطق النبطية المختلفة تشير إلى تأثرها ببلاد ما بين النهرين، فقد عثر على مثل هذه الزخارف بكثرة في بابل وآشور، وحيث كان الأسد رمزاً مقدساً بالنسبة للإلهة عشتار، ونرى التأثير الآشوري بوضوح على بعض تيجان الأعمدة التي ظهرت في البتراء (Parrot 1961: 20-23)، كما ظهرت أيضاً زخرفة الأسود في سورية وبعلبك خلال الفترة الهلنستية وكذلك عرفت في منطقة الجزيرة العربية ومدائن صالح التي ظهرت بعض منها على أحد مداخل مدافنها.

(أنصاري ١٩٩٠: pl, b, 24).

كما ظهرت تيجان نبطية أخرى تحمل بعض أشكال الدلافين أو الأفاعي تحمل في طياتها دلائل وتفسيرات ميثولوجية أسطورية بالإضافة إلى بعض الزخارف التي وجدت على تيجان واجهات بعض المعابد النبطية التي كانت تحمل زخارف العقاب (Hammond 1973: 76-83).

ظهر مثل هذا النوع من التيجان في المعبد الكبير في البتراء على شكل تاج يحمل رأس الإلهة تيكي Tyche ربة الحظ عند اليونان مصنوع من الحجر الجيري (Joukowsky 1998: 294).

أما في معبد خربة التنور فقد تم الكشف على تاج يحمل رأس الإلهة زيوس – حدد عندما كان يماثل الإله النبطي ذو الشرى (Glueck 1997: 228)، كما ظهر بعض التيجان في المعبد نفسه تحمل الإلهة أترعنا Atragatis، ربة الخصب يعلوها مجموعة دلافين (Glueck 1997: 228).

إن ظهور الإلهة Isis الإله Osiris على بعض التيجان النبطية تتشابه مع بعض أشكال الأصنام الأنثوية التي وجدت في مصر، حيث ظهر الإله أوزيريس Osiris على بعض التيجان التي أطلق عليها اسم Atef Crown، وقد وجد مثل هذا النوع من التيجان في منطقة الدلتا تتكون قاعدته من رأس Osiris، تم تنفيذها من قبل عمال عمونيين· كما أن ظهور أترعتا على بعض التيجان النبطية يعتبر من التأثيرات السورية على العمارة النبطية·

ظهرت بعض المخلوقات الخرافية مثل: الميدوزا Medusa، على تيجان بعض الأعمدة النبطية التي تم العثور عليها في أماكن من مدينة البتراء: جنوب شرق البوابة التذكارية، وعلى واجهة مضافة الأسد، وعلى منحوتات أخرى في ساحة معبد قصر البنت، وحول البوابة التذكارية، مستديرة الوجه مطوقة بالثعابين، يحاط رأسها بخصلات الشعر المتناثرة نحو الجوانب (الخوري ١٩٩٠: ٨١)، وقد نحتت على تاج عمود من جهاته الأربع وبلغ ارتفاع التاج ٤٨ سم وعرضه سم، وهو مربع الشكل، واتصف وجهها بالهدوء، والأعين الواسعة، والوجنات والشعر المصفف نحو الخلف، وأحيطت الرقبة بطوق من الثعابين معقود من الأمام (الخوري ١٩٩٠: ٦٦، ١٧٥، ١٧٦)، كما وجدت الميدوزا على شكل منحوتة بارزة من الحجر الرملي Sandtone على تاج عمود يقع جنوب غرب البوابة التذكارية وخلف المعبد الصغير (Parr

.(1957: 10

كما عثر على رأسٍ الميدوزا في معبد خربة الذريح في الزاوية الغربية لرباط أعمدة واجهة المعبد منحوتة من الحجر وأحياناً مصنوعة من الجص وقد نحتت داخل إطار مزخرف (أمانة عمان ٢٠٠٢: ٤٦ لوحة ٥١).

يعتبر استخدام أشكال المخلوقات الخرافية في التيجان النبطية من التأثيرات المصرية من حيث المضمون وأما من حيث الأسلوب فهي تأثيرات هلنستية. وقد ظهر هذا التأثير أيضاً في فترة الأباطرة أمثال الإمبراطور تراجان Trajan والإمبراطور هدربان Hadrioban، حيث وجدت الميدوزا على العديد من المنحوتات التاجية التي تم العثور عليها في البتراء. فظهرت أحياناً على صدر الإلهة أثينا في البوابة التذكارية وعلى صدر الإمبراطور Trajan في بعض المنحوتات المجسمة (:Bieber 1997 .(144

الخاتمة:

جاءت هذه الدراسة شاملة لكافة تيجان المواقع النبطية فركزت على مدينة البتراء وغيرها من المواقع النبطية وهي محاولة تم من خلالها وضع تصنيف جديد لطرز وأنواع التيجان النبطية اعتماداً على المصادر والنصوص المنشورة وغير المنشورة وعلى الاكتشافات والحفريات الأثرية في الأماكن والمواقع النبطية المختلفة وخاصة الاكتشافات التي تمت لأول مرة في مدينتي الربة والقصر بمحافظة الكرك في الأردن.

أثبتت هذه الدراسة بأن المعماري النبطي كان على معرفة تامة بأصول وتفاصيل الطرز المعمارية الكلاسيكية المتمثلة بالأنواع المختلفة من التيجان: الدوري Doric، والأيوني Ionic، والكورنثي Corinthaian. وقد استمر الفنان النبطي باستخدام هذه الطرز المعمارية الثلاثة في البتراء وبقية المناطق المختلفة مع إدخال بعض التعديلات على بعضها والمزج بين العناصر الزخرفية لبعضها الآخر ليظهر بعد ذلك طرز

نبطية ذات صبغة متميزة.

على الرغم من أن التفاصيل المعمارية للطرز النبطية التي توصلت إليها هذه الدراسة أكدت على تأثر الأنباط بالعناصر المعمارية الهلنستية إلا أنها بالمقابل تؤكد بأن هناك إدراك واضح لدى استخدام تيجان الأعمدة بمدلولات ورموز متعددة: السياسية الدينية والاجتماعية، الأمر الذي دفعه لتحوير التقليد المعماري المعروف وإنتاج طرز جديدة تلائم شخصيته وطبيعته المميزة. فاستخدام زخارف وتقنيات خاصة به وبالتالي الخروج بثلاثة طرز معمارية نبطية وبأنواع وأشكال جديدة على الرغم من أن إطارها العام هو القالب الكلاسيكي. كما أن التفاصيل المعمارية وتعدد أنواع وأشكال تلك الطرز جاء منسجماً مع الإطار العام للهوية والعمارة النبطية.

المراجع

(١) أمانة عمان، ٢٠٠٥، **خربة الذريح من الأنباط وحتى بداية الإسلام**.

(٢) أنصاري، عبد الرحمن، ١٩٩٠، **بعض مدن القوافل في السعودية**، البتراء ومدن القوافل عمان.

(٣) خوري، لمياء، ١٩٩٠، **المنحوتات الحجرية النبطية في البتراء**، جامعة اليرموك، إربد (رسالة ماجستير غير منشورة).

(٤) شياب، عاطف، ١٩٩٠، **تخطيط النبطية في جنوب الأردن**، جامعة اليرموك، إربد، (رسالة ماجستير غير منشورة).

* Bieber, Margarete., 1977: **Ancient Copies,** New York: University press.

* Brünnow, E., Domaszewski, A., 1904: **Die provincia Arabia,** * Strassburg: Karl J. Trubner.

* Dalman, G., 1912: **Neue Petra Forschungen, Leipzig.**

* Dentzer-Feydy, Jacqueline., 1986: Decor Architectural et dëveloppement du Hauran Dan L, Antiquité (du ler S. Av. Au Vile S. de Notre ere) , HAURAN I, Deuxiëme Partie PARIS, Librairie Orientaliste Paul Geuthner, Pp. 261-311.

* Glueck, N, *1965:* **Deities and Dolphins**, the story of Nabataeans, London, 1965,242.

* Glueck, N., 1997: **The other side of the Jordan, London,** Cambridge, Massachusetts.

* Hammond, P.C., 1973: The Nabataeans- **Their History, Culture and** Archaeology, Studies in Mediterranean Archaeology, xxxvii, Sweden.

* Hammond, P.C., 1975: Survey and Excavation at Petra, 1973-1974, **ADAJ XX:**Pp.5-30.

* Hammond, P.C., 1977: Capitals from The Temple of the Winged lions, Petra,**BASOR,** 226: Pp. 47-52.

* Hammond, P.C., 1977-78: Excavations at Petra, 1975-1977, **ADAJ** XXII Pp.81-101.

* Hammond, P.C., 1986a: “Petra, the timeless” **Archaeology** 39.1, Pp.18-25.

* Hammond, P.C., 1 986b: “Die Ausgrabung des Lowen-Greifen-Temples **in** Petra (l973-l983)”4n Lindner, M. ed ., Petra Neue Ausgrabungen und Entdeckungen (Munich) Pp.16-30.

* Hammond, P.C., 1987: “Three Workshops at Petra (Jordan)”. PEO 1987: Pp.129-41.

* Hammond P.C., 1990: the Goddess of the “temple of the winged Lions" Petra(Jordan): **Petra and the Caravan Cities** 1990.

Harding, L., 1958: Recent Discoveries in Jordan, **PEQ: 6-18.**
Horsfield, G., Horsfield, A., 1937:

QDAP VII: Pp.1-24

* Horsfield, G., Horsfield, A., 1937:

QDAP VIII: Pp.87-115.

* Horsfield, G., Horsfield, A., 1941:

QDAP IX : Pp.105-205.

* Joukowsky, Martha Sharp., 1995:

southern temple at Petra, Jordan

* Joukowsky,

Sela Petra, The Rock of Edom and Nabataean, Sela Petra, The Rock of Edom and Nabataean, Sela petra, The Rock of Edom and Nabataean,

Archeological Excavations and survey of the

ADAJ, XXXIX.;

Martha Sharp., 1996: Archeological Excavations and

survey of the southern temple at Petra, Jordan

ADAJ, XL.

* Joukowsky,

Martha Sharp., 1997:

the 1996 Brown University

Archeological Excavations at "great" southern temple at Petra, Jordan

ADAJ, XLI.

* Joukowsky, M. (ed.)

1 998a: **Petra Great Temple.** Vol. I. Providence, RI:

Brown University, Petra Exploration Fund.

* Joukowsky, Martha Sharp.,1998:

Brown University Excavations publication Data.

* Joukowsky, M.,1998b:
Petra Great Temple
Volume 1, 1993-1997,
Library of congress in "Brown University 1997 Excavations at the Petra "great" Temple, Jordan **ADAJ, XLII.**
* Joukowsky,
Excavations at the
* Lawrence, A.,
Martha Sharp.,1999:
Petra "great" temple, Jordan Brown University1998
ADAJ, XLIII..,
1996: Greek Architecture. Rev. R A. Tomlinson. New Haven, Conn.: Yale University Press.
* Lyttelton, M., 1974:
Baroque Architecture in Classical Antiquity. London: Thames and Hudson. at
* Lyttelton, M., Blagg, T., 1990: **"Sculpture in Nabataean Petra, and the Question of Roman Influence~~,** in Architecture and Architectural Sculpture in **the Roman** Empire: Pp.91-107. Ed. M. Henig. Oxford: Oxford University, Committee for Archaeology. Monograph No. 29.
* McKenzie, J., 1983: Preliminary Report on the Measurement of Architectural
Elements on the Facades at Petra, **ADAJ** XXVII : Pp.209-i2. (McKenzie, Judith and
Phippen Angela).
* McKenzie, J., 1988: The Development of Nabataean sculpture at Petra and Khirbet tannury, **PEQ:** Pp.82-108.
* McKenzie, J., 2005: **The Architecture of Petra,** Oxford

University Press, New York.

* Murray, M., Ellis, J., 1940: A Street in **Petra,** London: Bernard Quaritch LTD.

* Negev, A., 1966: Cities of the Desert. (trans.) M. Roston. Tel-Aviv: E. LewinEpstein.

* Negev, A., 1973: "The Staircase-tower in Nabataean Architecture". RB 80: Pp.374-83.

*Negev, A., 1974: "Nabataean Capitals in the town of the Negev" **IEJ** 24, Pp.153-159.

* Negev, A., 1976: "The Early Beginnings of the Nabataean Realm." **PEQ** 108-109:Pp.125-33.

* Negev, A., 1986: **Nabataean Archaeology Today.** New York and London: NewYork University Press.

* Onians J., 1979: ART AND THOUGHT iN **The Hellenistic Age,** THE GREEK

WORLD VIEW, 3 *50-5-* B C , Thames and Hudson Ltd.

* Parr, p.,l[9]S[7]: Recent Discoveries at Petra, **PEQ: Pp.** 5-16.

* Parrot, A.,1961: **The** Arts **of** Assyria, Translated by Stuart Gilbert and James Emmons, New York: Golden press.

* Muheisen-Villeneuve.,1988: Un Sanctaire nabateen d,importance regionals, CRAI: Pp.471-477 PARIS.

* Patrich, Joseph.,1990: The Formation of Nabataean Art, Jerusalem.

* Patricia, M., et al. 2005: "The High Place at Beidha". ACORN: Vol.17.2.

* Rababeh, Shaher., 2005: **How Petra was built: An analysis of the construction techniques of the e Nabataean F.B buildings and rock- cut monuments in Petra..(** ISBN 1-84171-898-X)

* Starcky, J., 1966: Petra et la Nabataeane, **Supplement au Dictionaire** de **la Bible,Vol,VII,** Pp.641-942.

* Shiyab, Atef., 1993-1996: **An Archeological Excavations at al-Rabbah and al-Oasr in al-Karak-** un-Published.

* Vitruvius., 1960: The **Ten** books **of Architecture** ,Translated by Morris Hicky

Morgan, Published in United Kingdom.

* Wright, G.,1961: Structure of the Qasr Bint Far'un: A preliminary Review, **PEQ;**8-37.

* Wright, G.,1961: A Petra-The Arched Gate, 1959-60, **PEQ:** Pp.124-35.

* Wright, G.,1962: The Khazne at Petra, A review, **ADAJ VI-VII** : Pp. 24-54.

* Wright, G., 1967-68: II- some Aspects concerning the Architecture and Sculpture,

Recent Discoveries in the sanctuary of the Qasr Bint Far'un, **ADAJ** XII-XIII: 20-

* Zayadine, Fawzi., 1989: **Petra and the Caravan Cities,** Department of Antiquities, Amman.

* Zayadine, F., 1990: "The Pantheon of the Nabataean Inscriptions in Egypt and the Sinai". ARAM 2: Pp.151-74.

LIST **OF ABBREVIATIONS**

AASOR The Annual of the American Schools of Oriental Research.

ACORN The American Centre of Oriental Research Newsletter, Jordan.

ADAJ Annual of the Department of Antiquities of Jordan.

ARAM Journal of Society for Syro-Mesopotamian Studies.

BASOR Bulletin of the American Schools of Oriental Research.

CRAI Comptes Rendus des seances de 1, Academic des Inscription et Belles- Letters.

IEJ Israel Exploration Journal

PEQ Palestine Exploration Quarterly.

QADAP The Quarterly of the Department of Antiquities in Palestine. Jerusalem.

RB Revue biblique.

SHAJ Studies in the History and Archaeology of Jordan.

أسوار المدن السورية
من العصر الهلنستي إلى الفتح الإسلامي

الدكتور مأمون عبد الكريم
قسم الآثار
كلية الآداب
جامعة دمشق

شهدت سورية خلال الفترة الممتدة من دخول الإسكندر المقدوني إلى سورية عام ٣٣٣ ق.م إلى الفتح الإسلامي عام ٦٣٦ م، الكثير من الأحداث والتطورات التي كان لها الأثر الكبير في تطور أسوار المدن السورية، وقد مرت في ثلاث مراحل مهمة(١):

المرحلة الأولى: تشمل هذه المرحلة العصر الهلنستي وبدايات العصر الروماني أي من بداية القرن الثالث قبل الميلاد حتى نهاية القرن الأول قبل الميلاد.

المرحلة الثانية: تشمل هذه المرحلة الجزء الأكبر من العصر الروماني المسمى بفترة السلام الروماني، التي بدأت مع عهد الإمبراطور الروماني أوغسطس(٢٧ ق.م – ١٤م) حتى القرن الثالث الميلادي عندما بدأ الضعف يدب في الإمبراطورية الرومانية.

المرحلة الثالثة: تغطي هذه المرحلة نهاية العصر الروماني والبيزنطي في سورية في الفترة الواقعة بين منتصف القرن الثالث الميلادي حتى الفتح الإسلامي ٦٣٦م.

تأثرت أسوار المدن خلال المراحل الثلاث سلباً وإيجاباً بتطورات الأحداث في المنطقة؛ من أعمال تخريب ودمار وتجديد وتدعيم(٢).

ـ ساد في سورية خلال المرحلة الأولى نوعان من المدن: بني النوع الأول وفق النمط الكلاسيكي المعروف بالشطرنجي، تمت الاستفادة من الموقع الجغرافي في بعض المدن؛ كوجود نهر (دورا أوروبوس) أو هضبة (أفاميا) أو بحر (اللاذقية). أما النوع الثاني من المدن فهي المدن القديمة التي شيدت سابقا مثل: دمشق، حماة، حلب.

تميزت المرحلة الأولى بكثرة الحروب خاصة خلال القرنين الثاني والأول قبل الميلاد، شهدت تحصينات المدن خلالها أعمال تجديد وتدعيم مستمرة لتلافي الدمار الذي تعرضت له نتيجة الأحداث التي مرت خلال هذه المرحلة وخير مثال على ذلك مدينة أفاميا.

المرحلة الثانية: تمت في هذه المرحلة أغلب المشاريع العمرانية الهامة في سورية الكلاسيكية، شهدت خلالها المدن السورية نهضة عمرانية معمارية وذلك بفضل السلام الإمبراطوري الذي ساد خلال المرحلة.

تبدل نظام الحماية في هذه المرحلة وانتقل من نظام حماية المدينة التي تشكل فيها الأسوار الخط الدفاعي الرئيس إلى الدفاع عن حدود الدولة؛ إذ تم تنظيم **خط هجومي** ***Limes*** ابتداءً من عهد الإمبراطور ترايانوس ٩٨ – ١١٧م مدعماً بمراكز عسكرية متتالية على طول الحدود مع الإمبراطورية البارثية(٣)، تقوم هذه المراكز بحماية المعابر الحدودية ونقاط تواجد المياه ضمن هذا الخط، مثل مدينة دورا أوروبوس التي دخلت تحت السيطرة الرومانية عام١٦٨م، وتحولت إلى مركز عسكري هام في منطقة الفرات(٤).

أما حماية المدن داخل الدولة فقد أُنيطت بالفرق العسكرية الموزعة في مناطق مختلفة في سورية، حيث تمركزت بجوار المدينة كالفرقة العسكرية المتمركزة في الضمير

شرق دمشق، رافاني شمال شرق حمص والفرقة المتمركزة بجوار مدينة سيروس في وادي عفرين.... الخ(٥).

لذلك لم تحظ أسوار المدن خلال هذه المرحلة بالاهتمام الذي كانت عليه في المرحلة الأولى.

تغير نظام الحماية في المدن السورية مع وصول الساسانيين إلى الحكم في بلاد فارس خلال المرحلة الثالثة، تميزت بأعمال هجومية من قبل الساسانيين وصلت ذروتها في الهجوم على سورية عام ٢٥٦م وتدمير مدينة دورا اوروبوس واحتلال مدينة انطاكية وأفاميا ... الخ، كما لعبت تدمر دوراً في الدفاع من جهة الشرق ضد الساسانيين في عهد أذينة٦ ، لكنها فقدت هذا الدور بعد اصطدام زنوبيا مع روما وتدمير تدمر عام ٢٧٣م. مما دفع كل من الإمبراطور أورليانوس ودوقليسيانوس لتقوية الخط الحدودي *Limes* وتعويض دور تدمر التي دمرت بإضافة مراكز عسكرية جديدة إلى الخط الذي امتد من أعالي نهر الفرات شمالا حتى حوران جنوبا، وأصبح هذا الخط ذا طبيعة دفاعية بعد أن كان ذا طبيعة هجومية في المرحلة السابقة(٧)، كما تحولت بعض المدن السورية كبصرى وتدمر إلى مراكز دفاعية .

أثرت حروب هذه المرحلة بين *بيزنطة والدولة الساسانية على المدن* السورية، التي انتهت باحتلال الساسانيين لأنطاكية عام ٥٤٠م وعقد هدنة مدة خمسين عاماً، تغيرت السياسة الدفاعية لبيزنطة إذ اعتمد الإمبراطور يوستينيانوس على الغساسنة في سورية ضد المناذرة في العراق المدعومين من الدولة الساسانية، وانتهت هذه المرحلة بالفتح الإسلامي لسورية.

إن التنقيبات المستمرة منذ فترة طويلة في العديد من المواقع الأثرية في سورية، اكتشف من خلالها السويات العائدة إلى العصور الكلاسيكية، التي أعطت الكثير من المعلومات حول تطور أسوار المدن خلال المراحل الثلاث السابقة الذكر. سنحاول رصد أهم التطورات التي حصلت في بعض المدن السورية

أفاميا: تعد أفاميا ثاني أكبر مدينة في سورية، وهي إحدى المدن الأربع التي أسسها الملك السلوقي سلوقس نيكاتور في شمال سورية مع أنطاكية وسلوقية البحر واللاذقية، تميزت أفاميا بموقعها الإستراتيجي المحصن إذ يقع على هضبة مطلة على سهل الغاب الغني بالأراضي الزراعية. وتم تخطيط المدينة وفق طبوغرافية الموقع لذلك جاء مخططها غير منتظم، يبلغ طول سورها حوالي٨كم مدعم بمئة برج، والمساحة الإجمالية حوالي ٢٢٥ هكتاراً. الشكل(١).

يرى جان شارل بالتي بالاعتماد على التنقيبات التي أجريت في الموقع، بأن التخطيط العام للمدينة يعود إلى العصر الهلنستي، حيث أظهرت التنقيبات في كامل محيط المدينة- باستثناءات بسيطة - وجود أساسات ذات طبيعة معمارية عائدة إلى العصر الهلنستي ولكن الأجزاء العليا من هذا السور تعود إلى العصرين الروماني والبيزنطي[٨]. أما فيما يتعلق بالأبراج فقد لوحظ وجود اختلاف في عددها، فالأبراج العريضة الهلنستية الأصل تتميز غالباً بتغير في اتجاه الجدار، أما الأبراج الرومانية فقد كانت أصغر حجماً، وأغلب الظن أنه تم انتظار نحو مائة سنة من تأسيس المدينة في بداية العصر الهلنستي من أجل تشييد السور.

أُعيد بناء مدينة أفاميا خلال حكم الإمبراطور كلوديوس في منتصف القرن الأول الميلادي، لكن بعد الكارثة التي حلت بها جراء الزلزال الذي حصل في كانون الأول من عام ١١٥م، الذي أدى إلى سقوط العديد من الضحايا حيث تراجعت الحياة وانطوت المدينة على نفسها داخل حدود أسوارها[٩]. وأعيد تخطيطها بمقياس يختلف عما سبق، وزينت بعناصر معمارية هامة، كما نظم شارعها الرئيس الذي كان طوله ٢ كم، وعرضه ٣٧٫٥ م. وآثارها الحالية تعود إلى هذه الفترة، وما العناصر المعمارية من المعابد والحمامات والمسرح والأسوار إلا صورة رائعة عما كانت عليه هذه المدينة خلال العصر الإمبراطوري. لقد عرف السور الكثير من الترميمات الكبيرة في القرن السادس الميلادي ولاسيما في عهد الإمبراطور البيزنطي

يوستينيانوس.

إن أفاميا القرن السادس، التي كانت في أوج ازدهارها بالرغم من الزلازل المدمرة التي عرفتها في العامين ٥٢٦م-٥٢٨م، ليست أفاميا في القرن الثاني، كما أنها لم تكن ذات المدينة في العصر الهلنستي فقد أعيد بناؤها غداة كارثة حلت بها ١١٥م[١٠].

أما بالنسبة لأرنست فيل فإن المدينة الهلنستية قد صممت و خططت بمقياس أقل حجماً من المدينة الرومانية، لأن المساحة حوالي٢٢٥ هكتاراً مع شارع بعرض ٣٧،٥ وطول ٢كم تتجاوز حدود مدينة إنطاكية التي اختيرت لتكون عاصمة لهم[١١].

سيروس : شيدت مدينة سيروس في وادي عفرين من أجل حماية الطريق الرابط شمال بلاد الرافدين مع إنطاكية، تميزت بموقعها الإستراتيجي ،حيث لعبت دوراً مهماً كمركز لقيادة الحملات والجيوش ضد الدولة البارثية ابتداءً من القرن الثاني قبل الميلاد، لكن طريق الفرات انتقل إلى حلب ابتداءً من عهد الإمبراطور الروماني سبتيموس سفيروس في ١٩٣م-٢١٣م ، وبذلك فقدت مدينة سيروس الأهمية، استمرت بهذه الظروف حتى عهد الإمبراطور يوستينيانوس في القرن السادس الميلادي الذي أعاد لها الأهمية[١٢] .

إن أسوار سيروس ظاهرة للعيان حتى الآن، وقد تم إجراء عدة أسبار بهدف معرفة تاريخها وتخطيطها الذي ينسجم بشكل كامل مع طبوغرافية الموقع (هضبة)، إن هذه الأسوار العائدة إلى العصر البيزنطي والمدعمة بالأبراج ربما جاءت على تخطيط هلنستي ولكن التنقيبات لم تثبت بعد ذلك الشكل(٢).

ابن هاني:

أما في المنطقة الساحلية فقد اكتشف في عام ١٩٧٦ موقع ابن هاني الذي كان مجهولاً كلياً قبل هذا التاريخ. إن التنقيبات التي أجريت بين ١٩٧٨-١٩٨٣ كشفت لنا عن المعالم الأساسية لمدينة تأسست في منتصف القرن الثالث الميلادي ومن ثم هجرت بعد خمسين عاماً. وقد عثر في الجزء الشرقي من المدينة على التحصينات

التي خربت منذ زمن بعيد وقد كشف التنقيب أيضاً عن آثار بعض المباني (منازل، معبد، مصطبة، أفران وجزء من شبكة مياه المدينة الخ) ٠

لقد تأسس ابن هاني منذ البدء كمدينة كبيرة الأبعاد محصنة بأسوار منيعة ، بحجارة كبيرة، وقد بنيت قلعتها في الزاوية الشمالية الشرقية٠ تعطي هذه المدينة نموذجاً عن التصورات العمرانية و الدفاعية التي تجلت في النصف الثاني من القرن الثالث قبل الميلاد٠ مخططها العمراني منتظم يعتمد على محورين متعامدين[١٣]٠ الشكل(٣)٠

أعطت التنقيبات الأثرية في موقع رأس ابن هاني الكثير من المعلومات حول وجود أسوار عائدة إلى العصر الهلنستي ولا ننسى بأن المعلومات العائدة إلى هذا العصر تتميز بالقلة والضعف٠ هذه المدينة التي يبلغ طولها حوالي كيلو متراً واحداً من الشرق إلى الغرب،والتي تأسست من قبل البطالمة الذين كانوا يسيطرون على هذه المناطق ٠ في نهاية القرن الثالث قبل الميلاد ،استطاع الملك السلوقي أنطيوخوس الثالث السيطرة على هذه المنطقة ودفع قوة البطالمة إلى جنوب فلسطين وبذلك فإن مدينة رأس ابن هاني فقدت الأهمية وبعد قرن من الزمن أضيف حصن إلى الزاوية الجنوبية الشرقية من الأسوار، ولكن مع ذلك فإن الموقع قد فقد الأهمية من جديد وتحول إلى مقلع للمنطقة ،وهذا هو السبب في عدم وجود الكثير من المباني الأثرية فيها ٠

كما وضحت لنا التنقيبات طبيعة الأسوار الهلنستية في هذا الموقع والتي تتماشى مع طبيعة الأرض، حيث يلاحظ بأنها مستقيمة أحياناً، وأخرى تميل إلى الانحراف[١٤].

تدمر:

ظهرت تدمر كمدينة مهمة في العصر الروماني، سمحت لها قوتها العسكرية أن تلعب دوراً هاماً في العلاقات بين الدولة الساسانية وقبلها البارثية والدولة الرومانية٠ ويعود تأسيسها إلى فترات طويلة قبل العصر الروماني، لكنها تحولت في هذا العصر إلى ملتقى للطرق القادمة من الشرق باتجاه الغرب٠ عاشت نهضة معمارية متميزة، ابتداء

من القرن الأول الميلادي ببناء عدة معابد كمعبد بل الذي يعد من أهم المعابد في سورية، عام ٣٢ م، واكتمل بناؤه في القرن الثاني الميلادي، والمباشرة ببناء معبد نبو في النصف الثاني من القرن الأول، الذي اكتمل في القرن الثاني، وبناء معبد بعلشمين في القرن الثاني الميلادي[١٥]. أما أسوارها الباقية الآن فتعود إلى عهد الإمبراطور ديوقلسيانوس (٢٨٥-٣٠٥م) و الإمبراطور يوستينيانوس(٥٢٧-٥٦٥م)، تمتاز المدينة بعظمتها وكبر مساحتها[١٦]. الشكل(٤).

يبدو أن الإمبراطور ترايانوس كان أول من أسس فرقة نظامية من مدينة تدمر في الجيش الروماني، كما كان أول من أقام حامية رومانية في تدمر عندما بدأ مشروعه الذي أراد به إيصال حدود الإمبراطورية الرومانية حتى دجلة والخليج العربي. كما اهتم الإمبراطور هادريانوس بالمدينة وزارها حوالي عام ٢٩ م وأعطاها لقب المدينة الحرة، مما خوّلها سنَّ ضرائبها وجبايتها بنفسها. وهكذا أصبحت تدمر حلقة أساسية على طريق الحرير. وعرفت بذلك أكبر قدر من الازدهار الاقتصادي، وأكملت إنشاء العديد من المباني كمعبد بعلشمين، ومعبد اللات، والسوق العامة وبدأت بإنشاء الشارع الرئيس الذي عدل مخططات المدينة وأزال المباني القديمة.

على الرغم من هذه القوة، فإن أسوارها بقيت بسيطة لم تستطع أن تصمد أمام قوات الإمبراطور أورليانوس في القرن الثالث للميلاد وهذا ناتج عن الإهمال الذي طال أسوار المدن في عصر السلام الروماني كما أسلفنا آنفاً. ولكن تدمر تحولت فيما بعد إلى منطقة أساسية في الخط الدفاعي الذي أُنشئ من قبل الإمبراطور ديوقليسيان في نهاية القرن الثالث للميلاد؛ إذ تم رفع أسوارها بهدف حماية الفرقة العسكرية الأولى ،ويبدو أن الأسوار في هذه المرة لم تتضمن كل أجزاء المدينة حيث بقيت الأحياء السكنية خارجها[١٧]. وأخيراً قام الإمبراطور البيزنطي يوستينيانوس (٥٢٧-٥٦٥م) بتدعيم وتقوية هذه الأسوار لحماية المدينة من التهديد الساساني.

دورا أوروبوس

اكتشفت مدينة دورا أوروبوس في عشرينات القرن الماضي، تقع على نهر الفرات في موقع استراتيجي متميز، تعد من التأسيسات الأولى العائدة إلى عصر سلوقس نيكاتورنهاية القرن الرابع ق٠م و بداية القرن الثالث قبل الميلاد٠ وقعت هذه المدينة في يد البارثيين عام ١١٣ق٠م، ومن ثم أصبحت تابعة للرومان عام ١٦٨م قبل أن يتم تدميرها على يد الساسانيين عام ٢٥٦م٠ ويمكن العثور بسهولة على الملامح الهلنستية والبارثية والرومانية الموجودة في هذه المدينة، فهي تتسم بوجود أسوار منيعة مدعمة بالأبراج، وقلعة داخل هذه الأسوار٠ حيث وزعت مساحة المدينة البالغة حوالي ٤٠ هكتاراً، على جزر سكنية متساوية تفصل بينها الشوارع المستقيمة المتعامدة، كما تم إنشاء مبانٍ كثيرة كالمعابد والقصر الحاكم والآغورا٠ وهي بما تتمتع به من خصائص تُعد صورة حقيقية عن مخططات المدن الشطرنجية[١٨]، وتقدم نفسها بحسب مظهرها كمدينة شرقية من العصر الروماني، وبينت الدراسات الأثرية أن خصائصها هي خصائص مدينة هلنستية ٠ ذات ميزات دفاعية واضحة؛ كالقلعة المنيعة المعزولة عن المدينة، وأسوار عمرانية تتطابق مع الجرف في الشرق والواديين الصغيرين المحيطين بالمدينة من الشمال والجنوب٠ إضافة إلى الجدران الضخمة المستقيمة المدعمة بأبراج مربعة من جهة الهضبة، وأبواب عظيمة محمية بشدة٠ يقع الباب الرئيس في الجهة الغربية ويمتاز السور في هذه الجهة بأنه مستقيم ،ويبدو أن أسوار المدينة قد بنيت من الحجر منذ العصر الهلنستي ولكن الاحتلال البارثي للمدينة في عام ١١٣ق٠م أوقف هذا العمل ولاسيما في الجزء الشمالي من السور الغربي، وظل هذا الجزء من اللبن حتى سقوط المدينة في عام ٢٥٦ميلادي على يد الساسانيين[١٩]، إلى هذه الفترة تعود عملية تجميع الأتربة على واجهتي السور وذلك من اجل تدعيمها ولكن دون جدوى فقد سقطت المدينة ولازالت الدراسات مستمرة في هذا الموقع من أجل تصحيح كثير من الأفكار المطروحة سابقاً حول هذه الأسوار، وكذلك التأكد بشكل

أدق عن مراحل بناء هذا السور خلال تاريخه. الشكل(٥).

موقع جبل خالد:

اكتشف موقع جبل خالد في منطقة الفرات في مطلع الثمانينات من القرن العشرين خلال حملات الإنقاذ الأثرية لسد الفرات، عثر فيه على منشأة سلوقية، اختير هذا الموقع لأسباب إستراتيجية؛ إذ يتميز بطابع هضبي ذي انحدارات شديدة تطل على نهر الفرات من ارتفاع ١٠٠م، محاطة بسور ضخم يبلغ طوله ٤ كم مبني من حجارة متساوية الارتفاع ومقببة ذات حشوات وهذا السور مزود بثمانية وعشرين برجاً مربعاً وينفتح على الجنوب الغربي بواسطة باب ضخم ذي فناء، كما تضم المنشأة قلعة محصنة تبلغ مساحتها ٢ هكتار فيها بقايا لقصر واسع ومنازل.[٢٠]

فقدت المدينة أهميتها في نهاية العصر الهلنستي، وتحولت تدريجيا إلى خراب في العصر الروماني، حيث أدى تحول الطرق التجارية خلال العصرين الروماني والبيزنطي عن هذه المدينة إلى عدم وجود استيطان وفقدان الموقع لأهميته.

بصرى:

أصبحت بصرى عاصمة للولاية العربية عام ١٠٦م بعد أن كانت عاصمة للمملكة النبطية، تمركزت فيها فرقة عسكرية رومانية.

يقع السور في الجهة الغربية من المدينة ومازال محافظا على وضعه حتى الآن، يعود بناؤه إلى القرن الثاني للميلاد، أنشئ على أساسات نبطية كما أثبتته ذلك الأسبار الأثرية، يضم هذا السور باباً ضخماً يقع على الطريق المحوري للمدينة[٢١]. الشكل(٦).

شهبا(فيليبيوبوليس): يعود تاريخ مدينة شهبا(فيليبيوبوليس) إلى منتصف القرن الثالث وهي مسقط رأس الإمبراطور فيليب العربي(٢٤٤-٢٤٩م) وسميت نسبة له فيليبيوبوليس، تلقت الكثير من الرعاية خلال فترة حكمه، كانت ذات مخطط منتظم؛

أسوارها شبه مربعة، تضم شارعين رئيسين متقاطعين بالإضافة إلى بناء الكثير من المباني. وتعد هذه المدينة من الإنشاءات النادرة خلال العصر الروماني.

أما النوع الثاني من المدن فقد استمر الاستيطان فيها خلال العصور المختلفة وتعرضت أسوارها إلى تدمير متواصل بسبب الأحداث التي عاشتها وبالتالي فإن أعمال التجديد فيها لم تتوقف. ومن أهم المدن السورية:

مدينة أنطاكية العاصمة: حيث دلت المعطيات الأثرية على أن مساحة المدينة العائدة إلى عصر سلوقس نيكاتور تقدر بحوالي ١٥٠ هكتاراً. ويشير نص للجغرافي اليوناني سترابون في حديثه عن مدينة أنطاكية: أنها مؤلفة من أربعة أحياء و لكل حي سور خاص به إضافة إلى سور يحيط بالأحياء الأربعة، و يتحدث عن كيفية بناء هذه الأحياء بشكل[٢٢] متعاقب من قبل ملوك السلوقيين الآوائل[٢٣]، و قد أثر الضعف الذي ساد الدولة السلوقية بدءاً من القرن الثاني قبل الميلاد على المدن السلوقية التي لم تتطور بطريقة مهمة[٢٤]. كما أن التغيرات التي طرأت على المدن السورية خلال العصر الروماني قد محت آثار العصر الهلنستي. ويُقال إن الإمبراطور تيبيريوس بنى سوراً حول أنطاكية ضم أحياء المدينة العائدة للعصر السلوقي[٢٥]، وشمل المدينة كاملة، ووسعها، كما تم تحويل الطريق العام القادم من حلب باتجاه البحر إلى طريق هام ذي أعمدة وأروقة وأرصفة، ويجتاز المدينة من الشمال إلى الجنوب على مسافة ٣كم وعرض ٣٣م. تعرضت هذه المدينة إلى زلزال عام ١١٥ م، وأعاد الإمبراطور ترايانوس بناءها، ودشن الطريق، وانتهت الأعمال في عهد الإمبراطور أنطونين التقي (١٣٨م- ١٦١م). الشكل(٧).

دمشق :

دخلت مدينة دمشق تحت السيطرة السلوقية متأخرة عن غيرها من المدن السورية عام ٨٨/٩٥ق.م، يعود تاريخها إلى قرون عديدة سابقة للعصور الكلاسيكية، وبذلك

لاتندرج ضمن المدن التي تم تأسيسها في العصر السلوقي، تلقت اسماً جديداً خلال هذه الفترة هو دمترياس خلال حكم الملك السلوقي دمتريوس الثالث· خضعت بعدها لفترة تحت سيطرة النبطيين ثم أصبحت واحدة من المدن العشر التي أسسها بومبيوس، وتبنت تقويم بومبيائي عام ٦٤ ق·م· لا نملك الكثير من المعطيات الأثرية عن هذه المدينة خلال العصور الكلاسيكية، وفيما يبدو أن الشارع الرئيس/ المستقيم/، الذي يسمى حالياً شارع مدحت باشا، لا يعود لأبعد من حكم الإمبراطور كلوديوس ٤١-٥٤للميلاد الذي لعب دوراً كبيراً في تنظيم المدينة· كما كان معبد جوبيتير الرائع أهم مباني المدينة وتحول لاحقاً إلى كنيسة خلال العصر البيزنطي ومن ثم تحول إلى مسجد خلال العصر الأموي ولا يعود تاريخ هذا المبنى كمعبد كلاسيكي إلى أبعد من النصف الثاني من القرن الأول الميلادي[٢٦]· وتعود التغيرات الأساسية في مدينة دمشق من الناحية العمرانية إلى العصر الروماني، ولاسيما أن الفترة التي بقيت فيها تحت السيطرة السلوقية كانت قصيرة[٢٧]·

كما أننا لا نملك أية معلومات واضحة عن السور القديم حيث هدم في القرن الثامن الميلادي (الثاني للهجرة)، وأعيد بناؤه في القرن العاشر الميلادي (الرابع للهجرة) للمرة الأولى ومن ثم في القرن الثاني عشر ويعتقد بأنه لا يحتفظ بكثير من عناصر الجدار الذي سبقه ولكن المواد الأولية المتعددة القديمة الموجودة فيه هي في حالة إعادة استعمال، والأثر الوحيد الذي بقي في مكانه هو الباب الشرقي· لذلك فإن الباحثين حاولوا من خلال الدراسات الطبوغرافية الوصول إلى طرح بعض أفكار عن شكل الأسوار في مدينة دمشق خلال العصور القديمة والسابقة للإسلام انطلاقا من نقطتين محددتين، الشكل(٨):

الباب الشرقي والباب الغربي والاستفادة من الطريق المستقيم أو المحوري الذي يربط هذين البابين· ومن خلال مد خطوط مستقيمة بين نقاط عديدة، توصلوا بشكل افتراضي إلى شكل المستطيل لمدينة دمشق خلال العصر الروماني ·كما تم التعرف على بعض

النقاط الأخرى مثل باب توما الذي يفترض أنه باب قديم، وقد لاحظوا أيضا أن تخطيط الأسوار خلال العصور الإسلامية لم تأت دائماً وبشكل دقيق وفي كل الاتجاهات على تخطيط القديم العائد إلى ماقبل الفتح الإسلامي، إذ ظهرت حالة بروز أو ظهور فجوة بالنسبة للسور القديم كحالة ميلان نحو الداخل أو الخارج في بعض الاتجاهات بالنسبة للتخطيط القديم للمدينة، وأشاروا إلى وجود سبعة أبواب لدمشق خلال العصور القديمة[٢٨]. لازالت الدراسات مستمرة حول تخطيط مدينة دمشق ومعرفة شكل أسوارها ومحاولة التأكد بشكل أعمق حول صحة ما تم طرحه من فرضيات حول تطور مدينة دمشق من قبل عديد من العلماء.

حمص:

تحاكي حمص مدينة دمشق من حيث استمرار الاستيطان فيها، ولقد طرحت الكثير من التساؤلات والفرضيات عن طبيعة أسوارها وتاريخ تطورها خلال العصور الكلاسيكية، حيث حاول العلماء منذ فترة طويلة معرفة جوانب عديدة من تاريخها، والتعرف على طبيعة تنظيمها العمراني، حتى إن البعض منهم اعتمد على المخطط الحالي للمدينة في محاولة لاستنباط مخططها القديم[٢٩]، وقد تسببت الزلازل والحروب في فقدان المدينة للكثير من آثارها العائدة إلى العصور الرومانية والبيزنطية، ويتم استنباط المعلومات عن هذه المدينة من كتب الرحالة الذين زاروا المدينة خلال القرون الماضية، أو من كتب المؤرخين اللاتين واليونان من العصر الروماني، بالإضافة إلى تقارير الحفريات التي أجريت في المدينة خلال القرن الماضي، التي أظهرت الكثير من الأساسات والعناصر المعمارية للمباني العائدة إلى العصرين الروماني والبيزنطي[٣٠]. حيث تركزت هذه الحفريات بشكل أساسي في المدينة القديمة، داخل وخارج أسوارها العائدة إلى الفترة الإسلامية، التي كانت بشكل عام حفريات إنقاذ، وأما المقاطع فيها فليست واضحة بشكل كاف، كما أن المنقبين لم يشيروا في أحيان كثيرة إلى مناسيب الطبقات الأثرية التي عثر فيها على مادة أثرية.

سنحاول أن ندرس الأسوار والأبواب للمدينة الإسلامية والمعروفة حالياً للوصول إلى بعض الاستنتاجات حول طبيعة أسوار المدينة خلال العصور السابقة للفتح الإسلامي. الشكل(٩).

أ ــ الأسوار: تقع مدينة حمص ضمن سور مستطيل تقريباً وتحتل القلعة الجانب الجنوبي الغربي له. ووفقاً للتنقيبات التي قام بها م.موصلي، لا يوجد أية علاقة بين المدينة الرومانية البيزنطية وبين السور الذي يعود إلى الفترة الإسلامية[٣١]، فالمدينة المحصورة ضمن السور هي إذاً مدينة إسلامية، وقد تأكدت هذه النظرية عندما تبين أن السور يمر عبر مبنى" كبير في الشمال تم التعرف عليه على أنه كنيسة ومن المحتمل أن هذا المبنى كان قد دمر في أواخر العصر البيزنطي بسبب الحروب التي عاشتها المنطقة بين الإمبراطورية البيزنطية والساسانية، وهذا ما أدى إلى تقلص حجم المدينة حتى حدود السور الإسلامي في جهة الشمال، كما أثبت هذه الفرضية أيضاً اكتشاف بقايا معمارية من العصور الرومانية البيزنطية الواقعة خارج السور الحالي، مما يعني أن السور العائد إلى العصرين الروماني والبيزنطي كان متقدماً أكثر إلى الشمال.

يأخذ السور الإسلامي شكلا مستطيلا تقريباً بارتفاع حوالي عشرة أمتار، وعرض حوالي أربعة أمتار. وقد تم بناؤه من قطع كبيرة من الحجارة، وتزويده بأبراج كبيرة في النقاط الاستراتيجية. يعتقد م. موصلي أن هذه التحصينات تعود إلى العصر الأموي[٣٢]، لكنه لا يعطي أية دلائل. تمت تقوية الأسوار الإسلامية خلال القرن الثالث عشر لصد الهجمات العسكرية، وقد لعبت تحصينات المدينة دورا في المقاومة خلال الحروب الصليبية، لكنها دمرت خلال الهجمة الصليبية الثانية.

ب- الأبواب: تعود الأبواب الحالية إلى الفترة الإسلامية، وقد يكون للبعض منها علاقة بالمخطط القديم لمدينة حمص. ويشير م.موصلي اعتمادا على الواقدي من القرن التاسع الميلادي (الثالث للهجرة)[٣٣]: كان لحمص خلال الفتح الإسلامي

أربعة أبواب هي: الرستن، والشام، والجبل، والصغير. أما في القرن الثالث عشر الميلادي (السابع للهجرة) فقد كان لحمص الأبواب التالية:

١. باب السوق: يقع إلى الشمال، هذا الباب هو باب الرستن، وقد كان ما يزال قائماً خلال القرن التاسع عشر، فقد وصفه الرحالة الأوروبيون.

٢. باب تدمر: كانت القوافل القادمة من تدمر تدخل من هذا الباب، ولم يتبق منه سوى بعض البقايا، وموقعه يعود إلى فترة سابقة للفتح الإسلامي.

٣. باب الدريب: ذكره الرحالة الأوروبيون باسم باب الدير، ولم يتبق منه أي أثر.

٤. باب السباع: كان موقعه إلى شرق القلعة، ولم يتبق منه أي أثر، ولكنه من المؤكد أن هذا المكان كان مستخدماً كباب قبل الفترة الإسلامية.

٥. باب التركمان: يقع إلى الشمال الغربي من القلعة، ولم يتبق منه إلا بعض البقايا المعمارية، ووفقاً لـ م.موصلي، يمكن أن يكون هناك علاقة لاسم الباب مع استيطان التركمان في المدينة خلال القرن الحادي عشر الميلادي (القرن الخامس للهجرة).

٦. باب المسدود: يقع شمال باب التركمان، تشير الكتابة فوق ساكفه إلى تاريخ إنشائه في القرن الثالث عشر.

٧. باب هود: بقي منه بعض البقايا المعمارية، ومن المؤكد أن هذا الباب كان مستعملاً منذ الفترات القديمة كفتحة للمدينة باتجاه الغرب[٣٤].

يمكن لنا، باستخدام الأبواب التي تعود إلى فترة الفتح الإسلامي، أن نبني فرضياتنا عن العلاقة بين الأبواب التي سبق ذكرها والأبواب العائدة إلى الفترة الرومانية البيزنطية. ويمكن لهذه المحاولة أن تسمح لنا بفهم أكبر لإمكانية تصور موضع الأبواب ما قبل الإسلام، والحصول على بعض المعلومات عن المخطط القديم للمدينة.

يبدو من مخطط المدينة الحديث أن أربعة من أبوابها تشغل موضعاً قديماً، هي السوق وتدمر والسباع وهود.

يمكن أن يربط باب السوق مع باب الرستن خلال الفترة الإسلامية. الذي يؤدي إلى مدينة الرستن الواقعة على محور الطريق باتجاه حلب في الشمال. ولكنه من الصعب التظاهر بأن موضعه يعود إلى الفترة الرومانية البيزنطية لأننا سبق وشرحنا أن السور الشمالي للمدينة يعود للفترة الإسلامية، وأن السور الروماني البيزنطي كان متقدماً إلى الشمال. ومن المحتمل أن باب المدينة كان واقعاً على المحور نفسه إلى الشمال من السور الإسلامي.

قد يتطابق باب تدمر مع الباب الصغير، وقد يعود إلى الفترة الرومانية. وقد كان الطريق الذي يدخل المدينة من هذا الباب منذ القديم أحد طرق القوافل القادمة من تدمر. كما يمكن أن نقرر أن هذا الدليل مندمج في قلب التقسيمات القديمة الموجودة في شرق حمص، حيث عالجنا سابقاً التنظيمات الزراعية في الأراضي الواقعة إلى الشرق من مدينة حمص و ذلك عن طريق تحليل المعطيات الأثرية وكذلك الاستفادة من دراسة الخرائط الطبوغرافية، والصور الجوية، أيضاً والصور الفضائية، لقد سمحت لنا هذه الدراسات التعرف على وجود بقايا آثار للتقسيمات الزراعية في هذه المنطقة وإحدى المحاور الأساسية في قلب هذه التنظيمات هو الطريق القادم من الشرق من جهة تدمر حيث تدخل المدينة من باب تدمر، هذه التنظيمات وكذلك الطريق المذكور تعود إلى العصر الروماني لذلك يبدو أن هذا الباب كان موجوداً منذ القديم[٣٥]. الشكل(١٠).

بقي أن نتعرف على بابين: الشام، وهو يخص مدينة دمشق، والجبل، وهو باتجاه الجبل. يمكن لباب السباع أن يشغل مكان باب الشام، وهو متوضع على محور باب السوق باتجاه الجنوب أي باتجاه مدينة دمشق. وأخيراً، وبين الأبواب الثلاثة التي تخترق السور الغربي لإيميسا، يبدو أن باب هود كان واقعاً مكان باب الجبل. فمن هذا

الباب يمكن الوصول إلى المنطقة الجبلية الواقعة إلى الغرب· كما أن باب هود متوضع على محور باب تدمر، ويسمح للقوافل بالوصول إلى المتوسط· ومن المرجح إذاً أن باب هود يعود أيضاً إلى الفترة القديمة· وللأسف، لم يتبق إلا القليل من البقايا المعمارية التي لا تسمح لنا بتأكيد هذه الفرضيات·

لذلك وضمن المعطيات الحالية فإنه من المحتمل أن السور في الجهة الشرقية والغربية وكذلك في الجهة الجنوبية قد حافظ على حدود المدينة العائدة إلى العصرين الروماني والبيزنطي أما السور الواقع في الشمال والعائد إلى العصور ما قبل الإسلامية يمكن أن يكون إلى الشمال من السور الإسلامي · وقد تم الاعتماد على توزع المواقع الأثرية في مدينة حمص لطرح الأفكار السابقة·

وأخيراً فإننا بحاجة إلى المزيد من التنقيبات في المستقبل للوصول إلى فهم أعمق لواقع الأسوار في المدن السورية· ولاسيما أن النقاشات مازالت مستمرة في الوسط العلمي الأثري والتاريخي حول فكرة أن تكون أسوار المدن السورية خلال العصرين الروماني والبيزنطي قد جاءت على أساسات الأسوار العائدة إلى العصر الهلنستي، وهنا لابد من الإشارة إلى أن وجود الآثار الهلنستية في بعض النقاط من الأسوار لا تعني بالضرورة أن تكون الأسوار الرومانية والبيزنطية قد جاء تخطيطها بشكل كامل على تخطيط أكثر قدماً، خاصة وأننا أشرنا سابقاً كيف أن الأحداث التي عاشتها سورية خلال العصور المختلفة قد لعبت دوراً أساسياً في تغيير شكل المدن السورية ولا ننسى أيضاً سياسات التوسع في المدن التي كان لها دور مهم في تغيير شكل المدينة خاصة خلال العصر الروماني حيث عرفت سورية خلالها نهضة عمرانية ومعمارية لذلك تم إعادة تخطيط المدن السورية وفق تخطيط جديد بما ينسجم مع ازدياد عدد السكان وكذلك توفير المساحات اللازمة لبناء الأبنية الجديدة العامة والخاصة·

المراجع

المراجع العربية والأجنبية :

الموصلي، ماجد: **موجز في تاريخ مدينة حمص و آثارها**، حمص، ١٩٨٤.

بالتي، شارل: "تحولات و استمراريات الفضاء العمراني، منذ التأسيس الهلنستي وصولاً إلى المدينة الرومانية- البيزنطية"، **المدينة في سوريا و أقاليمها : الموروثات و المتحولات**، ترجمة محمد دبيات، دمشق، ٢٠٠٤ ، ص٢٢٩-٢٥٤.

لوريش، بيير: الظاهرة العمرانية في سورية الهلنستية، **المدينة في سوريا و أقاليمها : الموروثات و المتحولات**، ترجمة محمد دبيات، دمشق، ٢٠٠٤ ص١٧٥-١٣٧.

ABDULKARIM M., *Recherche sur la cité d'Émèse à l'époque romaine*, Thèse de Doctorat, Université de Versailles-Saint-Quentin-en-Yveline.1997.

Id., Télédétection et archéologie : sur la cité d Emèse, *Photo-Interprétation*, 37, Paris, 1999, pp.14-34.

Id., Reconnaissance d'une limitation antique dans la région d'Emèse, *AAAS*, Damas,2002-2003, p261-275.

ABDULKARIM M et al., L'apport des textes de Strabon dans l'analyse environnementale et historique des sites de la valleé de l'Oronte, *Photo-Interprétation*, 2-3, Paris, 2004, p.5-17.

BOUNNI A., Palmyre et les Palmyréniens, *Archéologie et histoire de la Syrie,* Sarrebruck, 1989. pp.251-266.

DODGEEON M.H and LIER N.C., *The roman Eastern frontier and the Persian wars*, London 1991.

DODINET M et al., Le paysage antique en Syrie, l'exemple de Damas, *Syria*, LXVII, Paris, 1990, p.339-368.

DOWNEY G., Ancient *Antioch*, Princeton, 1963.

LERICHE P et MAHMOUD A, Bilan des campagnes de 1986-1989 de la mission franco-syrienne a Doura-Europos, *Doura-Europos Etudes 1988*, p.3-24.

Id., Les fortifications grecques et romaines en Syrie, *Archéologie et histoire de la Syrie*, Sarrebruck, 1989, p.267-282.

LERICHE P. et GELIN M., *DOURA-EUROPOS Etudes* IV 1991-1993, Beyrouth.1997.

MOUTERDE E et POIDEBARD A., *Le limes de Chalcis*, Paris, 1934.

POIDEBARD A., *Les traces de Rome dans le désert de Syrie*, Paris,

SARTRE M., *Bostra, des origines à l' Islam*, (BAH 117), Paris.1985.

Id., *D'Alexandre à Zénobie*, Paris, 2001.

SAUVAGET J., Le plan antique de Damas, *Syria*, 1949, p.332-357.

WILL E., Ville de la Syrie, *Archéologie et histoire de la Syrie*, Sarrebruck, 1989, p.223-250.

Id., Damas antique, *Syria*, Paris, 1994, pp.1-43.

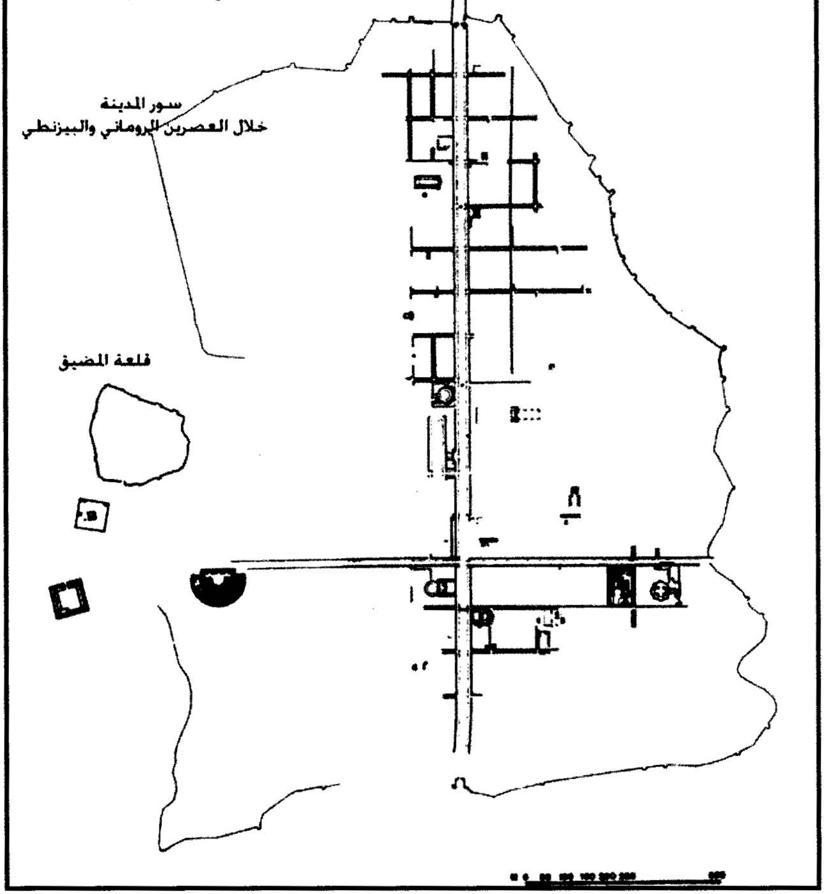
Id ., Antioche sur l'Oronte, Métropole de lAsie, *Syria*, Paris,1997, pp.99-113

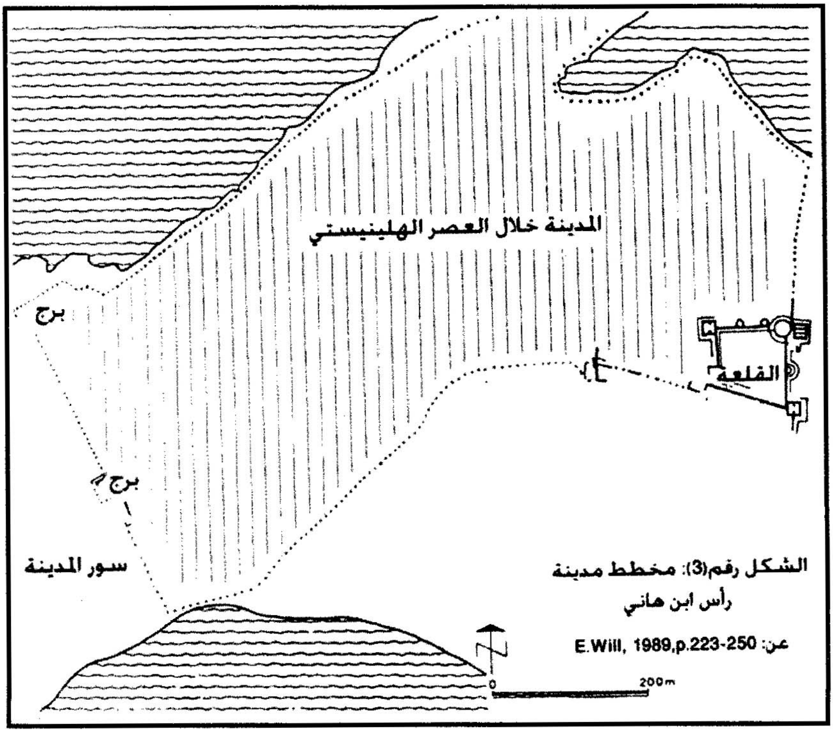
WHITTAKER C.R., *les Frontiès de l'Empire Romain*, 1989, Besançon.

WHITTAKER C.R, *Frontiers of the Roman Empire*, London, 1994.

الشكل رقم(1):
مخطط مدينة أفاميا

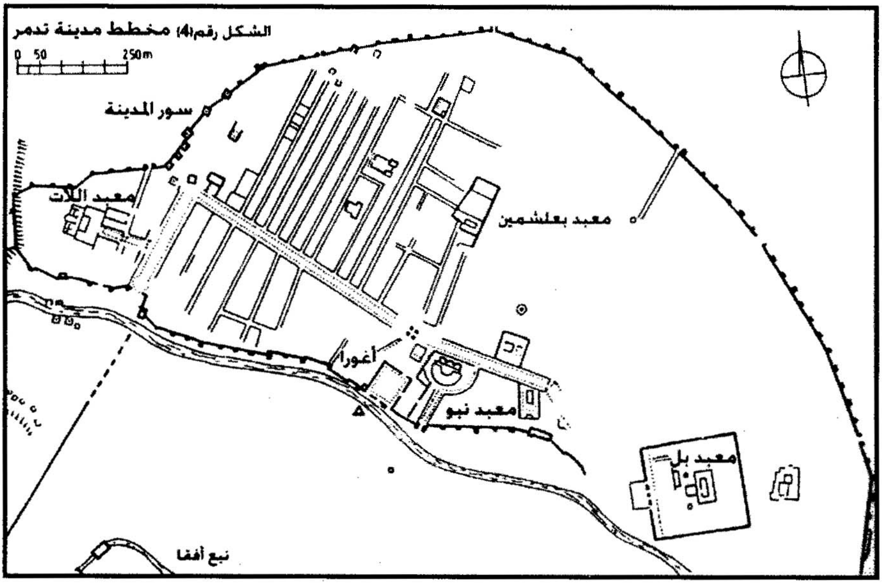
عن: E.Will, 1989,p.223-250.



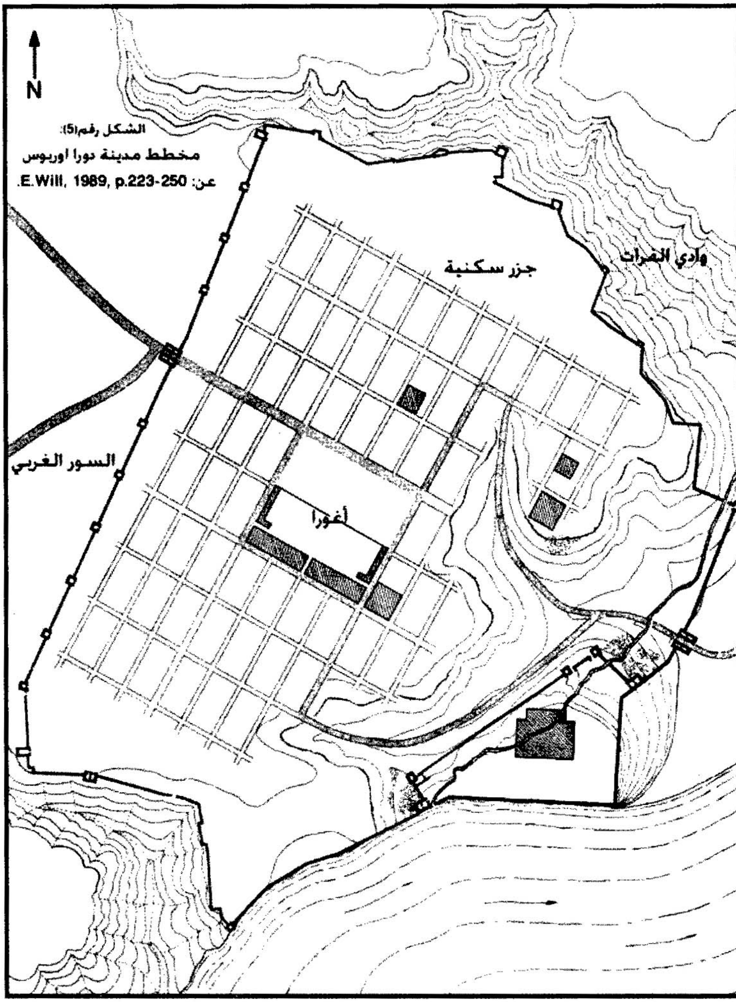


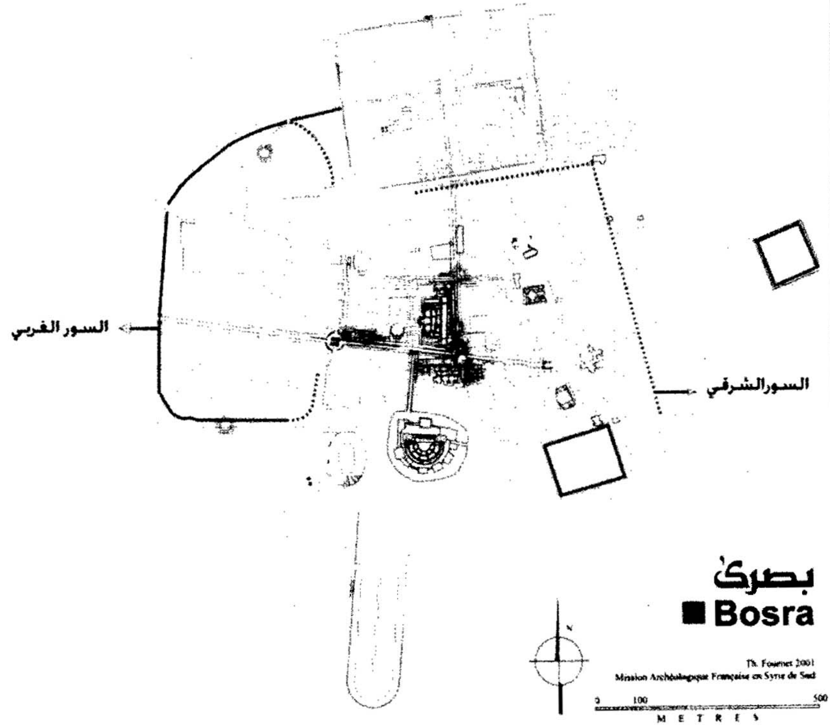
الشكل رقم(3): مخطط مدينة
رأس ابن هاني

عن: E.Will, 1989,p.223-250



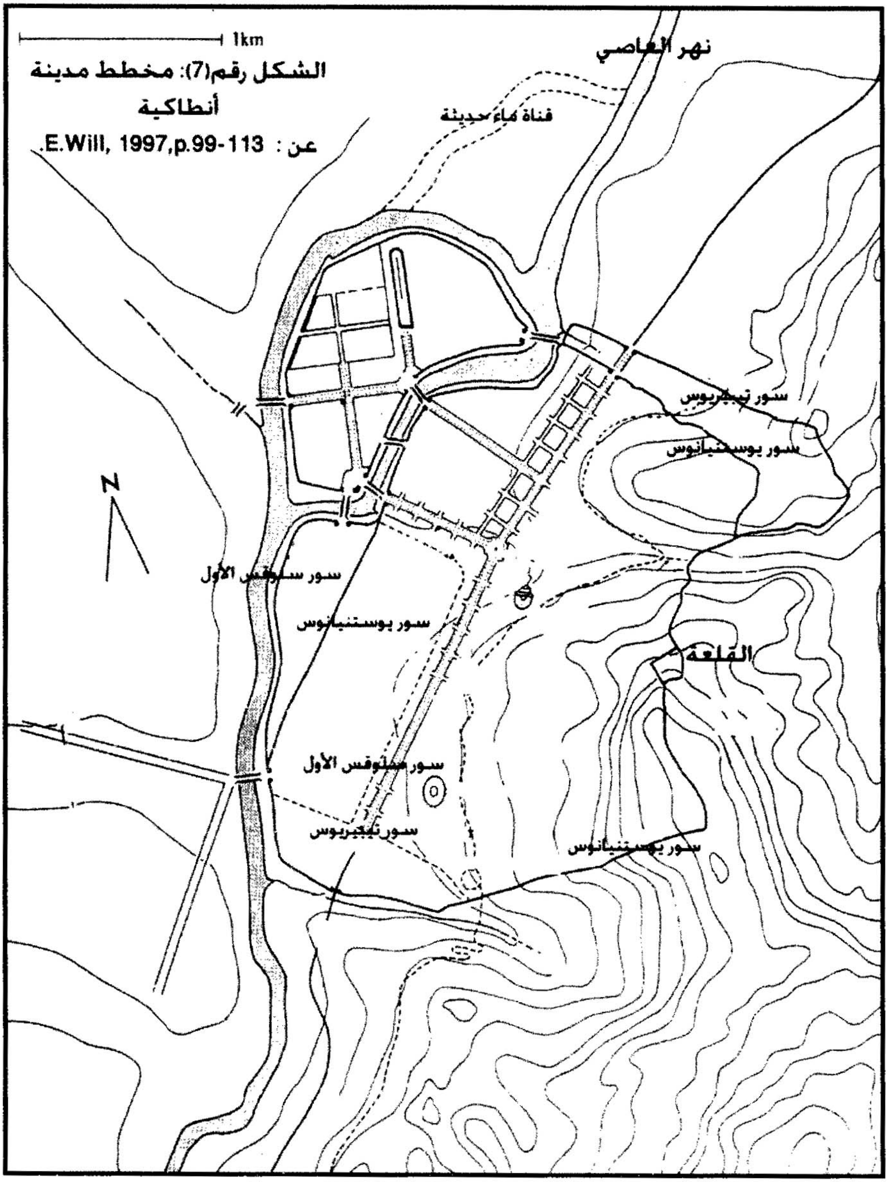
الشكل رقم(4) مخطط مدينة تدمر


N
الشكل رقم(5):
مخطط مدينة دورا اوربوس
عن: E.Will, 1989, p.223-250.
جزر سكنية
وادي الفرات
السور الغربي
أغورا



الشكل رقم(6) العصر البيزنطي

عن كتاب: J. Dentzer-Feydy et al, *Bosra*, 2007, p.60.

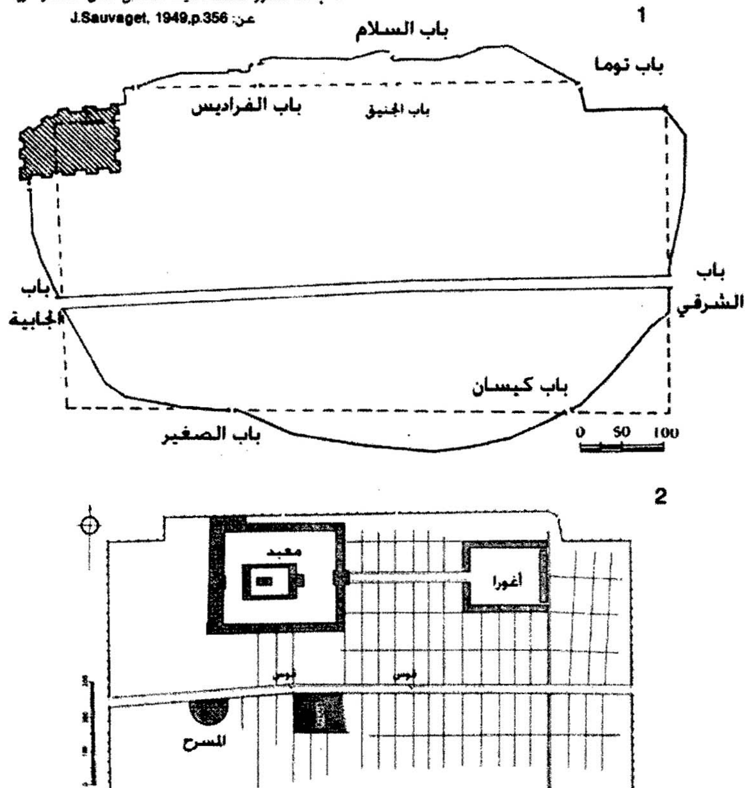


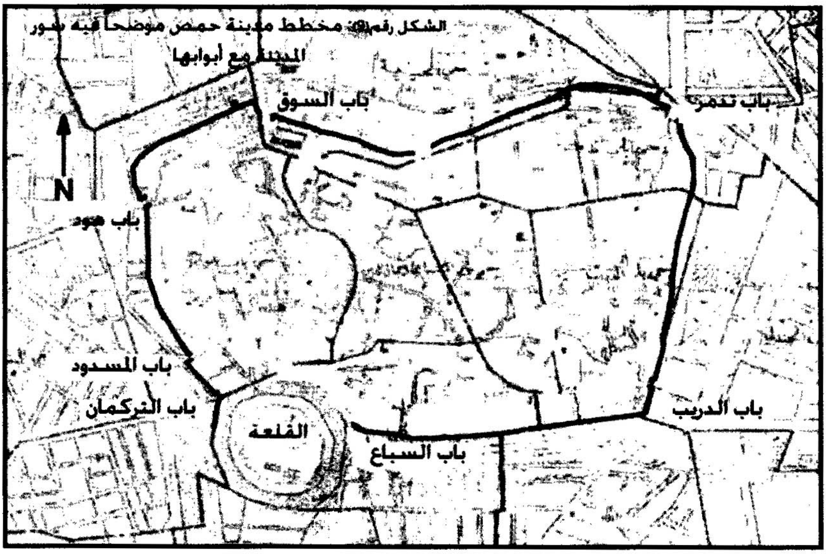
الشكل رقم(7): مخطط مدينة أنطاكية

عن : E.Will, 1997,p.99-113.

الشكل رقم(8): مخطط مدينة دمشق
1-السور المفترض لمدينة دمشق .

2- إعادة تصور لمخطط مدينة دمشق خلال العصر الروماني.
عن: J.Sauvaget, 1949,p.356





الشكل رقم([illegible]): مخطط مدينة حمص موضحاً فيه سور المدينة مع أبوابها


حمص
0
1Km

الهوامش

(1) WILL E, Ville de la Syrie, *Archéologie et histoire de la Syrie*, Sarrebruck, 1989, p.223-250.
(2) SARTRE M., *D'Alexandre à Zénobie*, Paris, 2001.
(3) POIDEBARD A,. *Les traces de Rome dans le désert de Syrie*, Paris, 1945.
(4) LERICHE P et MAHMOUD A, Bilan des campagnes de 1986-1989 de la mission franco-syrienne à Doura-Europos, *Doura-Europos Etudes 1988*, p.3-24.
(5) C.P. WHITTAKER, *les frontiès de l'Empire romaine*, 1989, Besançon. C.R.WHITTAKER, *Frontiers of the Roman Empire*, London, 1994.
(6) M.H.DODGEEON and N.C. LIER ., *The roman Eastern frontier and the Persian wars*, London 1991.
(7) P. LERICHE, Les fortifications grecques et romaines en Syrie, *Archéologie et histoire de la Syrie*, Sarrebruck, 1989, p.267-282.

أنظر أيضاً: " E. MOUTERD et A. POIDEBARD ,. *Le limes de Chalcis*, Paris, 1934.

(٨) بالتي،شارل: "**تحولات واستمراريات الفضاء العمراني**، منذ التأسيس الهلنستي وصولاً إلى المدينة الرومانية– البيزنطية"، **المدينة في سوريا و أقاليمها: الموروثات و المتحولات**، ترجمة محمد دبيات، دمشق، ٢٠٠٤، ص٢٣٩.

(٩) بالتي، شارل: 2004 ص٢٣٩.

(١٠) **المرجع السابق**. ص ٢٤٥.

(11) E.WILL, 1989, p.232.
(12) P.LERICHE, 1989, p.270 .

(١٣) لوريش، بيير: الظاهرة العمرانية في سورية الهلنستية، **المدينة في سورية وأقاليمها: الموروثات والمتحولات**، ترجمة محمد دبيات، دمشق، ٢٠٠٤ ص ١٤٦.

(14) P.LERICHE, 1989. p.373-374.
(15) BOUNNI A., Palmyre et les Palmyréniens, *Archéologie et histoire de la Syrie,* Sarrebruck, 1989, pp.251-266.
(16) E. WILL, 1989, p237.
(17) P.LERICHE,1989, p.279
(18) Ibid, p.281.
(19) Ibid, p.281.

(٢٠) لوريش،بيير: 2004، ص ١٦١.

(21) P.LERICHE, 1989, p.275.

حول تطور **مدينة بصرى**،أنظر :
M.SARTRE, *Bostra, des origines à l Islam*, (BAH 117), Paris,1985.

(22) E.WILL E, Antioche sur l'Oronte, Métropole de l'Asie, *Syria*, Paris, 1997,pp.99-113
(23) STRABON, *Geogaphie*, XVI, II, 10.
(24) E. WILL, 1989, P. 229.

أنظر كذلك :
(25) WILL E, Damas antique, *Syria*, Paris, 1994, pp.1-43.
(26) G. DOWNEY, *Ancient Antioch*, Princeton, 1963.
(27) E. WILL, 1989 , p.236.
(28) M.DODINET et al., Le paysage antique en Syrie, l`exemple de Damas, *Syria*, LXVII, Paris, 1990, p.339-368
(29) J.SAUVAGET, Le plan antique de Damas, *Syria*, 1949, p.332-335.
M.DODINET et al, op.cit, p.339-368.

حول تطور **مدينة حمص خلال العصرين الهلنستي والروماني** ، أنظر :
(30) M.ABDULKARIM, 1997, *Recherche sur la cité d'Émèse à l'époque romaine*, thèse de Doctorat, univesitè de Versailles-Saint-Quentin-en-Yveline.
M.ABDULKARIM., 1999, Télédétection et archéologie : sur la cité d Emèse, *Photo-Interprétation*, 37, pp.14-34.

M.ABDULKARIM et al, L'apport des textes de Strabon dans l'analyse environnementale et historique des sites de la valleé de l'Oronte, *Photo-Interprétation*, 2-3, Paris, 2004, p.5-17.

(٣١) الموصلي، ماجد: **موجز في تـاريخ مدينـة حمـص و آثارهـا**، حمـص، ١٩٨٤،ص ٦٣.

(٣٢) **المرجع السابق**، ص ٦٣.

(٣٣) **المرجع السابق**، ص ٦٤.

(٣٤) **المرجع السابق**، ص ٦٥.

(35) M.ABDULKARIM., Reconnaissance d'une limitation antique dans la région d'Emèse, *AAAS*, Damas, 273.

التكيتين العثمانيين المولوية والأحمدية في مدينة دمشق

الدكتور وائل منير الرشدان

جامعة اليرموك- الأردن

لقد كانت مدينة دمشق تزخر في العصر العثماني بالمباني كباقي عصورها، وامتدت العمارة خارج سور دمشق القديم، وقد شهدت مدينة دمشق خلال القرن السادس عشر الميلادي تطوراً معمارياً شمل العديد من المنشآت المختلفة (مساجد، مدارس، تكايا، حمامات، خانات،...الخ)، وقد لعبت التكايا دوراً مهماً في حياة هذه المدينة التي كانت تشتهر بالعلم والعلماء وطلبة العلم، وكذلك بالمتصوفة والصوفيين، ومن خلال هذا البحث سوف نتطرق إلى دراسة التكايا معمارياً والوظائف التي كانت تقوم بها.

التكايا:

هي إحدى المباني الدينية في العمارة الإسلامية، فالتكية كلمة تركية تعني رباط الصوفية، وهو المكان الذي تمارس فيه الشعائر الدينية والتدريس وإطعام الفقراء (الشهابي ١٩٩٩، ص ١٠٤)، وقد أشار الشيخ الولي يقول: "التكية ولعلها مأخوذة من فعل (اتكأ) بمعنى استند، ذلك أن المتربعين فيها يستندون في أمر إقامتهم ومعاشهم على ما ينفق عليهم من الأوقاف المحبوسة عليها من قبل السلطان أو غيره من أهل البر والإحسان" (الولي، ١٩٨٨، ص ٩٠). وهي متطورة من الخانقاوات الإسلامية (شيحة، ١٩٩٢، ص ٢١، مصطفى، ١٩٧٥، ص ٢٦-٢٧)، وفي العصر العثماني أصبح يطلق عليها اسم تكايا وأضاف الباشا في معرض حديثه عن الخانقاوات بأنها في العصر المملوكي كانت تجمع أحياناً بين المدرسة والتكية والضريح، كما هي

الحال بمدرسة أمير أكبر قرقماس بالقاهرة (شافعي، ١٩٧٠، ص ٢٥٠) الباشا، ١٩٧٩، ص ١٧٣-١٧٤)، عثمان، ١٩٨٨، ص ٢٤٤)٠ وهي تقوم على مبنى يحتوي على صحن (فناء) واسع مكشوف تحيط به أربع ظلات من الجهات الأربعة، وكل جهة تتكون من مجموعة من الحجرات (الخلاوي) لإيواء المتصوفة (شيحة، ١٩٩٢، ص ٢١، مصطفى، ١٩٧٥، ص ٢٦-٢٧)، وقد تتكون من طابقين أو أكثر (ماهر، ١٩٧٣، ص ٤٨-٤٩، شيحة، ١٩٩٢، ص ٢١)، وكان يوجد بالظلة القبلية إيوان يتوسطه محراب ليتخذ كمصلى (فرغلي، ١٩٩٣، ص ٣٩-٤٠)، وفي بعض الأحيان تحتوي على مسجدٍ مستقلٍ لإقامة الشعائر الدينية، كما يلحق بالتكية في بعض الأحيان مدفن خاص بأهل الطريقة الصوفية المقيمة فيها، وقد يلحق بها سبيل ماء (شيحة، ١٩٩٢، ص ٢١، مصطفى، ١٩٧٥، ص ٢٦-٢٧)٠ ومن الناحية التخطيطية فقد امتازت التكية بنظام التخطيط الهندسي المنظم ذو الشكل المربع أو المستطيل حسب نظام العمارة العثمانية، يتكون هذا النظام من صحن كبير مكشوف تحيط به مجموعة من المنشآت (المسجد وغرف للمبيت، وقاعات للطعام، والفرن، ٠٠٠٠الخ)٠ أما المواد الأولية المستخدمة في البناء فهي المواد المتوفرة في بيئة هذه التكايا ففي بلاد الشام فقد استخدمت الحجارة بنوعيها الكلسي والبازلتي والجدران الداخلية كانت تغطي بطبقة من الملاط، كما استخدم الحديد والخشب، ٠٠٠الخ، وقد كان يراعى في بناء التكية أن تقام بالقرب من مصادر المياه الدائمة٠

وظائف التكية:

من أهم وظائف التكية التعليم، فقد كانت حلقات التدريس فيها بالإضافة إلى إقامة حلقات الذكر والاحتفالات الدينية، وتقديم وجبات الطعام المجانية لطلاب العلم المقيمين فيها والضيوف والفقراء والمساكين، بالإضافة إلى تقديم المبيت المجاني للمسافرين والحجاج، وكذلك كانت تقوم بدور تطبيب المرضى وعلاجهم، وهو الدور الذي كانت تقوم به البيمارستانات٠ وفي أواخر العصر العثماني أصبحت هذه التكايا تستخدم كملجأ

للفقراء والمساكين أو كما أطلق عليها مصطفى شيحة الكسالى (أو تنابلة السلطان) (شيحة، ١٩٩٢، ص ٢١-٢٢). وكذلك أشار شافعي "أن التكايا التي وجدت في العصر العثماني وسمي أهلها بالدراويش، يؤدون طقوساً لا تمتّ للإسلام بصلة، وكل ذلك بتأثير الرهبانية التي كانت منتشرة في أوروبة، أخذها العثمانيون من البلاد التي احتلوها في جنوب أوروبة لينشروها في البلاد العربية الإسلامية (شافعي، ١٩٧٠، ص ٢٥٠). أما حسن فقد أشار إلى أن وظيفة هذه المباني كانت متخصصة لإيواء الدراويش المنقطعين للنسك والعبادة (حسن، ص ٢٧-٢٨. الباشا ١٩٧٩، ص ١٧٣-١٧٤)، وكانت هذه التكايا تقوم بنفس الوظيفة التي كانت تقوم بها الخانقاوات (صدقي، ١٩٨٨، ص ٢١٦، شيحة، ١٩٩٢، ص ٢١-٢٢، ماهر ١٩٧٣، ص ٤٨، الباشا، ١٩٧٩، ١٧٣-١٧٤، محمد ١٩٨٩، ص ٢٢).

وكان ينفق على هذه المنشآت من ناتج القرى والمزارع والأسواق والحوانيت التي أوقفت عليها كما تمّ تعيين موظفين خاصين لإدارتها والإشراف عليها.

لقد امتازت سورية بانتشار العديد من هذه المنشآت فوق أراضيها، وكانت تقام على امتداد طريق الحج الشامي، ومن أهم هذه التكايا: التكية السليمية في الصالحية بجانب مسجد الشيخ محيي الدين بن العربي (٩٢٤هـ/ ١٥١٨م)، والتكية السليمانية في ساحة المرج الأخضر على الضفة اليمنى لنهر بردى (المتحف الحربي حالياً (٩٦٢هـ/ ١٥٨٥م)، والتكية المولوية في ساحة المرج الأخضر بالقرب من جامع دنكز (٩٩٣هـ/ ١٥٨٥م)، والتكية الأحمدية (مقام العسالي) في منطقة القدم في جنوب مدينة دمشق (١٠٤٤-١٦٣٥م)، وهذه التكايا ما زالت آثارها باقية حتى يومنا هذا في سورية.

وسوف نقوم في هذا البحث بدراسة التكية المولوية والتكية الأحمدية) دراسة معمارية خلال (التسمية، والموقع، والوصف المعماري، وتاريخ البناء، ومراحل الترميم وأعمال الصيانة التي طرأت عليهما). وقمت بإعداد هذا البحث لهاتين التكيتين بعد

الدراسة التي قام بها الطالب محمد معتصم الشياب التي أعدها للحصول على درجة الماجستير من جامعة اليرموك –إربد (٢٠٠١)، بعنوان: التكايا العثمانية في دمشق في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، الذي كنت مشرفاً عليها ولكن بعد أن تسنى لي مشاهدة هذه التكايا ارتأيت أن أعيد كتابة ونشر هذا البحث لتعديل العديد من الهفوات في الوصف المعماري ونقص في قراءة العديد من النصوص الشاهدية التي لم يقرأها الطالب، ولهذا وجدت إن من الأمانة العلمية أن أعيد وصف ودراسة هذه الدراسة من جديد وخاصة التكيتين المولوية والأحمدية لأن هذه التكايا غير منشورة أما التكيتين السلمية والسليمانية فهي منشورة.

التكية المولوية:

التسمية:

سميت بالمولوية نسبة إلى الطريقة الصوفية (المولوية)، والمولوية هي إحدى الطرق الصوفية التي انتشرت في قونيا ومنها إلى باقي أنحاء الدولة العثمانية (رد خاوص ١٩٧٤، ص ١١٢٦). ومولوي: لقب يطلق على من يتبع الطريقة المولوية الصوفية، (الشهابي، ١٩٩٧، ٢١)، ومولولي خانة كلمة تركية مركبة تعني مكان الصوفية، أو مكان المولوية (المنجد ١٩٤٩، ص ١١٢).

وتقع التكية المولوية في ساحة المرجة بالقرب من جامع دنكز، مقابل محطة سكة حديد الحجاز (شارع جمال باشا)، على الضفة اليمنى لنهر بانياس.

تاريخ البناء:

أنشأت التكية المولوية سنة (٩٩٣هـ/ ١٥٨٥م)، وهذا ما اتفق عليه من قبل من كتب عنها، ولكن من خلال النقش الموجود على الباب نجد أن تاريخ البناء يعود إلى عام ٩٩٣هـ، كما هو واضح. (مولوي خانة شهر أفاق أولدي تاريخ كعبة العشاق) في سنة ٩٩٣ (لوحة ١).

ومن خلال حساب الجمل، تبين لنا أن مجموع الكلمتين (كعبة العشاق) مجموعهما ٩٩٤ وهي كما يلي:

ك + ع + ب + أ + ل + ع + ش + أ + ق

٢٠ +٧٠+٢+٤٠٠+١+٣٠+٧٠+٣٠٠+١+١٠٠=٩٤٤

١- هناك إشارة أوردها محمد بن جمعة المقار في كتابه الباشات والقضاة ونقله صلاح الدين المنجد في كتابه ولاة دمشق في العهد العثماني وهذه الإشارة يتحدث فيها المؤلف عن تاريخ بناء هذه التكية وهو كما يلي:

وفي سنة ثلاث وتسعين وتسعمائة، تولى دمشق حسن باشا للمرة الأولى، والقاضي مصطفى أفندي، وفي هذه السنة عمرت تكية الدراويش مولوي خانة (Laous, 1952, p. 190) بالقرب من جامع دنكز، وهي غاية في الحسن والجمال". (المنجد ١٩٤٩: ١٩). وهنا نجد أن المؤلف أورد أن تاريخ بناء هذه التكية يعود لعام ٩٩٣هـ، وذلك عند الإشارة "وفي هذه السنة عمرت مولوي خانة..." وهذا النص لا يدل على انتهاء البناء ولكن ما هي الإشارة عن عمارة هذه التكية؟.

وهنا نجد أن هناك تاريخين أولهما ما أورده محمد جمعة مقار والنص التأسيسي الموجود في التكية وهو المؤكد الذي لا يدع مجالاً للشك في أن تاريخ هذه التكية يعود لعام ٩٩٣هـ/ الموافق ١٥٨٥م، وهذه التكية شيدت في عصر السلطان مراد الثالث.

وقد أشار الدمشقي كذلك لموقع التكية التي يرجح تاريخ بنائها إلى عام ٩٩٣هـ/ ١٥٨٥م، "والمولوية: لعل التكية المولوية التي بنيت في عام ٩٩٣هـ/ ١٥٨٥م، إلى الغرب من جامع دنكز وكانت تسمى تكية الدراويش، جدّد بناء أقسامها سنة ١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م، وبني إلى جانبها مسجد لطيف بمئذنة تحاكي مآذن القاهرة المملوكية، وقد تخرب أعاليها أثناء ضرب الفرنسيين دمشق سنة ١٩٤٥م، فجددت"

(الدمشقي، ١٩٩٣، ص ٢٤٧)٠ وكذلك أشار ابن عبد الهادي إلى التكية وقام بوصفها٠ (ابن عبد الهادي ١٩٤٣، ص ٢٠٢)٠

الدراسات السابقة:

زار العديد من الرحالة والمؤرخين هذه التكية

١- فقد وصفها ابن عبد الهادي في وصفه لتكية: "........ ولا يزال على الباب تاريخ البناء الأول موجوداً إلا أن هذا المسجد قد اعتراه كثير من التغيير منذ بنائه إلى يومنا هذا، ولهذا المسجد اليوم واجهة حجرية منحوتة متقنة فيها الباب وشباكان يطلان على الطريق، وعلى كتفهما تقوم المنارة مثمنة من الحجر الأبيض المزخرف، لها طابقان مزخرفان على الأسلوب المصري، ومن تحتها سقاية، وإلى يمين الداخل درجات ينزل لها إلى الصحن المستطيل ومنه إلى قبة الحضرة، حيث يقوم الدراويش المولوية برقصتهم المعروفة، وفي تلك الحضرة قبر لأحد شيوخهم، ويحيط بتلك الحضرة عدة غرف لسكن الدراويش"٠ (ابن عبد الهادي ١٩٤٣، ص ٢٠٢)٠ ولكن هذه الخلاوي غير موجودة حالياً، وربما تهدمت وقد أعيد مكانها أحد المكاتب الرسمية وهي تتكون من طابقين٠

٢- وصفها محمد علي باشا وذلك بعد زيارته لها في عام (١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م)٠ "وذهبنا في عربة إلى زيارة تكية المولوية التي ذكرنا، أنها كانت في طريقنا من المحطة إلى الفندق، دخلنا هذه التكية وهي من البناء المزخرف الجميل، قائمة في وسط حديقة غناء، وقد استقبلنا عند مدخلها شيخها... ثم طفنا على قاعات التكية ورأينا أهلها من أولهم إلى آخرهم"٠ (علي باشا، ١٩٨١، ص ٩٨)٠

٣- أشار الشهابي إلى موقع التكية وأنها شيدت في عصر السلطان العثماني مراد الثالث سنة ٩٩٣هـ، عندها جامع، وتشغلها اليوم جمعية النهضة الإسلامية، (الشهابي ١٩٩٩، ص ١٠١)·

٤- محمد معتصم الشياب، في دراسة قام بها لنيل درجة الماجستير من جامعة اليرموك، بعنوان: "التكايا العثمانية في دمشق في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين (الشياب، ٢٠٠١)·

الوصف المعماري:

١- من الخارج: السور (شكل ١):

سور التكية القديم، يقوم على قناطر تحمل السور وذلك لمرور نهر بانياس من تحته (لوحة رقم ٣)، طوله (٣٦م) ومتوسط ارتفاعه (٢م)، يوجد في أقصى يسار السور سبيل ماء فتحه (١،١٠م)، وعلى جنبيه عمودان من الحجر الأبيض مدمجان في الجدار، ويحتوي السور على أربع نوافذ على هيئة عقد مدبب منفوخ الأكتاف فتحه (١،١٠م)، وارتفاعه (٨٠م)، وإلى يسار كل نافذة جامة دائرية تحتوي على زخارف هندسية، يغطيها شبك حديد وإلى يسار الباب يوجد باب آخر لدكان (حديث)، وإلى يسار الدكان يوجد باب آخر (أقيم حديثاً) يؤدي إلى مؤسسة حكومية، وفي أقصى يمين السور يوجد سبيل ماء وباب المسجد وهما (حديثا الإنشاء)· وإلى جانب السقاية الحائط القديم وفيه أربع كوى صغيرة، ثم الباب القديم الذي كتب عليه نص الإنشاء الذي أشرنا إليه سابقاً·

وعلى امتداد الباب أيضاً سقاية أخرى معطلة فوقها أبيات بالتركية مؤرخة بعام ١٢٦٦هـ، وإلى شمال المدخل من الباب الجديد القبلة المبنية من الإسمنت ولها محراب حسن ومنبر خشبي لطيف، وإلى يمين الداخل درجات ينزل بها إلى صحن مستطيل مؤدٍ إلى قبة الحضرة·

٢- المدخل الرئيسي للتكية والمسجد: (لوحة ٢):

يتوسط السور تقريباً الباب الرئيس للتكية، فتحته (١،٤٠م)، وارتفاعه (٢،٠٥م)، عتب مسطح، تعلوه نافذة على هيئة عقد مدبب منفوخ اتساعه (١،٤٠م)، وارتفاعها (٨٥م)، (ويحيط بالباب إطارٌ حجريٌ على شكل عقد مدبب منفوخ الأكتاف)· يقوم على أكتاف مقرنصة تتكون من حطه واحدة، ويزين نهاية الإطار الحجري العلوي حطة واحدة من المقرنصات الحجرية،ويعلوه نقش حجري بصيغة:

"ذا مسـجد بـالتقي والبـر أسسـه — شـمس الطريقـة والإرشـاد نـوره
قـد ابتغـى فيـه وجـه الله محتسـبا — جـزاؤه عنـد مـن للخيـر سـيره
وثـم يزهـو بـذكر الله مبتهجـا — فالشكر لمـن ببـديع الصـنع أظهـره
ومـذ تشـيد بيـت الله أرخـه — إلى العبـادات شـمس الـدين عمـره"

وبهذا نجد أن بناء هذا المسجد يعود إلى سنة ١٣٦٠هـ·

إن مجموع الكلمات (إلى العبادات شمس الدين عمره) حسب طريقة الجمل هي:

أ + ل + ي + أ + ل + ع + ب + أ + د + أ + ت + ش + م + س + أ + ل + د + ي + ن + ع + م + ر + هـ

١+٣٠+١+٧٠+٢+١+٤+١+٤٠٠+٣٠٠+٤٠+٦٠+١+٣٠+٤+١٠+٥+٠+٧٠+٤٠ +٢٠٠+٥=١٣٦٠هـ·

وبهذا نجد أن بناء هذا المدخل والمسجد يعود إلى سنة ١٣٦٠هـ، (وهذا الجزء مرمم حديثاً وهو يؤدي أيضاً إلى المسجد المحاذي للتكية)· أما الباب الرئيس للتكية فيقع إلى الشرق من الباب الحالي وهو عبارة عن دخلة معقودة بعقد مدبب أمـا فتحـة البـاب معقودة بعقد موتور يعتمد على طيين حجريين، ويتوسطه عتب سطح مـزين بـالنص التأسيسي للتكية ويعلو النص زخرفة نباتية مكونة من وردة كبيرة ووريدات صـغيرة، والنص التأسيسي بصيغة:

(مولوي خانة شهر آفاق أولدي تاريخ كعبة العشاق)

في سنة ١٩٩٣ (لوحة ٣)

٣- الصحن: (شكل ١ لوحة ٤)

يؤدي الباب الرئيس إلى صحن مكشوف مستطيل الشكل (٣٠م × ٧م)، يحيط به المسجد وغرفة الحضرة والمدفن والسور.

٤- المسجد:

عبارة عن مسجد (تمت إضافته حديثاً)، ويقع في الجهة الشرقية من التكية وهو يتكون من قاعة للصلاة عرضها ٥،٥٠م، وطولها ١٣،٤٠م.

- من الخارج:

أ- الواجهة الجنوبية (الرئيسة):

تقع هذه الغرف في الجهة الشمالية للصحن، طول واجهة غرفة الحضرة والمدفن (٢١م)، وارتفاعها (٥،٥٠م)، ويتوسط هذه الواجهة الباب الرئيس لغرفة الحضرة، فتحته (٠،٩٠م)، وارتفاعه (٢،٢٠م)، وساكفه على شكل عقد عاتق، يؤدي إلى غرفة الحضرة.

ب- الواجهات الأخرى تلاصقها أبنية سكنية:

الوصف المعماري لغرف الحضرة والمدفن:

غرفة الحضرة: وهي غرفة مستطيلة الشكل (١٢م × ٧م)، مسقوفة بقبة نصف دائرية محمولة على أربعة عقود (لوحة ٥)، ونلاحظ أن مخطط هذه الغرفة يشبه إلى حد كبير المدارس السلجوقية ذات الأربعة إيوانات على محور متعامد وهذا التصميم لقاعة الصلاة مسقوفة بقبة واحدة، وجد العديد من المساجد والمباني الدينية العثمانية مثل مسجد سليمية في استانبول، وكذلك مسجد بايزيد الثاني في أدرنة، (الريحاوي ١٩٩٠،

ص ٤٤٦)، ينزل إلى أرضية الغرفة بدرجتين بارتفاع (١٥م)، لكل واحدة، تؤديان إلى قاعة الصلاة من الجهة الجنوبية باب يفتح على الإيوان الجنوبي وهذا الإيوان قائم على عقد مدبب منفوخ الأكتاف، وإلى يمين الباب وفي منتصف جدار هذا الإيوان (إيوان القبلة) يوجد محراب مضلع بخمسة أضلاع مبني من الحجر، فتحته (٩٠م)، وارتفاعه (١،٨٥م)، تتوجه طاقية على هيئة عقد مدبب منفوخ الأكتاف (لوحة رقم ٦).

ويعلو المحراب ثلاثة بلاطات من القاشاني كتب عليها الآية الكريمة التالية: ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب﴾ (آل عمران/ ٣٧)، وفوق بلاطات القاشاني لوحة من الألوان الزيتية على هيئة عقد مفصص رسم عليها مسجدان وبيوت سكنية وقناطر، عرض اللوحة (١،٥٠م)، وارتفاعها (٨٠م)، (لوحة رقم ٦)، وفوق هذه اللوحة توجد نافذة من الزجاج الملون يتوسطها طربوش المولوية، اتساع النافذة (٩٠م)، وارتفاعها (١،٢٠م)، وتوجد نافذة إلى يمين المحراب بعرض (١م)، وارتفاع (٢،١٥م)، معقودة بعقد نصف دائري والعتب يعلوه عقد عاتق.

الإيوان الشرقي قائم على عقد مدبب فتحته (٧،٥٠م)، يؤدي إلى قاعة صغيرة مستطيلة المسقط (٦م×٤،٥٠)، وفي الجهة الجنوبية للقاعة باب صغير يؤدي إلى غرفة صغيرة تحتوي على قبر مجهول، ويعلو هذه القاعة غرفة صغيرة أضيفت فيما بعد (بنيت حديثاً)، يصعد إليها بواسطة درج من باب (أقيم حديثاً)، إلى يمين الجدار الشرقي للغرفة.

تقسم النافذة إلى قسمين بواسطة عمود حجري مثمن الأضلاع، ويوجد في وسط الجدار الشمالي نافذة عرضها (١،٠٢م)، وارتفاعها (١،٥٧م)، وساكفها على شكل عقد عاتق، يتقدم الجدار دكة خشبية، وأما الدكة الشمالية متوجة بعقد مدبب (حديثاً نسبياً)، يصعد إليها بواسطة درج خشبي، يعلو الدكة نافذة عرضها [illegible]، وارتفاعها (٢،٤٠م) وهي مقسومة إلى نافذتين.

غرفة المدفن:

تقع في الإيوان الغربي لقاعة الصلاة وهي عبارة عن فتحة معقودة بعقد مدبب تبلغ فتحته (٧،٣٥م)، وقد أغلقت هذه الفتحة بجدار حديث حيث يتوسطه فتحة بعقد نصف دائري معقودة تؤدي إلى غرفة الدفن وهي غرفة مستطيلة المسقط (٦،٥٠م × ٥،٥٠م)، مسقوفة بقبة نصف دائرية قطرها (٧،٤٠م)، وفي رقبة القبة أربعة نوافذ صغيرة لتوفر الإضاءة لغرفة الدفن، والقبة قائمة على أربعة عقود مدببة منفوخة الأكتاف ولها نافذتان معقودتان بعقد نصف دائري، وأرضية هذه الغرفة أعلى من أرضية قاعة الصلاة بحوالي (٠،٣٠م).

وفي الجدار الشمالي نافذة اتساعها (١،٥م)، وارتفاعها (١،٨٥م)، وساكنها على شكل عقد عاتق، تحتوي هذه الغرفة على أربعة قبور وهذه القبور مرتبة من الجهة الشمالية للغرفة إلى الجهة الجنوبية، فالقبران الموجودان مندثران ولا يوجد سوى الصندوق الخشبي المقام عليهما.

وأما القبر الموجود في الطرف الشمالي للغرفة فكتب على شاهده ما يلي:

- السطر الأول "الفاتحة".
- السطر الثاني "كل من عليها فان".
- السطر الثالث "ويبقى وجه ربك ذو الجلال" (الرحمن: ٢٦-٢٧).
- السطر الرابع "والإكرام هذا قبر المرحوم"
- السطر الخامس "الشيخ سعيد أفندي المولوي".
- السطر السادس "ابن الشيخ أحمد الأحمدي".
- السطر السابع "توفي في غرة رمضان سنة ١٢٨٦" (لوحة رقم ٧).

وبعد الرجوع إلى كتب التراجم ذكر الشطي ترجمة الشيخ سعيد أفندي المولوي حيث قال: "ترجمة الفاضل تقي الدين في تاريخه قال ما خلاصته "هو سعيد بن الأحمدي

الدمشقي الصالحي، شيخ المولوية بدمشق الشام، خدم هذا الملـــك (الطريقـــة) بأمانـــة وصدق ومكارم الأخلاق، وحافظ على أملاك التكيةو المولوية، وكان يطبخ الطعام كل يوم لمريديه من الدراويش الفاضلين في تلك التكية ودفن في التكية المذكورة، وهو جد الشيخ سعيد أفندي ابن الشيخ أحمد الأحمدي شيخ المولوية السابق رحمهما الله" الــذي توفي في عام ١٢٨٦هــ، الموافق ١٨٦٩م، كما هو وارد في النص الموجــود علــى شاهد قبر الشيخ سعيد أفندي أحمد الأحمدي (الشطي ١٩٧٢،، ص ١٣٠–١٣١)٠ وفي الجدار الجنوبي للغرفة فتحة مدخل معقودة بعقد نصف دائري فتحته (٢م)، وارتفاعــه (٢،٨٥م)، يؤدي إلى غرفة مستطيلة المسقط (٤،٧٠م × ٢،١٠م)، وأرضية هذه الغرفة أعلى من أرضية الغرفة السابقة بحوالي (١م)، وقد غطيت هذه الغرفة بقبــة نصــف دائرية نصف قطرها (٢م)، مقامة بواسطة عقود دائرية مدعمة بجدران الغرفة يبلــغ فتحة هذه العقود (١،٩٠م)، ويوجد في الجدار الجنوبي لهذه الغرفة نافذتان اتســاعهما (٠،٩٩٥م)، وارتفاعها (٢،٠٠٥م)، وتحتوي هذه الغرفة علــى قبــرين، أحــدهما فــي النصف الغربي للغرفة والآخر في النصف الشرقي لها، حيث نجد الشاهد الأول هــو لسعيد أفندي الأحمدي والثاني مفقود، وأما القبر الثالث الموجود في الطرف الجنــوبي للغرفة فهو يعود إلى المرحوم والمغفور له عمر باشا الوزير، وقراءة الشاهد بصيغة:

- السطر الأول "الفاتحة"٠
- السطر الثاني "هذا قبر المرحوم والمغفور له،
- السطر الثالث عمر باشا الوزير والي جدة،
- السطر الرابع وشيخ حرم الشريف المكي سابقاً:
- السطر الخامس ابن قاضي زادة الأدنوي تغمده الله،
- السطر السادس تعالى لرحمته وأسكنه فسيح جناته،
- السطر السابع (٠٠) روحه الفاتحة،

- السطر الثامن توفي أول محرم من سنة ····· (٤٤٩······) (لوحة رقم ٨)·

وهناك نقشٌ آخر تم العثور عليه داخل التكية بصيغة:

- السطر الأول هذا قبر المرحومة رسمية حرمة الشيخ
- السطر الثاني محمد شيخ المولويين لزيق
- السطر الثالث والدة المرحومة فاطمة
- السطر الرابع توفيت الجمعة العاشر من محرم سنة ١٠٧١· (لوحة رقم ٩)·

الترميمات:

نستنتج من خلال الإضافات التي طرأت على التكية أن ثمة إصلاحات قد طرأت عليها، فقد ذكر الشهابي ترميم طرأ على التكية حيث يقول: "··· شيدت (أي المئذنة) والجامع سنة (١٣٦٠هـ/١٩٤١م)، وقد أصيب القسم العلوي منها بأضرار إبان الاعتداء الفرنسي على دمشق في ٢٩ أيار ١٩٤٥، فجرى ترميمه سنة ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م" (الشهابي ١٩٩٣: ٢٣٩)، وقال ابن عبد الهادي عن تغييرات حدثت على المبنى فيقول: "ألا إنّ هذا المسجد قد اعتراه كثير من التغيير منذ بنائه إلى يومنا هذا" (ابن عبد الهادي ١٩٤٣، ص ٢٠١)·

ومن خلال هذه الإشارات نجد التكية قد تعرضت إلى التدمير وكذلك إلى العديد من الترميمات والإضافات كما هو واضح من خلال الوصف المعماري الذي يدل على العديد من الإضافات والترميمات أهم ما تم في عام ١٩٤١، وذلك بعد الاعتداءات الفرنسية على مدينة دمشق· ونتيجة لذلك وقد أجريت العديد من التحديثات والتجديدات وخاصة المسجد الذي يوجد على يمين المدخل الرئيس للتكية، وكذلك العديد من التحديثات التي طرأت على هذه التكية في السنوات القليلة الماضية· وفي عام ٢٠٠٣، أجريت عليها العديد من الترميمات وخاصة في غرفة الحضرة والمدفن حيث كسيت

الجدران الداخلية بوزرة رخامية وكذلك كسيت الأرضية بالبلاطات الرخامية وكذلك تم ترميم الجدران الداخلية للتكية.

التكية الأحمدية (مقام العسالي):

التسمية:

سميت بالتكية الأحمدية، نسبة إلى منشئها الوزير أحمد باشا(٣) المعروف بكوجك أحمد الأرنودي وتقع التكية الأحمدية في منطقة القدم، جنوب دمشق، بالقرب من محطة سكة الحديد الحجازي، وتعرف حالياً مقام العسالي نسبة إلى الشيخ أحمد بن علي الحريري العسالي شيخ الطريقة الصوفبة الخلوتية بالشام، (المحبي د. ت، ج١، ص ٢٤٨).

تاريخ البناء:

لم يستطع الباحثون توثيق تاريخ بناء التكية بسبب تدمير الموقع من قبل السكان، وإزالة النقش التأسيسي للتكية الذي يقع فوق الباب الرئيس للتكية، ورغم ذلك لا غنى لنا عن كتب المؤرخين وكتب التراجم، فمنهم على سيبل المثال لا الحصر:

١- يذكر المحبي تاريخ بناء التكية ببيتي شعر فيقول:

"أنشأ الوزير للوفود منهلا   لوجه مولاه إذا وافى غدا

وأنشد الوارد في تاريخه   هذا السبيل الأحمدي قد بدا"

وبعد الرجوع إلى طريقة حساب الجمل تبين ما يلي (هذا السبيل الأحمدي قد بدا).

هـ + ذ + أ + أ + ل + س + ب + ي + ل + أ + ح + م + د + ي + ق + د + ب + ب + د + أ

=٥+٧٠٠+١+١+٣٠+٦٠+٢+١٠+٣٠+١+٨+٤٠+٤+١٠+١٠٠+٤+٢+٤+١=

١٠٤٤هـ.

٢- ويقول المحبي أيضاً: " ...... عمر له (أي الشيخ أحمد العسالي) محافظ الشام أحمد باشا المعروف بكوجك المعروف أحمد الأرنودي المتوفى ١٠٤٦هـ/١٦٣٦م، عمارته بالقرب من مسجد القدم وكان ذلك في سنة خمس وأربعين وألف" (المحبي، د. ت، ج١، ص ٢٤٩). وكلمة كوجك تعني الصغير (المنجد، ١٩٤٩، ص ١١٢).

٣- وقال ابن جمعة: "وفي سنة ثمان وثلاثين وألف تولى دمشق الكوجك أحمد باشا... وفي سنة خمس وأربعين وألف، تولاها مرة ثانية.... وقتل في الحرب ضد العجم (الفرس) فأرسل شاه العجم راس الكوجك إلى دمشق، ودفن بمدفنه تجاه قرية القدم جوار الشيخ أحمد العسالي رحمه الله". (المنجد ١٩٤٩، ص ٣١-٣٣).

ومن خلال ما ذكر يتضح بأن تاريخ بناء التكية يعود إلىّ ما بين عامي (١٠٤٤هـ-١٠٤٥/ ١٦٣٤-١٦٣٥م)، وذلك استناداً إلى ما جاء به المحبي وابن جمعة.

الدراسات السابقة:

لقد وردت القليل من الإشارات التي تناولت التكية الأحمدية.

أ- المؤرخون العرب:

١- ذكر المحبي في وصف التكية حيث قال: "وكان عمر (أي أحمد باشا) بدمشق تكية خارج باب الله بالقرب من قرية القدم ووقف عليها قرى من ضواحي صيدا وبعلبك وكانت أملاكاً لفخر الدين وألحق بذلك ستين جزءاً بالجامع الأموي وتعيينات لأهالي الحرمين وبنى سبيلاً بالقرب من عمارته عظيم النفع". (المحبي. ت، ج١، ص٣٨٨).

٢- وذكر ابن عبد الهادي وصفاً أدق للمبنى بحيث قال: "للجامع واجهة حجرية على الطريق فيها الباب وشباك ضخم تحته سقاية (أي سبيل)، وإلى جانبها الأيمن شباكان وإلى طرفها الأيسر أربعة شبابيك تطل كلها على الصحن، وفوق الباب

أربع غرف علوية جعلت اليوم مدرسة ابتدائية، وصحن الجامع مفروش بالحجارة المهندمة، وفي اتجاه الباب بركة مستطيلة أمامها إيوان ذو قنطرتين من حجارة سوداء وبيضاء وحمراء، فيه محراب جميل مزخرف وإلى جانبه عودان صغيران من الرخام قد كسر أحدهما، وغلى جانبي المحراب شباكان في الجهة الغربية يقابلهما خزانتان من حجر وبجانبهما باب لغرفة يظهر أنها كانت المطبخ.

وفي شرقي الصحن بناء ضخم مثمن فوقه قبة تحتها ضريح الشيخ أحمد العسالي والواقف وستة أضرحة أخرى، وجدران الباب الداخلية مزخرفة ومرخمة ولكن رخامها تعلوه طبقة من الكلس، وفي الجهتين الشمالية والجنوبية من الصحن غرف متهدمة:" (ابن عبد الهادي ١٩٤٣، ص ٢٣٩-٢٤٠).

٣- وقد أورد الدمشقي إشارة إلى هذه التكية حيث يؤكد "دخول قضاة دمشق إلى التكية لأن هناك شرط الوقفية" في أن يوم طلوع الحاج يعمل على ضيافة الحجيج ويقوم بها متولي الخانقاة بتوزيع أنواع المشروبات المختلفة " (الدمشقي١٩٩٣، ص٣٩٤). ويعلق الدمشقي في حاشيته رقم (١) صفحة ٣٤٩ "أن الأصل هي جامع العسالي الذي عمره أحمد باشا الوزير المعروف بكوجك أحمد الأرنودي المتوفى سنة ١٠٤٦هـ/ ١٦٣٦م، حيث عمره بالقرب من قرية القدم خارج دمشق سنة ١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥م، وجعل فيها تكية ووقف عليها قرى من ضواحي صيدا وبعلبك للشيخ أحمد بن علي الحريري العسالي المتوفى سنة ١٠٤٨هـ/ ١٦٣٨م، (الدمشقي ١٩٩٣، ص ٣٩٤).

٤- الأبيش، أحمد قتيبة، الشهابي، معالم دمشق التاريخية، أشار إلى أن المسجد ينسب إلى الشيخ أحمد العسالي وأن باني هذا المسجد هو الوالي العثماني كوجك أحمد باشا في عام ١٠٤٥م، وهناك إشارة إلى وجود أضرحة للشيخ أحمد العسالي وضريح الباشا كوجك أحمد، وكذلك ستة أضرحة أخرى (الأبيش، أحمد قتيبة الشهابي، ١٩٩٦، ص ٤٠٦).

٥- وقد أشار عبد القادر الريحاوي في كتابه العمارة العربية الإسلامية لهذه التكية وأطلق عليها تسمية جامع العسالي، وقد أشار إلى موقعها ومنشئها (الريحاوي، ١٩٩٩، ص ٢٧٠-٢٧١).

٦- محمد معتصم الشياب، في دراسة قام بها لنيل الماجستير من جامعة اليرموك، بعنوان التكايا العثمانية في دمشق في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، (الشياب ٢٠٠١، ص ٦٤-٨٢).

الوصف المعماري:

أ- الواجهة الغربية (الرئيسة) (لوحة رقم ١٠):

تشرف هذه الواجهة على الشارع العام الذي يؤدي إلى منطقة العسالي، وطول هذه الواجهة يبلغ حوالي (٤٣م)، ومتوسط ارتفاعها حوالي (٤م)، وهذه الواجهة مبنية من الحجر الجيري الأبيض اللون ومدماك واحد من الحجارة البازلتية السوداء اللون، ويتصدرها سبيل للماء وحوض ماء لسقي الحيوانات، وإلى جانبه الأيسر توجد نافذتان وإلى جانبه الأيمن ثلاث نوافذ بعرض (٩٠م) وارتفاعها (١،٨٥م)، بساكف قائم على عقد عاتق، ونجد في هذه الواجهة دعامة داعمة وهي بارزة عن سمت الجدار بحوالي ٠،٨٠م. (لوحة ١١).

ب- الواجهة الشمالية:

طولها تقريباً (٣٨م)، ومتوسط ارتفاعها حوالي (٥م)، وهي مغطاة بطبقة من الإسمنت (حديثاً).

ج- الواجهة الشرقية:

طولها تقريباً (٣٣م)، ومتوسط ارتفاعها (٤م)، وهي مبنية من الحجر الجيري الأبيض.

د- الواجهة الجنوبية:

طولها حوالي (٣٥م)، ومتوسط ارتفاعها (٥م)، وهي مبنية من الحجر الجيري الأبيض.

الطابق الأرضي:

كلتة المدخل (شكل ٢):

يقع المدخل الرئيس للتكية في الزاوية الشمالي الغربية يتقدم كتلة المدخل باب يبلغ ارتفاعه حوالي (٢،٢٥م)، واتساع فتحته (١،٤٠م)، وهو مصنوع من الخشب، ويتكون من درفة واحدة، يعلو الباب عتب حجري يعلوه عقد عاتق مكون من صنج معشقة، ويعلو هذا المدخل لوحة مستطيلة الشكل لكنها أزيلت، ربما كانت تحمل النص التأسيسي للتكية.

قاعة البهو:

وهي عبارة عن دركاة مستطيلة المسقط طولها حوالي (٥،١٠م)، وعرضها حوالي (٣،٩٠م)، مغطاة بقبو متقاطع، يوجد في الجدار الجنوبي باب ارتفاعه (٢ م)، واتساعه (١،٢٥م) وعمقه (١،١٥م)، يؤدي إلى إيوان مستطيل المسقط طوله (٤،٦٠م)، وعرضه (٣،٣٠م)، سقفه مغطى بقبو برميلي مفتوح بكامل اتساعه على الصحن، يؤدي هذا الإيوان إلى الصحن المكشوف للتكية.

الصحن (الشكل ٢):

وهو عبارة عن صحن مكشوف مستطيل الشكل (٣٤م × ١٥م)، أرضية الصحن مفروشة بالحجارة الجيرية المشذبة، حيث زال معظمها ولم يبق منها إلا القليل (لوحة رقم ٤)، كما يوجد بئر ماء في الزاوية الجنوبية الغربية للصحن، يبلغ عمق البئر حوالي (٧م)، وقطر فتحته (٠،٥٥م)، ويتوسط الصحن المدفن وهو عبارة عن بناء

مثمن المسقط طول كل ضلع من أضلاعه من الخارج (٣،٧٠م)، يعلوه قبة نصف كروية (لوحة ١٢)، يقع المدخل الرئيسي لغرفة المدفن في الجهة الشمالية، يبلغ ارتفاع الباب (٢،٥م)، واتساعه (١م)، يصعد إليه بواسطة ثلاث درجات بارتفاع (٠،١٥م)، وعرض ١م)، يتصدر الجهة الجنوبية للغرفة محراب فتحته (٠،٩٥م)، وارتفاعه (٢،٢٦م)، وعمقه (٠،٦٥م)، يحيط به عمودان مدمجان في كل جانب (لوحة رقم ٦)، كما يوجد أربعة نوافذ في الجهة الغربية للغرفة، اتساع كل نافذة (١م)، وارتفاعها (١،٦٠م)، تحتوي الغرفة على سبعة قبور مدمرة، أربعة قبور وسط الغرفة (شمال جنوب)، واثنان في الجهة الشرقية، وواحد في الجهة الغربية، القبر الموجود أمام المحراب هو قبر الشيخ أحمد العسالي، والقبر الذي يليه هو قبر أحمد باشا بصيغة:

السطر الأول: "هذا قبر المرحوم أحمد باشا الوزير

السطر الثاني: "كافي المملكة الشامية وقاهر...".

الإيوان الجنوبي يقع في الزاوية الجنوبية الغربية للصحن، وهو مستطيل المسقط عرضه (٥،٩٠م شرق - غرب)، وطوله (٦،٧٥م شمال جنوب)، وفي صدر جداره الجنوبي محراب اتساع فتحته (١م)، وارتفاعه (١،٩٥م)، وعمقه (٠،٥٥م)، يتقدمه عمودان مدمجان في كل جانب، يحيط بالمحراب نافذتان من كلا الجانبين عرض النافذة (٠،٨٥م)، وارتفاعها (١،٧٠)، كما يتصدر الجدار الغربي للإيوان خزانتين عرض كل منهما (١،١٠م)، وارتفاعها (١،٧٠م)، كذلك الحال بالنسبة للجدار الشرقي، سقف الإيوان مستو قائم على عقدين مدببين منفوخي الأكتاف، وأرضية الإيوان مرتفعة عن أرضية الصحن بمقدار (٠،٣٠م)، وهي مكسية بالحجارة الجيرية. ومن المرجح أن هذا الإيوان قد استخدم كمصلى وذلك لوجود المحراب في وسط جداره الجنوبي.

غرف التكية (شكل ٢):

تقع هذه الغرفة في الجهتين الجنوبية والشمالية للصحن، تتكون من تسعة غرف وقد تم ترتيبها وترقيمها من الجنوب إلى الشمال (انظر الشكل ٢).

الغرفة رقم (٣): وهي غرفة مستطيلة المسقط، طولها (٦،٧٥م شمال – جنوب)، وعرضها (٤،٢٥م شرق غرب)، يتم الدخول إلى الغرفة عبر الباب الرئيس للغرفة والذي يقع في الجهة الغربية من الإيوان الجنوبي اتساع فتحته (٠،٩٢م)، وارتفاعه (٢،٠٠٥م)، وعمقه (١،٢٥م)، يعلوه عتب مسطح وعقد عاتق تحتوي الواجهة الرئيسة للغرفة على نافذة اتساعها (٠،٦٥م)، وارتفاعها (١،٥٣م)، ذات عتب مسطح، سقف الغرفة مسطح، ويتصدر الجدار الجنوبي للغرفة نافذة اتساعها (٠،٩٧م)، وارتفاعها (٢،١٠م)، كما يتصدر الجدار الشرقي نافذتين عرض كل منها (٠،٩٠م)، وارتفاعها (١،٥٠م).

الغرفة رقم (٤): يؤدي الباب إلى غرفة مستطيلة المسقط تقريباً طولها (٤،٦٠م شمال– جنوب)، وعرضها (٤م شرق – غرب)، ذات سقف مسطح، يتصدر الجدار الجنوبي للغرفة نافذة اتساعها (٠،٦٠م)، وارتفاعها (١،٦٠م)، ربما كان استخدام هذه الغرفة لخزن المؤن لأنها مجاورة للمطبخ الذي سوف يتم ذكره لاحقاً. وتحتوي الواجهة الرئيسة للغرفة على نافذتين اتساع كل منها (٠،٨٥م)، وارتفاعه (١،٨٠م)، وعمقه (٠،٩٠م)، يقوم على عتب مسطح يعلوه عقد عاتق.

الغرفة رقم (٥): يؤدي الباب الذي يتوسط النافذتين الباب الرئيس للغرفة الذي يبلغ اتساع فتحته (٠،٩٥م)، وارتفاعه (١،٨٠م)، وعمقه (٠،٩٠م)، وعتب الباب مسطح، وإلى غرفة مستطيلة المسقط عرضها (٤،٧٠م شمال جنوب)، وطولها (٧،١٠م شرق غرب)، سقف الغرفة متهدم، يتصدر الجدار الجنوبي للغرفة موقد نار عرضه (١،٠٥م)، وطوله (٣،٣٥م)، مفرع من الداخل، كما يتصدر الجدار الشرقي للغرفة مدخل اتساعه (٢م)، على شكل عقد نصف دائري يؤدي إلى غرفة (غرفة رقم ٦).

تحتوي الواجهة الرئيسة للغرفة على نافذتين اتساع كل منهـا (٠،٨٠م)، وارتفاعهـا (١،٤٧م)، ذات عتب مسطح.

الغرفة رقم (٦): يؤدي الباب الرئيس الذي يبلغ اتساع فتحتـه (٠،٩٠م)، وارتفاعـه (١،٧٠م)، وعمقه (٠،٩٠م)، والمعقود بعقد مدبب منفوخ، إلى غرفة صغيرة مستطيلة المسقط طولها (٢ م شمال –جنوب)، وعرضها (٢،٤٠م شرق غرب)، سقف الغرفـة مستو، ربما كانت تستخدم كمرفق صحي.

الغرفة رقم (٧): تقع هذه الغرفة في الزاوية الشمالية الشرقية من الصحن،ـــ وهـي عبارة عن غرفة مستطيلة المسقط طولها (٨،٤٠م شمال–جنوب)، وعرضها (٥،٥٥م شرق غرب)، يتم الدخول إلى الغرفة عبر الباب الـرئيس للغرفـة فتحتـه (٠،٩٠م)، وارتفاعه (١،٩٠م) وعمقه (١م)، يعتمد على عقد عاتق، والغرفة ذات سقف مسـطح تحتوي الواجهة الرئيسة للغرفة على نافذة اتساعها (١م)، وارتفاعهـا (١،٦٥م)، ذات عتب مسطح، يتصدر الجدار الجنوبي للغرفة محـراب فتحتـه (٠،٨٨م) وارتفاعـه (٢،١٠م)، طاقيته عقد مدبب منفوخ، يحيط بالمحراب من كلا الجانبين نافذتان اتسـاع كل منها (٠،٩٠م)، وارتفاعها (١،٦٥م)، ربما كان استخدام هذه الغرفة للتـدريس أو لاستخدامها أوقات الصلاة.

الغرفة رقم (٨): يؤدي الباب الرئيس للغرفـة الـذي فتحتـه (٠،٨٠م)، وارتفاعـه (١،٩٠م)، وعمقه (١م)، يعتمد على عتب مسطح عقد عـاتق يـؤدي إلـى الغرفـة المستطيلة المسقط طولها (٣،٣٠م شمال – جنوب)، وعرضها (٣،٣٠م شرق غرب)، في الواجهة الرئيسة للغرفة اتسـاعها (٠،٧٥م)، وارتفاعهـا (١،٢٥م)، ذات عتـب مسطح.

الغرفة رقم (٩): وفي صدر الغرفة من الجهة الشمالية باب آخر للتكية اتساع فتحتـه (١م)، وارتفاعه (١،٩٠م)، يعتمد على عتب مسطح، كما يعلو الباب نافـذة صـغيرة اتساعها (٠،٤٠م)، وارتفاعها (٠،٥٥م)، يؤدي الباب إلى دركـاة مسـتطيلة المسـقط

طولها (٤،٥٠م شمال – جنوب)، وعرضها (٣،٣٠م شرق غرب) مغطاة بقبو برميلي، ويتصدر الجدار الجنوبي لها الباب الخارجي، اتساع فتحته (١،٥٠م)، وارتفاعه (٢،٦٠م)، وعمقه (١،١٠م)، يعتمد على عتب مسطح، وهذا الباب والجدار الجنوبي مضافة في مرحلة ما لأن الغرفة كانت في الأصل مدخلاً فلا يمكن أن تكون غرفة مع ملاحظة أن سماكة هذا الجدار مختلفة مع باقي جدران التكية، كما يتصدر الجدار الغربي خزانة فتحتها (٠،٨٥م)، وارتفاعها (١،١٥م).

الغرفة رقم (١٠): يؤدي الباب الذي يوجد في الواجهة الجنوبية للغرفة الذي فتحته (٠،٨٥م)، وارتفاعه (١،٧٠م)، وعمقه (١م)، يعلوه عتب مسطح يعلوه عقد عاتق، إلى غرفة مستطيلة المسقط طولها (٣،٦٠م شمال – جنوب)، وعرضها (٣،٣٠م شرق – غرب)، وفي الواجهة الرئيسة للغرفة نافذة اتساعها (٠،٩٠م)، وارتفاعها (١،٦٠م)، يعتمد على عتب مسطح يعلوه عقد عاتق، يتصدر الجدار الغربي للغرفة خزانة فتحتها (٠،٩٠م)، وارتفاعها (١،١٠م)، وعمقها (٠،٣٥م)، والغرفة ذات سقف مسطح.

الغرفة ثم (١١): يؤدي الباب الذي يوجد في الواجهة الجنوبية الذي يعتمد على عقد عاتق، اتساع فتحته (٠،٩٥م)، وارتفاعه (١،٨٠م)، وعمقه (١م)، والغرفة مستطيلة المسقط، طولها (٣،٣٠م شمال – جنوب)، وعرضها (٣،٣٠م شرق غرب)، ذات سقف مسطح، تحتوي الواجهة الرئيسة للغرفة على نافذة اتساعها (٠،٨٠م)، وارتفاعها (١،٥٣م)، ذات عتب مسطح، وإلى يسار الغرفة باب آخر يؤدي إلى غرف الطابق الأول،. ربما كان استخدام الغرف (٨، ١١، ٩)، لمبيت أتباع الطريقة الخلوتية، أو طلاب العلم لصغر حجم هذه الغرف، ولاتخاذها شكل وقياس واحد.

الطابق العلوي (شكل ٣) (لوحة رقم ١٠):

تقع هذه الغرف في الجهة الشمالية والغربية للصحن، يضم الطابق الأول أربع غرف تقع في الجهة الشمالية للمبنى، ويصعد إليها من خلال باب يقع بين الغرفتين ١١ و

١٢، اتساع فتحة الباب (١،٠٠٥م)، وارتفاعه (٢م)، ودرج صاعد يتكون من تسعة عشرة درجة تؤدي إلى الطابق الأول عرض الدرجة (١،٣٠م)، وارتفاعها (٠،٢٠م).

الغرفة رقم (١):

تقع هذه الغرفة في الزاوية الشمالية الغربية، وهي غرفة مستطيلة المسقط، طولها (٦،١٠م) شمال –جنوب)، وعرضها (٥،٥٥م شرق – غرب)، ذات سقف مسطح، في الواجهة الرئيسة للغرفة الباب الرئيس للغرفة اتساع فتحته (٠،٦٠م)، وارتفاعه (٢،١٥م)، وعمقه (٠،٧٥م)، ذو عتب مسطح، يتصدر الجدار الجنوبي للغرفة محراب اتساع فتحته (١،١٠م)، وارتفاعه (٣م)، طاقيته على شكل عقد مدبب منفوخ، تحتوي الجدران (الغربية الجنوبية)، على ثمان نوافذ اتساع كل منها (٠،٩٠م)، وارتفاعها (١،٩٠م)، متوجة بعقود موتورة، خمسة نوافذ في الجهة الغربية يعلوها نافذة صغيرة ونافذتان في الجهة الجنوبية، ربما يمكن استخدام هذه الغرفة للتدريس أو لاستخدامها أوقات الصلاة وذلك لوجود محراب فيها، وهذا ما أكده ابن عبد الهادي: "..........وفوق الباب أربع غرف علوية جعلت اليوم مدرسة ابتدائية" (ابن عبد الهادي ١٩٤٣، ص ٢٣٩–٢٤٠).

الغرفة رقم (٢):

هي عبارة عن غرفة مستطيلة المسقط عرضها (٢،٨٠م شمال – جنوب)، وطولها (٥،٥٥م شرق – غرب)، ذات سقف مسطح، وفي الواجهة الرئيسة للغرفة باب رئيس للغرفة اتساع فتحته (٠،٩٠م)، وارتفاعه (٢،١٥م)، وعمقه (٠،٧٥م)، يعلوه عتب مسطح، يحتوي الجدار الجنوبي والجدار الغربي على أربعة نوافذ اتساع كل منها (٠،٩٥م)، وارتفاعها (١،٩٠م)، كما يتصدر الجدار الجنوبي خزانة أخرى عرضها (١،٦٥م)، وارتفاعها (٢،٦٠م).

الغرفة رقم (٣).

وهي عبارة عن غرفة مستطيلة المسقط طولها (٦،٧٠م شرق – غرب)، وعرضها (٥ م شمال – جنوب)، وفي الواجهة الرئيسة للغرفة باب الغرفة الذي يبلغ اتساع فتحته (٠،٩٠م)، وارتفاعه (٢،١٥م)، وعمقه (٠،٧٠م)، يعلوه عتب مسطح، وللغرفة أربعة نوافذ اتساعها (٠،٩٥م)، وارتفاعها (١،٩٠م).

الغرفة رقم (٤):

يؤدي الباب إلى غرفة مستطيلة طولها (٤م شمال – جنوب) ، وعرضها (٣،٥٠م شرق – غرب)، ذات سقف مستو. وفي الواجهة الرئيسة للغرفة باب الغرفة الذي فتحته (٠،٩٥م)، وارتفاعه (١،٩٠م)، وعمقه (٠،٧٥م)، يعتمد على عتب، تحتوي الجدران (الجنوبية والغربية والشمالية) على أربعة نوافذ اتساع كل منها (٠،٩٥م)، وارتفاعها (١،٩٠م)، ويتصدر الجدار الشرقي خزانة عرضها (١،٤٥م)، وارتفاعها (١،٨٥م).

الترميمات:

تقوم حالياً وزارة الأوقاف السورية بترميم التكية وقامت بإغلاق الموقع من أجل ذلك، ولذلك لم أستطع تصوير هذه التكية من الداخل حيث منعنا من التصوير.

المصادر والمراجع

(١) الأبيش، أحمد قتيبة، الشهابي، **معالم دمشق التاريخية**، منشورات وزارة الثقافة السورية ، دمشق، ١٩٩٦.

(٢) ابن عبد الهادي، يوسف، **ثمار المقاصد في ذكر المساجد**، تحقيق محمد أسعد طلس، بيروت، ١٩٤٣.

(٣) الباشا، حسين، **مدخل إلى الآثار الإسلامية**، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٩.

(٤) الدمشقي محمد بن عيسى بن كناب الصالحي، **المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية**، تحقيق ودراسة حكمت إسماعيل ومحمد المصري، وزارة الثقافة، إحياء التراث العربي، دمشق، ٢ جزء.

(٥) ردخاص، جمس، **قاموس معاني لهجة**، بيروت، ١٩٧٤.

(٦) الريحاوي، عبد القادر، **العمارة في الحضارة الإسلامية**، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، ١٤١٨. **العمارة الإسلامية (خصائصها وآثارها في سورية)**، دار البشائر للطباعة والنشر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٩٩.

(٧) الشطي، محمد جميل، **أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ونصف القرن الرابع عشر** (١٢٠١-١٣٥٠هـ)، الطبعة الثانية، المكتب الإسلامي للنشر ١٩٧٢.

(٨) شافعي، فريد، **العمارة العربية في مصر الإسلامية (عصر الولاة)**، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧٠.

(٩) الشهابي، قتيبة، **معجم دمشق التاريخي**، منشورات وزارة الثقافة السورية، ج١، دمشق ١٩٩٩.

(١٠) الشياب، محمد معتصم، **التكايا العثمانية في دمشق في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، إربد، ٢٠٠١.

(١١) شيحة، مصطفى، **الآثار الإسلامية في مصر من الفتح حتى نهاية العصر الأيوبي**، مكتبة النهضة ، القاهرة، ١٩٩٢.

(١٢) صدقي، محمد كمال، **معجم المصطلحات الأثرية**، مطابع جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٨٨.

(١٣) عثمان، محمد عبد الستار، **المدينة الإسلامية**، مجلة عالم المعرفة، العدد ١٢٨، الكويت ١٩٨٨.

(١٤) العلموي، عبد الباسط، **مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدارس إلى أحوال دور القرآن والحديث والمدارس**، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبوعات مديرية الآثار القديمة العامة، دمشق ١٩٤٧.

(١٥) علي باشا، محمد، **الرحلة الشامية** (في رحلته التي بدأت عام ١٣٢٨هـ)، بيروت ١٩٨١.

(١٦) فرغلي، أبو الحمد، **الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية** والقبطية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٣.

(١٧) ماهر، سعاد، **مساجد مصر وأوليائها الصالحون**، ٥ أجزاء، مطبعة المجلس الأعلى لشؤون الإسلامية، القاهرة، ج٥، ١٩٧٣.

(١٨) المحبي، محمد المتوفى ١١١٠هـ. د. ت، **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، أربعة أجزاء، دار صادر، بيروت.

(١٩) محمد غازي، **العمارة العربية في العصر الإسلامي في العراق** وزارة التعليم العالي، جامعة بغداد، ١٩٨٩.

(٢٠) مصطفى، صالح لمعي، **التراث المعماري الإسلامي في مصر**، بيروت، ١٩٧٥.

(٢١) المنجد، صلاح الدين، **ولاة دمشق في العهد العثماني**، المجمع العلمي للغة العربية، دمشق، ١٩٤٩.

(٢٢) الولي، الشيخ طه، **المساجد في الإسلام**، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٨.

(٢٣) Laoust, Henri, les Gouverneurs de Damas sous les Mamlouk et Les Premiers Ottomans (658-1156/1260-1744, Traduction de Annales. DIbn Tulun et d'Ibn Gum'A , Instiut Francais de Damas, Damas, 1952.

صورة الغرباء المغاربة في مصر والشام خلال عصر الحروب الصليبية

الدكتور نواف عبد العزيز الجحمة
كلية التربية الأساسية
الهيئة العامة للتعليم التطبيقي
الكويت

مقدمة:

تسعى هذه الدراسة إلى إبراز جوانب من الاتصال والتواصل الذي كان قائماً بين المغرب والمشرق (مصر والشام نموذجاً)، خلال عصر الحروب الصليبية، بالتركيز على ردود الأفعال المشرقية على الصعيدين الرسمي والشعبي إزاء العطاءات والإسهامات المغربية – التي تتعلق أساساً بالمجالين العسكري والمدني اللذين تميز بهما المغاربة الوافدون على المشارقة.

وتجدر الإشارة إلى أنه سنصب اهتمامنا في البحث على موضوع فئة الغرباء المغاربة المتواجدة في بلاد مصر والشام تحديداً، آملين أن تسهم في إلقاء بعض الضوء على جانب طالما أغفله المهتمون بدراسة العلاقات الحضارية والاجتماعية، وقبل أن أدخل في صلب الموضوع، أود أن أوضح بعض النقاط التي قد تثار حولها تساؤلات!

- فماذا تعني بـــ (الغرباء) و(المغاربة) - في هذه المدة (زمن الحروب الصـــليبية)، وفي ظل كل من الأيوبيين والمماليك.

إننا نستعمل كلمة (الغرباء) للدلالة على النوى والبعد، قال ساعدة بن جؤيّة وهو يصف سحاباً:

ثم انتهى بصري وأصبح جالساً فيه لنجدٍ، طائف متغرّب

وقيل: متغرب عنا أي من قبل المغرب.

وقال المتلمّس:

ألا أبلغا أفناءً سعد بن مالكٍ رسالة قد صار، في الغُربِ، جانبهُ

والاغتراب والتغرب كذلك، نقول منه وقد غرّبه الدهر، والغريب هو البعيد عن وطنه، والغرباء (= الأباعد)[١].

أما عن مفهوم مصطلح (الغرباء) في المنظور العقدي، فقد أورد الشـــيخ ابـــن القـــيم الجوزية في كتابه مدارج السالكين في (باب الغربة) أحاديث نبوية شـــريفة - فعلـــى سبيل المثال - عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن أحـــب شيء إلى الله الغرباء، قيل: ومن الغرباء؟ قال: الفرارون بدينهم، يجتمعون إلى عيسى ابن مريم عليه السلام يوم القيامة".

وفي حديث آخر: "بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء وقيـــل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يحيون سنتي ويعلمونها الناس".

ومن هؤلاء الغرباء: من ذكرهم أنس في حديثه عن النبي صلى الله عليه وســـلم: "رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبرّه".

ويعلق مؤلف هذا الكتاب فيقول: (هؤلاء الغرباء الممدوحون المغبوطون، ولقلتهم فـــي الناس، سموا غرباء)[٢].

ومما تجدر الملاحظة به – أن أغلب الإشارات الواردة في استعمال كلمة (الغرباء) كانت في مدونات كتب رحلات الحج المغربية (ابن جبير، وابن بطوطة مثلاً)، وقد جاءت مقرونة بالجالية المغربية والأندلسية الوافدين على المشرق العربي، وذلك لكثرة المرافق الموقوفة على الغرباء وعامة المغاربة وخاصة في بلاد مصر والشام. أما معنى كلمة (مغاربة) – فهي للدلالة على أعلام الغرب الإسلامي برمته، أي منطقة المغرب (المغرب، وتونس، والجزائر)، والأندلسي. وهذا الاستعمال الواسع لكلمة (مغربي) نجد تسويغه في كونه سيتماشى وما كان يقصده الرحالة والمؤرخون العرب الذين ترجموا أو كتبوا عن الأعلام الأندلسية والمغربية في بلاد المشرق). فالمصادر لا تقيم تمييزاً واضحاً بين الأندلسيين والمغاربة (مغاربة المغرب الأقصى)، ولا بين هؤلاء وسكان المغربين الأوسط والأدنى. ويبدو أن جميع الذين جاؤوا من الأندلس أو من أقطار المغرب قد عرفوا بـ (المغاربة) بشكل عام بالنسبة للمشارقة على مختلف فئاتهم[٣]، والمغاربة الذين نتقصّى أخبارهم، هم الذين وجدناهم مشاركين تحت إمرة العساكر الأيوبية والمملوكية، أو المقيمين بالمرافق الموقوفة عليهم في الديار المصرية والشامية، أو المجاورين ببيت المقدس، أو المتوجهين لقضاء مناسك الحج.

أما الطريقة التي سلكتها في إنجاز عناصر هذا العمل، فتتخلص في التصميم الآتي:

١– أسباب تنقل ونزوح المغاربة إلى مصر والشام.

٢– صور من إسهامات المغاربة في مصر والشام – وأثرها على الصعيدين الرسمي والشعبي.

٣– استنتاجات وملاحظات.

١– أسباب تنقل ونزوح المغاربة إلى مصر والشام:

إن الدارس المتأمل في تاريخ المغرب الإسلامي يلفت النظر بشدة ظاهرة التنقل والترحال لدى المغاربة والأندلسيين، حيث كانت أغلب رحلاتهم تيمم وجهها شطر

المشرق والأماكن الإسلامية المقدسة، فعلى الرغم من وقوع بلادهم في أقصى الغرب الإسلامي، فإنهم كانوا يتجشمون كل وعر في البر أو البحر بغية قصد زيارة الأماكن المقدسة بالحجاز أو فلسطين وأداء مناسك الحج، والنهل من منابع العلم المشرقية، ولذلك (كان الشوق إلى الرحلة مثيراً لفن من التراسل الطريف، إذا كانت رحلات الأندلسيين تحملهم في الغالب إلى الديار المقدسة)(٤).

كما كان للعلاقات الطيبة بين المشرق والمغرب في تلك المدة الزمانية، وانعدام ما يصطلح على تسميته – بالحدود السياسية في عصرنا هذا، توفر وسائل المواصلات البرية والبحرية على الرغم مما يحدث بها من أهوال دور في تعزيز هذا التواصل، حتى ليظهر أن تواصل المشارقة مع المغاربة والأندلسيين وقتئذٍ كان أشد كثافة مما هو عليه الآن(٥).

ومن شأن هذا الواقع الاجتماعي أن يعمل على تقوية شعور المغاربة والأندلسيين بأصلهم العربي الإسلامي، على الرغم من كونهم محاطين بأمم أعجمية.

كانت هذه أهم النقاط التي حثت المغاربة والأندلسيين على سلوك النهج الرحلي خلال حقبة ما قبل موضوع هذا البحث، إلا أنه هناك أسباباً أخرى لم تذكرها بعض المصادر(٦). ومع ذلك نستطيع استقراءها للوصول إلى الظروف والتطورات التي تستوقفنا عند تفضيل أشكال التنقل وأسبابه. وهنا نود أن نتساءل: ما الذي حدث على الساحة المغربية والأندلسية حتى لجأت فئة من أهليها إلى مصر والشام، وما أهم عوامل الجذب والاستقطاب التي شجعت على استقبال النازحين وتوافقت مع تطلعات القادمين في تلك الحقبة التاريخية.

إذا ما حاولنا رصد الآراء في شأن الدوافع والبواعث التي حملت المغاربة والأندلسيين على النزوح عن وطنهم في عصر الحروب الصليبية، أمكننا القول إنها تتجلى فيما يلي:

١- حالة الاضطراب النفسي السياسي والتشتت الداخلي من جراء الانقسامات التي ارتبطت بسقوط الخلافة الأموية، وظهور ما يعرف بـ (دويلات ملوك الطوائف) في القرن الخامس الهجري/١١ الميلادي، وما نتج عن ذلك من آثار وخيمة على معظم سكان أهل الأندلس.

٢- حركة الاسترداد الأسبانية التي انتهت في الاستيلاء على المدن العربية الأندلسية في سنة ٦٥٩/١٢٦١م، وما ترافق معها من إجراءات قاسية منظمة أجبرت أعداداً كبيرة من الأندلسيين على الهجرة منها إلى غير رجعة[٧]، وهذا ما نلحظه من خلال تتبع الهجرات باتجاه بلاد المغرب وبقية أقطار المشرق العربي.

٣- ظهرت كيانات ذات صبغة عقدية مختلفة حكمت الأندلس بعد شلل دول الطوائف في نهاية الأمر على نحو معهد لسقوطها بصورة حتمية وهما: الدولة المرابطية (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) إلى (٥٤١هـ/ ١١٤٦م)، ثم الدولة الموحدية (٥٤١هـ/ ١١٤٦م) إلى (٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م)، وهذا التبدل في الدول رافقه بطبيعة الحال تبدل فكري، ويبدو بعد اتساع الفجوة بين الدول الحاكمة والمعارضين بسبب سوء الأوضاع الداخلية بالأندلس من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية، مما كان له الأثر من نزوح وهجرات إلى أقطار مشرقية أخرى[٩].

٤- حالة الفوضى والاضطرابات السياسية المقرونة بظاهرة طغيان المد العشائري (قبائل بني هلال وبني سليم) إلى إفريقية، وما نتج عن ذلك من وقوع التخريب والتدمير في المؤسسات العمرانية، ثم كذلك ما قام به ملوك صقلية النورمانية من اضطهاد الصقليين والمسلمين في الجزيرة، وبسط سيطرتهم على مدن ساحل إفريقية عام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م، وقد ترجم هذا الوضع النفسي إلى الهجرة إلى بلاد المغرب والمشرق العربيين.

٥- أما السبب الأخير، فيتجلى في التقديس للتراث المشرقي والتهافت على الارتواء من منابعه مردّه أن المشارقة - كما كان ينظر إليهم أهل الأندلس- أحاطوا بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم وما روى عنه[١٠]، والاعتقاد بأنهم لن يفيدوا علماً ولا فكراً من مسيحيي الأندلس (الغوط) أهلها الأصليين لكونهم حسب اعتقادهم أهل جهل وجهالة وليسوا أهل علم وحضارة، وهذا ما نلحظه في قراءة واقع التاريخ الأندلسي.

أما أهم العوامل الإيجابية (=عوامل الجذب والاستقطاب) التي تجسدت في بلاد مصر والشام وبنصيب أوفر، يمكن عرضها وتلخيصها على الشكل التالي:

١- بلاد الشام:

إن مصر تقع على الطريق الرئيس لحجاج المغاربة والأندلسيين القاصدين أرض الحجاز للحج أو المجاورة، ولوفرة الإمكانات الاقتصادية، التجارة والصناعة والزراعة، وهذا ما أكده لنا الرحالة بنيامين التطيلي الأندلسي الذي زار مصر خلال النصف الأول من القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، يقول في وصفه: "وبالإجمال ليس في العالم كله بقعة آهلة السكان، كثيرة الزروع مثل مصر الواسعة، المليئة بالخيرات"[١١].

ثم يمضي فيذكر حركة النشاط التجاري بمرفأ الإسكندرية، فيقول: "وإسكندرية بلدة تجارية فيها أسواق لجميع الأمم، يؤمها التجار من الممالك النصرانية كافة (....) وتأتيها من الهند التوابل والعطور بأنواعها فيشتريها النصارى.

ولتجار كل أمة فندقهم الخاص بهم، وهم في ضجة وجلبة يبيعون ويشترون"[١٢]. ربما أن مصر كانت تشغل دور الوساطة في التجارة العالمية في تلك المدة التاريخية.

تعدّ مدينة الإسكندرية رباطاً إسلامياً كبيراً، لذا أجلبت سيـ ـمجاهدين والأخلاقيين المغاربة الذين ألفوا الرباطات في بلادهم، واتخذوها مراكز يزاولون فيها التعبّد والجهاد[١٣].

كما لاقى المغاربة في مصر كل العناية والحفاوة والتكريم على كل الصعد (الرسمية والشعبية) منذ أيام حكم نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي[١٤]. حتى نهايات الدولة المملوكية.

الثانية[١٥]، وقد شيدت المدارس والزوايا والرباطات والأروقة في المساجد باسم المغاربة، وهنا تبين كثقافة الوجود المغربي الأندلسي بين أواخر القرن السادس الهجري، وهي مدة ازدهار العطاءات المغربية.

نقل مركز الخلافة العباسية إلى مصر منذ أوائل النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ ١٣م، جعل مصر على قدر كبير من الأهمية من الناحية السياسية والدينية ومهجراً من المهاجر العالمية من تاريخ العصر الوسيط.

٢ـ بلاد الشام:

وجد المغاربة من الغرباء في بلاد الشام أرضاً صالحة تقيهم شر العوز والحاجة وتخفف عنهم مرارة الشوق والبعد عن الأوطان مما ساعدهم على الاستقرار مع شعور عارم بالطمأنينة والسكينة، فلقد أحبهم أهل الشام وحكامها، أكرموا مثواهم وأحسنوا منزلتهم وأعلو قدرهم، واختصوهم بكل عناية ورعاية على مختلف فئاتهم[١٦].

ـ انتقال الحركة العلمية من بغداد إلى دمشق من جراء التخريب التتري لبغداد في النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ ١٣ الميلادي، كان له الأثر في تكاثر المدارس وزيادة الطلب على المدرسين والعلماء فكان نصيب المغاربة كبيراً إلى حد ما، خصوصاً وأن التدريس بالمدارس كان مقابل رواتب كبيرة. وتعدّ إجازات أعلام

دمشق لأبي عبد الله اللواتي (ابن بطوطة) التي أثبتها بالسماع والسّند المصطلح عليه مسألة متفردة في الرحلة[١٧]، من المحتمل أن الجو العلمي بدمشق كان إغراؤه في حرص أحاب الرحلة على أن ينال هذا الفضل، في حين أن رحلته امتازت بالطابع الاجتماعي في القرن الثامن الهجري.

- عدّ المغاربة والأندلسيون فلسطين وبيت المقدس الشريف من أهم مدن العرب والإسلام في العصر الوسيط وبخاصة في أثناء الاحتلال الصليبي، وتكونت هذه القدسية من خلال الكتاب والأحاديث النبوية الشريفة رواج أدب من نوع جديد هو أدب تقديس الأماكن المقدسة[١٨].

- إن الأسس الاقتصادية المعتمدة من تجارة مزدهرة وصناعات رائجة وزراعات متنوعة، قد شكلت دافعاً لتوافد المغاربة بمجاميع كبيرة العدد تمحور وجودها في المدن الكبرى في الشام، ولاسيما بمدينة دمشق وقد علت شهرتهم على صعيد الأمانة والجد والإخلاص وهذا ما جعل الطلب عليهم شديداً في أغلب الأحايين من قبل المسؤولين والتجار وأرباب الحرف والمهن في الدولة.

٢- صور من إسهامات المغاربة في مصر والشام - وأثرها على الصعيدين (الرسمي والشعبي):

شارك المغاربة في جميع المجالات ، وتركوا آثاراً حضارية عالية المستوى فقد حملوا لواء المشاركة في كل فرع من فروع الحياة الهامة، إلا أن مجالات أخرى ترجمت الإسهامات المغربية التي يجب أن تطلب في المنجزات العسكرية والمدنية أكثر مما تطلب في سواها من الاختيارات الأخرى، ما دامت الإسهامات المغربية هي الأبرز في جانب الجهاد والتخلق والخدمة في أي جانب آخر في حقبة عصر الحروب الصليبية.

١ – المشاركة العسكرية:

عندما قامت الحركة الصليبية التي تمثل هجوماً أوروبياً استعمارياً على المشرق العربي، وتكوين إمارات صليبية في شمال الشام والجزيرة ثم انتزاع بيت المقدس الشريف من أيدي الفاطميين، وجدنا صحوة مشرقية قادها نخبة من رجال استحقوا الإشادة التاريخية – أمثال عماد الدين الزنكي وابنه نور الدين محمود، ثم القائد صلاح الدين الأيوبي الذي تمّ على يديه سقوط الدولة الفاطمية في مصر وتحرير بيت المقدس. وقد رحب هؤلاء الحكام بجميع المغاربة بين الغرباء الوافدين على المشرق، ذلك لأنهم يتمتعون بمزية، في قيادة السفن الملاحية والحربية، وبناء الأساطيل، واختراع بعض الأسلحة الفعالة[١٩]، ويبدو أن خبرة المغاربة في مواجهة الحكم الفاطمي أثناء تسلطه على بلاد المغرب قبل أن يحول وجهه إلى مصر، والتجربة المرابطية التي جمعت بين الجهاد والمجاهدة كانت حاضرة في أذهان الأيوبيين.

كيفما كان الأمر، فإن المصادر التي أشادت بالدور الذي شغله المغاربة عسكرياً تضن بمعلوماتها، وكل ما نجده إشارات نصية في سياق أخبار أخرى وردت في كتب التراجم والرحلات، لكن لهذه الإشارات أهميتها البالغة في تصوير التضحيات الكبيرة والسخية التي قدموها على مدى سنين طويلة. ولعل أول من يسعفنا هو شاهد عيان زار مصر والشام في سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٤م، ألا وهو الرحالة ابن جبير الأندلسي[٢٠]. فهو ينص على أن البحريين المغاربة شاركوا في مهاجمة الصليبيين عند عيذاب، ذلك أن هؤلاء كانوا عازمين على دخول مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، وإخراجه من الضريح المقدس، ولم يكن بينهم وبين المدينة أكثر من مسيرة يوم، ويقول ابن جبير: "فدفع الله عاديتهم بمراكب عمرت من مصر والإسكندرية دخل فيها الحاجب المعروف بلؤلؤ[٢١] مع أنجاد[٢٢]، المغاربة البحريين، فلحقوا بالعدو وهو قد قارب النجاة بنفسه فأخذوا عن آخرهم (....)، وقتلوا وأسروا وفرق من الأسرى على البلاد ليقتلوا بها ووجه منهم إلى مكة والمدينة. تتفق أقوال المؤرخين[٢٤]، مع ما ذكره

ابن جبير في تلك الحادثة الشهيرة، إلا أنها تبقى من العوامل التي أدت إلى توطيد مركز صلاح الدين وذيوع صيته، في المشرق والمغرب، وكذلك اكتمال سيطرته السياسية والعسكرية على البحر الأحمر. لكن هذا النجاح ما كان له أن يتم إلا عن طريق مشاركة المغاربة البحريين في الأسطول المصري.

ولعل أكبر إشادة بخصوصية المغاربة بالخبرة في سلاح البحرية في تلك الحقبة هو ما ترويه المصادر من أن صلاح الدين يطلب المساعدة من الموحدين بعد عام ٥٨٥هـ، وذلك حينما شرع بوفد على رأسه سفيره عبد الرحمن بن منقذ إلى عاهل المغرب يعقوب المنصور الموحدي يطلب منه المساعدة البحرية لمنازلة ثغور الصليبيين بالشام[٢٥]. وعلى الرغم مما قيل من أن المنصور برفض طلب صلاح الدين لأنه لم يلقبه بأمير المؤمنين، فقد ذكر المؤرخ ابن خلدون: "وانتهت أساطيل المسلمين على عهده في الكثرة والاستنجاد ما لم تبلغه من قبل ولا من بعد فيما عهدنا"[٢٦].

كما تتضح من مجموعة النصوص الأخرى التي تحتوي عليها رحلة ابن جبير علو مقام أسرى المغاربة لدى السلطان نور الدين زنكي، لما قاموا به من مشاركات عسكرية في جهاد الصليبيين، فقد بلغ اهتمام نور الدين بأمر المغاربة القادمين إلى الشام حداً وصل إلى أنه فضلهم على أهل البلاد المحليين، إذ يروي ابن جبير عنه، أنه اهتم بفك الأسرى منهم قبل أسرى الشام بقوله:

وقد كان نور الدين رحمه الله، نذر في مرضه إن شفي من إصابته تفريق اثني عشر ألف دينار في فداء أسرى المغاربة، فلما استبرأ من مرضه، أرسل في فدائهم، فسيق فيهم فريق نفر ليسوا من المغاربة، وكانوا من حماة من جملة عمالته، فأمر بصرفهم وإخراج عوض عنهم من المغاربة، وقال: "هؤلاء يفكّهم أهلوهم وجيرانهم والمغاربة غرباء لا أهل لهم"[٢٧].

ولم يقتصر أمر افتكاك الأسرى على السلطان نور الدين والأمراء والخواتين (الأميرات)، إذ يحدثنا ابن جبير كذلك عن تاجرين من مياسر التجار بدمشق

وأغنيائهم، أحدهما يدعى نصر بن قوام، والآخر أبو الدر ياقوت (نصبهما الله عزّ وجلّ لافتكاك الأسرى المغربيين بأموالهما وأموال ذوي الوصايا...، لأنهما المقصودان كما قد اشتهرت من أمانتهما وثقتهما وبذلهما في هذا السبيل، فلا يكاد مغربي يخلص من الأسر إلا على أيديهم)[٢٨].

إضافة إلى ذلك – عند زيارة ابن جبير حصن تبنين – ذكر السبب في الإجراء العدائي الذي اتخذه الصليبيون ضد كل مغربي يجتاز بلادهم إلى أقطار أخرى من دون غيرهم من أبناء الإسلام، بقوله: "وأكثر المتعرضين في هذا المكس المغاربة ولا اعتراض على غيرهم من جميع بلاد المسلمين، وذلك لمقدمة منهم أحفظت الإفرنج عليهم، سببها أن طائفة من أنجادهم غزت مع نور الدين رحمه الله، أحد الحصون فكان لهم في أخذه غنى ظهر واشتهر، فجازاهم الإفرنج بهذه الضريبة المكسية ألزموها رؤوسهم".

وقال الإفرنج: إن هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا ونسالمهم ولانرزأهم شيئاً، فلما تعرضوا لحربنا وتألبوا مع إخوانهم المسلمين علينا وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم.

فللمغاربة في أداء هذا المكس سبب من الذكر الجميل في نكايتهم بالعدو يسهله عليهم ويخفف عنتهم عنهم"[٢٩].

يبدو أن الدولة الأيوبية استمرت في سياسة استخدام المغاربة في أساطيلها البحرية، حيث يروي الرحالة الأندلسي ابن سعيد المغربي حينما زار مصر في سنة ٦٣٩هـ، ومكث بها حتى سنة ٦٤٤هـ، وأن السلطة الأيوبية لجأت إلى تجنيد المغاربة المقيمين في مصر للعمل في الأسطول إلى الدعاية الشائعة في مصر عن اختصاصهم ومهارتهم بفنون الجهاد البحري ومعاناته.

ويقول: "وسائر الفقراء لا يعترضون بالقبض للأسطول إلا المغاربة، فذلك وقف عليهم لمعرفتهم بمعاناة البحر"[٣٠].

هذا وقد دلت بعض المصادر أن المغاربة توصلوا إلى أرفع المناصب القيادية في بحرية مصر العسكرية، فعلى سبيل المثال لا الحصر – يذكر اليونيني صاحب كتاب (ذيل مرآة الزمان)، أن من بين الأسرى الذين أسرهم الفرنجة سنة ٦٧٣هـ/ ١٢٧٥م، بالقرب من قبرص – الرئيس شهاب الدين أبو العباس المغربي[٣١].

أما المقريزي فيذكر أن من تسلم قيادة الأسطول الحربي في مصر سنة ٧٦٩هـ/١٣٦٨م، هو الحاج محمد التازي المغربي الذي أبلى بلاءً حسناً في الهجوم على الإفرنج، حيث قتل منهم جماعة وأسر باقيهم، وأنه لما تقدم ومثل بين يدي الحاكم المصري خلع عليه وأنعم عليه بجميع ما أحضره من الغنائم على حد قوله[٣٢].

كما ويفرد النويري صفحات تاريخية في وصف الأعمال البطولية التي قام بها قائد الأسطول المصري ورئيس دار الصناعة بالإسكندرية الرايس إبراهيم التازي المغربي، الذي عرف ببطولته في الجهاد ضد الصليبيين – وقد أرجع النويري هذه الانتصارات العسكرية إلى اختصاصهم في هذا الميدان – بقوله: "والفرنج لا يقهرهم سوى المغاربة، وذلك لمخالطتهم لهم بجزيرة الأندلس، فيعرفون طريقهم طرق حربهم وطعنهم و ضربهم في بر وبحر"[٣٣].

وفي السيرة الشعبية للظاهر بيبرس، يرد ذكر القائد أبي بكر البطرني الطنجاوي، وهو بحار مغربي يقود غليوناً ومعه (٦٧٥) بحاراً يأتمرون بأمره، وهو ابن حاكم طنجة. وتزعم السيرة أنه شارك في موقعة بحرية بين الروم والملك صالح بن أيوب بالقرب من ميناء جنوى الإيطالي، فينتصر أبو بكر الطنجاوي على الروم ثم يدخل الميناء. وتروي السيرة عنه أخباراً كثيرة، ومن بين تلك الأخبار دخوله أرواد مع السلطان الظاهر بيبرس! والقبض على ملك الجزيرة المدعو (جمجرين)[٣٤].

من جهة أخرى، لم تقتصر إسهامات المغاربة على المشاركات العسكرية كمحاربين، بل ساهموا في مجالات أخرى مثل صنع الأسلحة الفعالة التي استعملت ضد الصليبيين، حيث بلغ للابتكار أوجه عند بعض المغاربة في هذا العلم، إذ يشير

النويري عن مجاهد مغربي عرض على أمير الإسكندرية سيف الدين الأكز سلاحاً جديداً عبارة عن قدور كفيات صغيرة من الفخار، ضيقة الأفمام مملوءة جيراً ناعماً مطفياً بالبول، وكانت الواحدة منها ملء الكف في حجم الرمانة مثل (القنابل اليدوية الآن)[٣٥]. وكان مفعول هذا السلاح يبدأ عندما ترمي وتكسر فيصعد الجير في وجوه الأعداء ويدخل في أعينهم، ويصعد في خياشيمهم، ويفسد أنفاسهم ويعمي أبصارهم. ومن أثر هذا السلاح، أن المسلمين انتصروا على الصليبيين في البحر.

إن هذه الأعمال الجليلة التي قام بها المغاربة، تركت أثراً إيجابياً في الإدارة الإفرنجية، فمثل ما كانت هناك سياسة ترحيب وتوطين للمغاربة في بلاد مصر والشام، نجد مقابلها سياسة تهجير واضطهاد وتمكيس في بلاد الفرنج، وذلك من جراء اشتراكهم مع إخوانهم المشارقة في الميدان العسكري ضد الصليبيين.

ب- المشاركة المدنية:

وفي المشاركات المدنية سنركز على إسهامات فئة نشطة من الغرباء المغاربة (الفقراء والعمال)، التي عدّت كفئة ليست ذات أهمية في المجتمع، إلا أنها ساهمت إلى حد كبير في استمرارية العطاء المغربي وسد حاجات المجتمعات المصرية والشامية في مجالات مختلفة - طيلة عهد الحروب الصليبية- وقد تجلى ذلك في المجال (الأخلاقي)، والمجال (الخدماتي) على مختلف فروعه، وبالرغم من أن الفئة تشكل الغالبية العظمى من الجالية المغربية، فقد غدت أعمالهم الموصوفة بالخلق والأمانة والصدق عناوين بارزة ميزتهم عن غيرهم وجعلتهم في مقدمة الوافدين على مصر والشام.

- ففي المجال الأول: نرى أن دور المغاربة في مجال التربية الأخلاقية كان له دور كبير في عملية التجديد الأخلاقي والديني في المجتمعات المصرية الشامية، فقد ربطت بين الممارسة الحربية والممارسة الخلقية، على اعتبار أن الأول تنزل عندهم منزلة الفرع التابع للثانية[٣٦].

ولقد كان من أهداف سياسة الأيوبيين المتعلقة بالأحباس الكثيرة لتجمع الغرباء المغاربة من مدارس وخوانق ورباطات، هدفاً للتمكن من إيقاف تأثير المذهب الباطني في النفوس، وإيقاف الحملات التبشيرية في بعض المراكز من الأراضي المصرية والشامية.

ولا غرابة في اتخاذ هذه السياسة من قبل هؤلاء الحكام، وهم يرون أن مثال الإسكندرية كان نصب أعينهم، فقد ظلت هذه المدينة سنين تعمل بالمذهب المالكي على عهد الفاطميين، وتتخذ محط رحال المغاربة في ذهابهم إلى الحج وإيابهم منه، وكان واضحاً أن محافظة مدينة الإسكندرية على طابعها السني المالكي يرجع الفضل فيه إلى هؤلاء المغاربة.

يبدو أن هؤلاء الحكام أدركوا أن للممارسة الأخلاقية المغربية توجهاً تأنيسياً صريحاً يصير به أقدر من غيره على الوقوف في مواجهة التبشير المسيحي والتشيع الفاطمي[٣٧]، ففتحوا الطريق لعمل المغاربة في أرضهم ومكنوا لهم المقام فيها.

ومن المعلوم أن الوافدين على مصر والشام من المغاربة المنقطعين إلى الله والمهاجرين إلى حرمه الأمين ارتفع عددهم ارتفاعاً في الحقبة الممتدة ما بين القرن السادس والقرن السابع الهجريين، فلا يبعد أن يكون توجه المغاربة امتداداً ومكملاً لتوجه المحاربين إلى مصر والشام لمنازلة المواقع التي احتلها الصليبيون إن كان هذا التوجه قد تحقق أن تعذر، فقد استطاع هؤلاء الوافدون أن يتصدوا للدعوات التبشيرية التي كان يقوم بها الدعاة المسيحيون في المناطق القريبة من المراكز التي احتلها الصليبيون أو في المناطق النائية – فعلى سبيل المثال – فقد تولى الشيخ أحمد البدوي[٣٨]، بطنطا التربية الأخلاقية والدعوة إلى الله، والشيخ عبد الرحيم[٣٩]، في قنا تجديد الإيمان في قلوب من أضلتهم هذه الدعوات التنصيرية[٤٠]. وأبو الحجاج الأقصري تلميذ عبد الرحيم القناني يعيد أهل القصر إلى الإسلام بعد أن انسلخوا عنه لسنوات عدة[٤١].

والشيخ أبو الحسن الشاذلي[٤٢]، فكان أن استقر بالإسكندرية موجهاً وهادياً إلى سبيل الله، وبكلامه (القريب العهد بالله) وبالرغم من انكفاف بصره وتقدم سنه في أواخر عمره يهب إلى إنقاذ ثغر دمياط من الصليبيين محفزاً للهمم حتى أتى نصر الله، وقد أدركته المنية في طريقه إلى الحج سنة ٦٥٦هـ.

كما تولى هؤلاء الوافدون في أن ينزعوا من قلوب العامة الآثار العقدية التي تركها في نفوسهم المذهب الإسماعيلي القائلة باستقلالية علوم الباطن، ويزرعوا بدلها محبة العلوم الشرعية الظاهرة والعلوم القلبية معاً – مزاوجين بين أساليب التربية الروحية التي ترتكز على الأوراد والأذكار والأحزاب[٤٣]، وبين أساليب الوعظ والتدريس التي ترتكز على الفهم والحفظ[٤٤]. إذ انتقلوا إلى البوادي والأصقاع النائية يعلمون الناس أمور دينهم بطريقهم المثلى، كالذكر الجماعي وقراءة القرآن الجماعية في المدارس والخوانق والرباطات، مبطلين عملياً الدعوات المنحرفة ومؤثراتها عند العامة.

يبدو أنهم كانوا مطلوبين وبخاصة في تلك المرحلة التاريخية، لذا اختصوهم بكل عناية ورعاية على مختلف فئاتهم – فمن أجلهم ابتنوا عدداً من المدارس والمحارس، والزوايا والرباطات، وأسندوا مهام التدريس والتربية إلى الوافدين عليهم، وأجروا عليهم الأرزاق في كل يوم ما بلغوا فمن الأمثلة:

يذكر ابن جبير أن نور الدين زنكي عيّن للمغاربة الغرباء أوقافاً كثيرة منها سبعة بساتين وأرض بيضاء وأن المشرف عليها هو الآخر المغربي يدعى أبو الحسن علي ابن سردال الجياني[٤٥].

وكذلك نجد شهادة مشابهة بها وصلتنا على لسان الرحالة ابن بطوطة في القرن الهجري، وربما يكون ابن بطوطة قد

استحضرها في هذا المقام بقوله: "وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق لا بد أن يتأتى له من المعاش من إمامة مسجد أو قراءة بمدرسة أو من ملازمة مسجد يجيء إليه فيه رزقه أو قراءة القرآن أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة أو يكون كجملة

الصوفية بالخوانق تجري له النفقة والكسوة، فمن كان غريباً على خير لم يزل مصوناً عن بذل وجهه محفوظاً عما يزري بالمروءة"[٤٦].

أما في المجال الثاني – فانطلاقاً من بعض الإشارات الواردة في المصادر نستطيع أن نثبت أثر العمال المغاربة في الحياة العامة، فقد قدمت للمجتمعات المصرية والشامية خدمات جليلة خاصة في تطوير وتنمية الاقتصاديات في الحواضر الكبرى وفي المدن الساحلية، حيث تميزت بأجورهم الضئيلة التي كانوا يرضون بها، وشهرتهم على صعيد الأمانة والجد والإخلاص في العمل، وهذا ما جعل الطلب عليهم شديداً وبخاصة من قبل المسؤولين في الحكم والإدارة في الدولة.

ولعل أوضح أمثلة على هذا الواقع ما ذكرته لنا بعض المصادر التي حدثتنا عن أنواع الحرف والمهن التي امتهنوها يقول ابن جبير: "وسائر الغرباء ممن عهد الخدمة والمهنة، بسبب له أيضاً غريبة من الخدمة: إما بستان يكون ناطوراً فيه، أو حماماً يكون عيناً على خدمته، وحافظاً لأثواب داخلية، أو طاحونة يكون أميناً عليها، أو كفالة صبيان يؤديهم إلى محاضرهم ويصرفهم إلى منازلهم، إلى غير ذلك من الوجوه الواسعة.

وليس يؤتمن فيها كلها سوى المغاربة الغرباء، لأنهم قد علا لهم بهذا البلدة (دمشق) صيت في الأمانة، وصار لهم فيها ذكر، وهذا من ألطاف الله تعالى بالغرباء"[٤٧].

كما يروي لنا المقريزي من خلال إشارة أوردها عند حديثه عن الحمامات التي كانت برفقة صلاح الدين الأيوبي خلال المدة الطويلة التي قضاها لتحرير بيت المقدس والمدن الشامية الأخرى من أيدي الصليبيين، حيث يتحدث عن وجود أكثر من ألف حمام، وكان الذين قاموا بمهمة تجهيزها وتحضيرها من الأندلسيين المغاربة الفقراء[٤٨].

بالإضافة إلى هذه المهن المذكورة قام المغاربة بأعمال أخرى كعمارة المساجد والجوامع والأبنية المدنية، إذ ظهرت تأثيرات المعماريين الأندلسيين والمغاربة

واضحة جداً في كثير من عمارة بعض المدن الشامية، مثل مآذن الجوامع الكبيرة والمساجد في مدينة طرابلس الشام[٤٩]، ويظهر التأثير الأندلسي واضحاً فحتى يخيل للناظر لأول وهلة أنه يرى إحدى مآذن الأندلس أو المغرب العربي.

وقد لفت نظر الرحالة ابن فضل الله العمري في النصف الأول من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، أن جميع أبنية طرابلس بالحجر والكلس، مبيضة ظاهراً وباطناً[٥٠]، وظاهرة تبييض المباني نراها في مدن المغرب، وليست الدار البيضاء إلا نموذجاً من الطراز المغربي بتسميتها وطابعاً، وليس طرابلس الشام إلا انعكاساً لها ببياض مبانيها[٥١].

أما فيما يتعلق بسجلات وثائق جنيزة القاهرة، فقد أثبتت وجود عدد مهم من الحرفيين المغاربة – حيث يقول جوايتاين: "إن المرء يستطيع أن يجد في مصر عمالاً قدموا من كل الأقطار ما بين إسبانية في الغرب وجيورجيا وإيران في الشرق"[٥٢].

ويضيف: "ولقد كانت حركة الناس دائبة، فنجد وثائق الجنيزة حرفيين من إسبانية ومن المغرب"[٥٣].

نخلص مما سبق أن الفئة العمالية المغربية كانت محط اهتمام ورعاية من قبل الحكام والمسؤولين في الإدارة الإسلامية، حيث كان أفرادها يرضون بالانخراط في الحرف والمهن التي يأباها البلديون، وبأقل الأجور المادية وأرخصها هذا ما جعلهم مطلوبين في طيلة عصر الحروب الصليبية وهنا يحق أن نستوضح – تعليل هذه الظاهرة التي أثرت بالإيجاب في نهاية المطاف على المجال الاقتصادي في المشرق.

إذ صح تعليلنا لاعتماد أهل الشرق على العمال المغاربة، وهو أنهم طلبوا فأُذِن لهم صحت معه أيضاً الحقائق التالية:

١ – إن العمل الحرفي المغربي يتصف بأوصاف لا ينازعه فيها أحد كأعمال البناء والنقائش، والصناعات مثل (صناعة الحرير وصباغته وتلوينه)[٥٤].

٢- إن السلوك المغربي الموصوف بالأمانة والجد والإخلاص في الأعمال الحرفية، حقق لهم صيتاً وذكراً جميلاً، شعر المجتمع المصري والشامي بالحاجة إليه حينئذٍ.

٣- تأثرت الغالبية من أصحاب الخدمة بالأخلاقيين المغاربة الذين كرهوا (المتعطلين) من تلامذتهم، فنصحوهم باتخاذ الحرف وبالبعد عن السؤال وعن انتظار عول العائلين[٥٥]، لذا كانوا يحرصون على الولوج في الأعمال الخدمية من الوجوه الواسعة دون النظر في نوعية المهنة.

٤- كان للأزمات الاقتصادية (الغلاء، المجاعات، الأوبئة)، التي تعيشها المنطقة دور في الاعتماد على اليد العاملة المغربية الوافدة على البلاد الذين كانوا يلاقون مصاعب كثيرة في حصولهم على عمل مما يشير إلى أن أفرادها كانوا يرضون بأرخص الأجور مما جعل الطلب عليهم شديداً.

ولعل أوضح الأمثلة على هذا ما أورده النعيمي، إذ يذكر أن نائب دمشق جاء إلى الجامع الأموي، وأخذ يفنّد مرتبات العاملين بالعمارة والبناء وفي النواحي الأخرى المتفرقة، فوجد أن المبلغ المخصص للعمارة وغيرها كبير جداً، فقال للناظر والمباشرين: "باشروا ذلك بأنفسكم، وإن احتجتم إلى أمين على آلات العمارة هاتوا مغربياً كل يوم درهمين، فإذا فرغت حاجتكم فيه يروح"[٥٦].

أما عن أثر إسهامات الغرباء المغاربة في نفوس مصر والشام على الصعيدين (الرسمي والشعبي) خلال عصر الحروب الصليبية، فانطلاقاً من المعلومات المتوفرة في مدونات المؤرخين والرحالين، نستنتج أن المغاربة لقوا عناية مميزة إلى حد كبير من جميع حكام بلاد مصر والشام في مختلف الأوقات، كما حدث على سبيل المثال في عصر صلاح الدين الأيوبي ومثله نور الدين الزنكي. فقد ذكر ابن جبير عن نور الدين زنكي، أنه اهتم بفك الأسرى من المغاربة والأندلسيين قبل أسرى الشام[٥٧]. وأنه

خصص للغرباء المغاربة الملتزمين زاوية المالكية بالمسجد الأموي، وبقيت وقفا حتى نهاية العصور الوسطى، وكان يتولاها في أكثر الأحيان فقيه مغربي[٥٨].

ومن المؤكد أن هذا الاهتمام بأمر المغاربة لم يقتصر على الحكام، وإنما شاركت فيه بنصيب وافر الأوساط الشعبية والميسورة، ويروي ابن جبير بهذا الصدد أن (جميل صنع الله تعالى لأسرى المغاربة بهذه البلاد الشامية الإفرنجية أن كل من يخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها إنما يعينها في افتكاك المغاربة خاصة لبعدهم، وأنهم لا مخلص لهم سوى ذلك بعد الله عز وجل، فهم الغرباء المنقطعون عن بلادهم.

فملوك أهل هذه الجهات من المسلمين والخواتين من النساء وأهل اليسار والثراء إنما ينفقون أموالهم في هذا السبيل"[٥٩]. هذا وقد بلغ اهتمام السلطان بالمغاربة أن فتح المجال لاستقبال معارضين ذوي مبادئ عقدية ربما اختلفت مع السلطة في حالة التبدل السياسي في الدول.

يقول ابن جبير عن أحد الأعيان المرابطين الفارين من دولة الموحدين بالمغرب المستقرين بالربوة المباركة[٦٠]، بآخر جبل قاسيون: "والأمين (أي أمين الربوة) الآن من بقية المرابطين من المسوفين، ومن أعيانهم يعرف بأبي الربيع سليمان بن إبراهيم ابن مالك، وله مكانة من السلطان ووجوه الدولة وهو متسم بالخير ومرتسم به، وهو متعلق بسبب من أسباب البر من إيواء أهل المغرب من الغرباء المنقطعين بهذه الجهات"[٦١].

أما في عهد صلاح الدين، فقد تجلت صورة الترحيب بجميع الغرباء والمجاهدين وأولى المغاربة الذين يقاتلون معه والمتصوفة عناية خاصة، ويمكن أن نلمس أثر هذا الاهتمام في إجراءات ومواقف صلاح الدين من الغرباء المغاربة، يذكر ابن جبير أن المسجد الكبير المنسوب إلى أبي العباس أحمد بن طولون وهو من الجوامع العتيقة في

مصر، جعله السلطان مأوى للغرباء من المغاربة يسكنونه ويحلقون فيه، وأجرى عليهم الأرزاق في كل شهر[٦٢].

بل أكثر من ذلك جعل أحكامهم إليهم، ولم يجعل يداً لأحد عليهم، حيث قدموا من أنفسهم حاكماً يمتثلون أمره ويتحاكمون في طوارئ أمورهم عنده[٦٣].

أما في عهد الأفضل بن صلاح الدين، لاقى المغاربة عناية فائقة منه، جزاءً وفاقاً على خدماتهم. ففي أيام سلطنته – أوقف (مدرسة الأفضلية)، لتقديم الخدمات التعليمية لهم (ليسكنوا في مساكنها، وينتفعوا بمنافعها)، ولدراسة تعاليم المدرسة المالكية المنتشرة في المغرب العربي[٦٤].

وبجوارها وقف قطاعاً من المدينة يقع بجوار المسجد الأقصى وسوره من جهة الغرب، وقد وقعت (حارة المغاربة) تبعاً لذلك بين سور المدينة في الجنوب وحائط الحرم الشريف في الشرق[٦٥]، وكان هذا الحي (الحارة) يتضخم من الزمن بالمغاربة المتعبدين في القدس، مما دفع الشيخ عمر بن عبد النبي المغربي المصمودي إلى تعمير زاوية بأعلى الحارة ووقفها على الفقراء والمساكين بتاريخ ٧٠٣هـ/ ١٣٠٤م، كما سنجد عند مطالعتنا لسجلات المحكمة الشرعية في بيت المقدس أكثر من (١٠٠) وقفية تتعلق (بحارة المغاربة)، أن أشهر أوقاف هذه الحارة بالإضافة إلى وقفيات الملك الأفضل ابن صلاح الدين وهو وقف شعيب بن الحسين أبو مدين الغوث المالكي الذي توفي ٥٩٤هـ/ ١١٦٩م، والذي يعتقد أن شارك في تحرير القدس من أيدي الصليبيين[٦٦].

هذا ولم يتوقف الاهتمام بهم أو يقل على عهد المماليك، بدليل ما سجله ابن بطوطة بهذا الخصوص في القرن الثامن الهجري بقوله: "وأهل دمشق يحسنون الظن بالمغاربة ويطمئنون إليهم بالأموال والأهلين والأولاد"[٦٧].

كما قد جاء على لسان ابن بطوطة أنه: "كان بدمشق فاضل من كتّاب الملك الناصر (دنكز) يسمى عماد الدين القيصراني من عادته أنه متى سمع أن مغربياً وصل إلى

دمشق بحث عنه، وأضافه وأحسن إليه، وعلى هذه الطريقة أيضاً كاتب السر الفاضل علاء الدين بن غانم وجماعة غيره"[٦٨].

وتأتي قيمة وعظمة مكانة الغرباء المغاربة في نفوس أهل الشام أن وقفوا على موتاهم مقبرة خاصة كمقبرة خليل بن زويزان التي تقع إلى الجنوب من مقابر الصوفية، والتي أوقفها على ما يبدو على الصالحين من الصوفية، وغيرهم من العلماء المغاربة، وكان أول الذين دفنوا فيها من المغاربة أبو الحسن علي المراكشي، والمقبرة تعرف بـ (مقبرة فقراء المغاربة) تقع على سطح جبل قاسيون في مغارة الدم في شمال دمشق[٦٩].

وفي هذا الصدد يورد لنا ابن بطوطة خبراً على عدم وقوعه، إذ قال حينما وصل إلى بيروت أنه قصد منها زيارة القبر العاهل المغربي أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بموضع بكرك نوح، ويقال إن السلطان صلاح الدين وقف عليها الأوقاف، وقيل السلطان نور الدين[٧٠].

مهما يكن من أمر، فإن كانت رواية ابن بطوطة يشوبها اللبس والإبهام[٧١]، إلا أنها تندرج في نطاق الأساطير الشعبية آنذاك ولعل هذه المقبرة التي أشار إليها، كانت مقبرة للغرباء المغاربة وهم في طريقهم إلى الحج أو بقصد التجارة، ثم أطلق عليها اسم أبي يعقوب كرمز بأنه القائد الزاهد في الملك، المتتبع لأحوال الفقراء لمساعدتهم ونجدتهم.

٣– خلاصات واستنتاجات:

الآن وقد انتهينا من عرض ومناقشة هذه الصورة، يجدر بنا أن ننهي هذا المقال بحصر أهم الخلاصات والنتائج التالية:

١– إن الدور البارز الذي شغله المغاربة من الغرباء الوافدين على المشرق، شكّل على مر الحروب الصليبية، حلقات وصل متتالية تبودلت وتنامت بين

المغرب العربي ومشرقه، وذلك رغماً عن القلاقل والموانع السياسية والاختلافات الفكرية التي كانت عائقاً أمام التلاقي والتضامن الوحدوي.

٢- تميزت أغلب المصادر في وصفها للمشاركة العسكرية المغربية ضد الصليبيين بالمشرق، بالتركيز على المحاسن، مما جعل الصورة التي رسمها المؤرخون والرحالة لهم تبدو واضحة جلية، فمعظم الأحكام التي صدرت لها علاقة بما علق بذهنهم من أفكار وتصورات ناتجة عن تأثير من التعاليم الإسلامية خاصة منها التي تهم مجال المناهضة والجهاد، والأخلاق والمعاملات.

٣- قد نال المغاربة من السلاطين الأيوبيين والمماليك كل الحفاوة والتكريم، لما كانوا يقومون به من تضحيات كبيرة وسخية في مختلف الحقول والميادين، إلى جانب جهادهم ضد الصليبيين على مدى سنين طويلة.

٤- إن الشعور بوحدة الأمة كان حاضراً في وعي الأوساط الشعبية على اختلاف فئاتهم، وهو ما تجسد في رغبة المغاربة الملحة بالمشاركة إلى جانب إخوانهم الشوام والمصريين في المعارك البرية والبحرية، من أجل تحقيق النصر سواء في مصر أو في البقاع المقدسة في فلسطين.

٥- من جهة أخرى، نسجل أن معرفة المغاربة بالأعمال المهنية في مختلف المجالات الاقتصادية، أهلتهم لتطوير وتنمية الاقتصاد بمصر والشام في وقت الحروب الصليبية، كما أن أصالة المغاربة في المجال الخلقي أهلتهم لسد حاجات المجتمعين المصري والشامي من التجديد الأخلاقي في التصدي للدعوات المنحرفة والحملات التبشيرية.

٦- وأخيراً ، فإن المغاربة والأندلسيين شكلوا جالية كبيرة العدد إلى حد ما في مصر والشام، وهذا ما تزخر به كتب التراجم المشرقية من معلومات بخصوص الأعلام المغربية، لكن من الملاحظ أن المؤرخين أغفلوا ذكر

بعض الفئات المختلفة، كالمشاركين في الجيوش النظامية، والفقراء المتصوفة (الأخلاقيين)، والعمال (أصحاب الحرف والمهن).

بقي أن ننوّه أن هؤلاء هم الغرباء الممدوحون المغبوطـون، ولقلـتهم فـي الجهـات المشرقية سمو (غرباء).

الهوامش

(١) ابن منظور: **لسان العرب المحيط**، م٢، من الزاي إلى الفاء، بيروت، دار لسان العرب، ص ٩٦٦، ٩٦٧.

(٢) ابن قيم الجوزية، **مدارج السالكين**، ج٣، إلى ٢٠١.

(٣) **محمد الشريف: الجالية** المغربية في العالم من خلال رحلة ابن بطوطة، مجلة المعرفة والتاريخ، ص ١٠٠.

(٤) إحسان عباس: **تاريخ الأدب الأندلسي**: عصر الطوائف المرابطين، ص ٣٠٦.

(٥) عبد اللطيف مؤمن: **رحلات الأندلسيين نحو المشرق مقياس الاستيعاب المعرفي والأصالة الثقافية بالأندلس**، ص ٢٧٦.

(٦) كتب التراجم تمد الباحث بتاريخ المواليد والوفيات للأعلام الذين ترجمت لهم، ومن الصعوبة أن تجد في طياتها تاريخ وأسباب هجرة هؤلاء الأعلام. انظر: أبو شامة: تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجريين المعروف بـ **(الذيل على الروضتين)**، دار الجيل، بيروت، ط٢٠، ١٩٧٤، ص ٧، ١٨٦.

(٧) البنتوني، محمد لبيب: **رحلة الأندلس**، ط١، القاهرة، مطبعة الكشكول، ١٩٢٧، ص ١٣٧. محمد بعد الله عنان: **عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس**، ق٢، ط١٠، ١٩٦٤، ص ٦٢٧. علي أحمد: **رجال الإدارة والسياسة والجبس من الأندلسيين والمغاربة في مصر من القرن السادس حتى نهاية القرن التاسع للهجرة**، دراسات تاريخية، جامعة دمشق، السنة ٨، العددان ٢٧ و ٢٨، ١٩٨٧، ص١٩٣.

(٨) عبد المجيد بهيني: **أثر مهاجري المغرب الإسلامي في الحياة العامة بالمشرق خلال القرنين السادس والسبع الهجريين/ الثاني والثالث عشر الميلاديين**، ندوة

المغرب – المشرق، العلاقات والصورة، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بن ملال ١٩٩٤، ص ١٨.

(٩) يذكر لنا ابن جبير في رحلته أن أمين الربوة المباركة بدمشق المدعو أبو الربيع سليمان بن إبراهيم بن مالك الذي نزح إلى بلاد الشام عقب سقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين.

ابن جبير: **الرحلة**، بيروت، دار الشرق العربي، ب، ت، ص ٢١٥. ثم كذلك ما أوضحه الوهراني (محمد بن محمد) صحب كتاب المنامات عن هجرته من الأندلس إلى مصر، وفيها عبر عن كرهه الواضح للموحدين في كتابه المذكور. انظر إلى الوهراني: **المنامات الوهراني ومقاماته ورسائله**، تحقيق إبراهيم شعلان ومحمد نفش، القاهرة، دار الكاتب العربي، ١٩٦٨، ص ١١. علي أحمد: **رجال الإدارة والسياسة والجيش من الأندلسيين والمغاربة في مصر من القرن السادس حتى نهاية القرن التاسع للهجرة**، ص ١٩٣.

(١٠) انظر إلى عبد اللطيف مؤمن: **رحلات الأندلسيين نحو المشرق مقياس الاستيعاب المعرفي والأصالة الثقافية بالأندلس**، ص ٢٧٦-٢٧٧.

(١١) التطيلي، بنيامين: **رحلة بنيامين الأندلسي إلى بلاد الشرق الإسلامي**، ترجمة وتعليق عزرا حداد، دار ابن زيدون، بيروت، ١٩٩٦، ص ١٧٥.

(١٢) **المصدر نفسه**، ص ١٧٨-١٧٩.

(١٣) طه عبد الرحمن: **الإسهام المغربي في التراث الإسلامي**، إسهام أخلاقي: عمل المغاربة الخلقي في مصر نموذجاً، مجلة التاريخ العربي، العدد الرابع عشر، ربيع ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

(١٤) انظر في هذا الصدد ابن جبير: **الرحلة**، ص ١٥ و ٢٣، و٣٣، و ٢٢٠، و ٢٢١. ابن حجر: **أبناء الغمر بأنباء العمر**، ج١، تحقيق حسين حبشي، دار التحرير، القاهرة، ١٩٦٩، ص ٤٤.

(١٥) النعيمي الدمشقي: **الدارس في تاريخ المدارس**، تحقيق جعفر الحسني، دمشق، ١٩٤٨، ج٢، ص ٤٠٤. أبو شامة: **الذيل على الروضتين**، نشره عزت العطار الحسيني، ط، ١٩٤٧، ص ١٥٣. علي أحمد: **بلاد الشام في نظر المغاربة والأندلسيين منذ بداية القرن السادس حتى نهاية القرن التاسع الهجري**، ص٥٥.

(١٦) ابن بطوطة: **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، تحقيق عبد الهادي التازي، ج١، ص ٢٣١.

(١٧) **المصدر نفسه**، ج١، ص ٣٣٤، و ٣٣٥، و ٣٣٦، و ٣٣٧.

(١٨) علي أحمد: **القدس في نظر الأندلسيين والمغاربة خلال العصور الوسطى**، مجلة التاريخ العربي، العدد ٩، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٩م، ص ٤٩-٥٣.

(١٩) أحمد مختار العبادي: **دور المغاربة في الحروب الصليبية في المشرق العربي**، بحوث في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٣، ص ٨٨-٩٩.

(٢٠) هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكنتاني الأندلسي، الشاطبي البلنسي، ولد في بلنسية سنة ٥٣٩هـ، وكانت وفاته بالإسكندرية، حيث أقام هناك محدثاً في سنة ٦١٤. وقد ألف كتاباً هوة أشبيه بمذكرات يومية سجل ابن جبير فيها ملاحظاته ومشاهداته أثناء رحلته التي بدأها في شوال ٥٧٨هـ، وانتهى منها بعودته إلى الأندلس في ٢٢ محرم سنة ٥٨١هـ.

(٢١) هو حسام الدين لؤلؤ من أصل أرمني، وقد تمكن من إحراق السفن الصليبية في أيلة وعيذاب وتحقيق النصر في موقعة حوراء البحرية قرب ينبع على ساحل الحجاز سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م، انظر إلى: ابن شداد، بهاء الدين أبو المحاسن، يوسف: **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية المعروف بسيرة صلاح الدين**، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، الدار المصرية، ١٩٦٤، ص ٤٦.

(٢٢) النجدة: **ظهور الشوكة والاستظهار بالجنود وعقود الأولوية والبنود ومجاهدة الكفرة والعناة**، والشوكة في نظر ابن جبير كانت للمغاربة، فالفرقة الظاهرة بالمغرب وهي الفرقة المجاهدة والمرابطة، انظر إلى: أبو حامد الغزالي: **فضائح الباطنية**، حققه عبد الرحمن بدوي، دار الكتب الثقافية، الكويت، ص ١٨٢، وهامش ٧.

(٢٣) ابن جبير: **الرحلة**، ص ٣٠.

(٢٤) ابن شداد: **النوادر السلطانية**، ص ٤٦. ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ج١١، ص ٤٩٠. المقريزي: **السلوك لمعرفة دول الملوك**، ج٢، ص ٨٥-٨٦. أبو شامة: **الروضتين**، ج٢، ص ٣٥.

(٢٥) أبو شامة: **الروضتين**، ج٢، ص ١٦٥ وما بعدها. ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، ج٦، ص ١٢. ابن عذارى: **البيان المغرب**، ج٣، ص ١٨٣. القلقشندي: **صبح الأعشى**، ج٦، ص ٥٢٧-٥٣٠. مؤلف مجهول: **الاستبصار في عجائب الأمصار**، ص ١٠٧.

(٢٦) ابن خلدون: **العبر**، ج٦، ص ٥٢٨.

(٢٧) ابن جبير: **الرحلة**، ص ٢٤٠.

(٢٨) **المصدر نفسه**، ص ٢٤٠.

(٢٩) **المصدر نفسه**، ص ٢٣٥.

(٣٠) ابن سعيد المغربي: **النجوم الزاهرة**، ص ٣٠.

(٣١) نص لليونيني أورده علي أحمد، **رجال الإدارة والسياسة والجيش من الأندلسيين والمغاربة في مصر في القرن السادس حتى نهاية القرن التاسع للهجرة**، ص ٢٠٤.

(٣٢) نص المقريزي أودره علي أحمد، **رجال الإدارة والسياسة والجيش من الأندلسيين والمغاربة في مصر في القرن السادس حتى نهاية القرن التاسع للهجرة**، ص ٢٠٤-٢٠٥.

(٣٣) نص للنويري أورده محمد مختار العبادي: **دور المغاربة في الحروب الصليبية في المشرق العربي**، ٩٧.

(٣٤) سيرة الملك الظاهر بيبرس، ج٢، ص ١٢٦-١٢٩، ج٣، ص ٣٤٤. عمر عبد السلام تدمري: **الأندلسيون والمغاربة في طرابلس الشام**، مجلة التاريخ العربي تصدرها جمعية المؤرخين المغاربة، العدد الثاني عشر، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص ٢٤-٢٥.

(٣٥) محمد مختار العبادي: **دور المغاربة**، ص ٩٦. السيد عبد العزيز سالم، أحمد مختار العبادي: **تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام**، دار النهضة العربية، ١٩٨١، ص ٣٢٣.

(٣٦) طه عبد الرحمن: **الإسهام المغربي في التراث الإسلامي**، ص ٣٢.

(٣٧) **المصدر نفسه**، ص ٣٤-٣٥.

(٣٨) ولد بفاس سنة ٥٩٦هـ، ولبس الخرقة بها على يد الشيخ عبد الجليل النيسابوري، دخل مصر أيام الملك الظاهر بيبرس، دفن بطنطا وعرف عند الشعب المصري بالسيد وبشيخ العرب لتلثمه كالبدو بالمغرب، وأصبح ضريحه

مهبط الزوار من مصر وخارجها منذ القرن السابع الهجري. حسن راشد المشهدي الخفاجي: **النفحات الأحمدية**، القاهرة، المشهدي الخفاجي، ١٣٢١هـ.

عبد العزيز بن عبد الله: **ريادة فكرية بين مصر والمغرب**، مجلة التاريخ العربي، تصدرها جمعية المؤرخين المغاربة، العدد ١٥، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص ٣٠.

(٣٩) شيخ الصعيد المصري عبد الرحيم القنائي (نسبة لقنا) السبتي أصلاً، ولد سنة ٥٢١، ولبس الخرقة وتعلم التخلق على يد الشيخ أبي يعزى، ثم انتقل إلى الحجاز حيث أقام مجاوراً تسع سنين ومنه تحول إلى صعيد مصر فاستقر بقنا حتى وفاته ٥٩٢هـ. انظر: صلاح عزام، **السيد عبد الرحيم** القنائي، دار الشعب، ب. ت. طه عبد الرحمن: **الإسهام المغربي**، ص ١٩، ص ٣٠.

(٤٠) صلاح عزام، **السيد عبد الرحيم** القنائي، ص ٧١.

(٤١) المصدر نفسه، ص ٦٩-٧٠. طه عبد الرحمن: **الإسهام المغربي**، ص ٣٦.

(٤٢) هو نور الدين علي بن عبد الرحمن، الغماري الزرويلي، ولد في غمارة بالريف شمال المغرب، عام ٥٩٣هـ ، وتوفي بصحراء عيذاب ببلاد الصعيد عام ٦٥٨هـ، بعد أن أصبح شيخ المتصوفة بالشرق وأصبحت طريقته مرجع جميع الحركات الصوفية في العالم الإسلامي. ابن عطاء الله: **لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن**، توجد سبع نسخ في الخزانة الحسنية بالرباط من رقم ٣٣٢ إلى ٦٣١٨.

عبد العزيز بن عبد الله: **ريادة فكرية بين مصر والمغرب**، ص ٣٠.

(٤٣) يذكر ابن بطوطة في رحلته (حزب البحر) المنسوب إلى أبي الحسن الشاذلي، وقد لقي هذا الحزب اهتماماً كبيراً ممن لهم صلة بالبحر من المسلمين وقد وجدنا

الدولة المغربية توصي ربابنة السفن بتلاوة هذا الحزب. انظر إلى: **رحلة ابن بطوطة**، ج١ ، ص ١٨٩، وتعليق ٢٣.

(٤٤) طه عبد الرحمن: **الإسهام المغربي**، ص ٣٦.

(٤٥) ابن جبير: **الرحلة**، ص ٢٢١.

(٤٦) ابن بطوطة، **الرحلة**، ج١، ص ٣٣١.

(٤٧) ابن جبير: **الرحلة**، ص ٢١٥.

(٤٨) المقريزي: **السلوك لمعرفة دول الملوك**، ج١، رقم ١، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٩٤.

(٤٩) عمر عبد السلام تدمري: **آثار طرابلس الإسلامية**، طرابلس، دار الإيمان، ١٩٩٤، ص ١٩ وما بعدها.

(٥٠) ابن فضل الله العمري: **مسالك الأبصار في مسالك الأمصار**، دار الكتب المصرية، رقم ٢٥٦٨، ج٢، ق ٣، ص ٤٤٨-٤٥٠.

(٥١) عمر عبد السلام تدمري: **الأندلسيون والمغاربة في طرابلس الشام**، مجلة التاريخ العربي، جمعية المؤرخين المغاربة، العدد الثاني عشر، ١٩٩٩م، ص٣٢.

(٥٢) جوايتاين: **دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية**، تعريب وتحقيق عطية القوصي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط١٠، ١٩٨٠، ص ١٧٢.

(٥٣) **المصدر نفسه**، ص ١٦٢.

(٥٤) علي أحمد: **بلاد الشام في نظر المغاربة والأندلسيين**، ص ٥٤.

(٥٥) طه عبد الرحمن: **الإسهام المغربي**، ص ٢٣.

(٥٦) النعيمي: **الدارس في تاريخ المدارس**، ج٢، تحقيق جعفر الحسني، دمشق، ١٩٤٨، ص ٤٠٤. علي أحمد: **بلاد الشام في نظر المغاربة والأندلسيين**، ص٥٥. عبد المجيد بهيني: **أثر مهاجري المغرب الإسلامي في العامة في المشرق**، ص ٣٠.

(٥٧) ابن جبير: **الرحلة**، ص ٢٤٠.

(٥٨) **المصدر نفسه**، ص ٢٢١.

(٥٩) **المصدر نفسه**، ص ٢٤٠.

(٦٠) هي الربوة المباركة المذكورة في كتاب الله تعالى ذات القرار والمعين، ومأوى المسيح وأمه مريم عليها السلام.

(٦١) ابن جبير: **الرحلة**، ص ٢١٥.

(٦٢) **المصدر نفسه**، ص ٢٣.

(٦٣) **المصدر نفسه**، ص ٢٣.

(٦٤) عبد الهادي التازي: **أوقاف المغاربة في القدس**، القدس تاريخياً وفكرياً، كتاب جماعي، الرباط، ١٤٠١هـ، ص ١٠٤.

(٦٥) انظر إلى مجير الدين الحنبلي: **الأنس الجليل**، ج٢، ص ٤٩٧.

(٦٦) شمس الدين الكيلاني ومحمد جمال باروت: **الطريق إلى القدس**، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات، ٢٠٠٠، ص ٢٨١-٢٨٢. ياسر عبد ربه: **المقدس وفلسطين في رحلة ابن بطوطة**، ص ٦٦.

(٦٧) **رحلة ابن بطوطة**، ج١، ص ٦٦.

(٦٨) **المصدر نفسه**، ج١، ص ٣٣٢.

(٦٩) أبو شامة: **الذيل على الروضتين**، ص ١٥٣ و ١٧٣· علي أحمد: **بلاد الشـــام في نظر المغاربة والأندلسيين**، ص ٥٦·

(٧٠) **رحلة ابن بطوطة**، ج١، ص ٢٦٢·

(٧١) نشير هنا أن أبا يعقوب بن عبد المؤمن أدركه الأجل على مقربة مـــن مدينـــة بايرة (البرتغال) متأثراً بجرو مميتة عند محاصرته لشنترين، وزهو مدفون فـــي تنمل (جنوب المغرب) ، ومما هو معروف أنه دفين مقبرة شالة بمدينة الرباط،· عبد الهادي التازي: **مكانة القدس لدى المغاربة**، بحث مقدم للندوة الأولى للآثار الفلسطينية، جامعة حلب، ١٩٨١·

مصر والأوضاع الصحية في الحجاز خلال مواسم الحج أواخر العهد العثماني ١٩٠٠-١٩١٨م

الدكتور نضال داود المومني
عمان
الأردن

الملخص:

يتناول هذا البحث الأحوال الصحية في الحجاز وموقف مصر منها، وأثرها على العلاقات المصرية الحجازية، خصوصاً على رحلة الحجاج بين مصر والحجاز. كما عكست العلاقات الدولية في منطقة حوض البحر الأحمر؛ التي تمثلت في العلاقات بين الدولة العثمانية صاحبة الولاية على الحجاز حتى إعلان الثورة هناك سنة ١٩١٦م؛ وبريطانية التي احتلت مصر سنة ١٨٨٢م، ثم أعلنت الحماية عليها أواخر سنة ١٩١٤م. وكانت الأوضاع الصحية في الحجاز خلال مواسم الحج مجال اهتمام جميع الأطراف ذات العلاقة بالحجاج؛ نظراً لارتباطها الوثيق بجوانب متداخلة، أبرزها في المجالين الاقتصادي والديني من خلال حركة النقل والتجارة بين مصر والحجاز.

وبيّنت الدراسة آثار انتشار الأوبئة في الحجاز على الحجاج؛ سواء من خلال أعداد الوفيات والإصابات، أو من خلال تأثيرها على طريق عودتهم إلى مصر؛ وارتباط

ذلك كله بقرارات مجلس الصحة والمحاجر الدولي. كما أوضحت أثر وصول السكة الحديدية الحجازية إلى المدينة المنورة، على طرق الحج والمحاجر الصحية بين مصر والحجاز.

واعتمدت الدراسة على وثائق غير منشورة، كان من أبرزها محفظات دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، إلى جانب عدد من الصحف المصرية المعاصرة لفترة الدراسة، مثل الأهرام، والمقطم، والأخبار؛ وكذلك صحيفة القبلة الحجازية التي صدرت سنة ١٩١٦م، إضافة إلى مصادر عربية وأجنبية متنوعة.

مقدمة:

تميز تاريخ العلاقات المصرية الحجازية عن غيرها من العلاقات العربية، فقد اتخذت هذه العلاقات أشكالاً متعددة، وشملت مختلف نواحي الحياة خلال الحكم العثماني للبلاد العربية. وكان المحمل المصري الذي اعتادت مصر إرساله سنوياً إلى الحجاز، يحمل معه الغلال والنقود ومساعدات أخرى متنوعة؛ إضافة إلى موسم الحج بشكل عام؛ كان ذلك كله مجالاً حيوياً لتجديد العلاقات المصرية الحجازية؛ إذ كانت الدولة العثمانية ومصر تنسقان جهودهما لتأمين سلامة المحمل والحجاج المصريين عامة في ذهابهم إلى الحجاز وإيابهم منها، وذلك بالتنسيق مع ولاية الحجاز وشرافة مكة.

واشتركت الدولة العثمانية ومصر بالاهتمام بصحة الحجاج المصريين وغيرهم من المارين بمصر من الحجاز وإليها؛ وذلك لاتخاذ الاحتياطات الصحية اللازمة لمنع انتقال الأمراض الوبائية بوساطتهم بين مصر والحجاز. وكان لمصر دور واضح في مجال الخدمات الصحية التي تقدمها للحجاج، خاصة المصريين منهم، إلى جانب أهل الحجاز عامة. واعتادت مصر مساعدة الحجاز إذا ما ألمّت به محنة أو كارثة؛ سواء المتعلقة بنقص المياه والجفاف، أو انتشار الأوبئة، أو غيرها من الظروف التي أدّت إلى أوضاع استثنائية في بلاد الحرمين.

ولما زاد الاهتمام الدولي بالناحية الصحية، ووضع قوانين للمحاجر الصحية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي؛ وذلك لمنع انتقال الأوبئة من إفريقية وآسية إلى أوروبة[١]؛ اهتمت الدولة العثمانية بمراقبة الأوضاع الصحية في الحجاز؛ فأنشأت المحاجر الصحية على مداخله البحرية والبرية، وذلك لمنع دخول الأوبئة إليه عن طريق الحجاج؛ كان منها محجر قمران على الساحل الجنوبي للبحر الأحمر؛ وتلاه إنشاء محجر صحي في جزيرتي أبي سعيد وأبي سعد القريبتين من جدة[٢]. هذا إلى جانب محجر تبوك من جهة الشام، الذي زادت أهميته بعد وصول السكة الحديدية الحجازية إلى المدينة المنورة سنة ١٩٠٨م، إذ توجه كثير من الحجاج، مصريين وغيرهم، لاستخدامها.

مصر والأحوال الصحية في الحجاز قبل وصول السكة الحديدية الحجازية سنة ١٩٠٨م:

أشارت المصادر المصرية إلى الخدمات الصحية العثمانية في الحجاز؛ فذكر محمد صادق باشا في حديثه عن حج سنة ١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م، أنه كان في جدة دائرة صحية ومحجر صحي له طبيب مرسل من الآستانة، يتلقى أوامره من والي الحجاز بمكة[٣]. كما أشار في حديثه عن حج سنة ١٣١٣هـ/ ١٨٩٦م، إلى المحجر الصحي الموجود في مدينة ينبع، ووصفه أنه مبني في غاية النظام[٤].

واعتاد حاكم جدة أن يأخذ من الحجاج رسوماً مقابل الخدمات الصحية، ففي سنة ١٨٩٦م، أخذ عن كل قادم إلى جدة بحراً نصف ريال مقابل خدمات المحجر، وحفر وردم الحفائر بمنى وإزالة العفونات[٥]. وذكر إبراهيم رفعت أنه في سنة ١٣١٨هـ/ ١٩٠١م، كان يستوفي في جدة من كل حاج ثمانية قروش رسم حجر صحي[٦]؛ وارتفع إلى ثمانية قروش ونصف سنة ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٣م[٧].

وتحدث بعض الذين رافقوا المحمل المصري قبل الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤، عن بعض جوانب القصور في الخدمات الصحية المقدمة في الحجاز؛ منها اعتياد الحجاج على نحر الأضاحي بمنى في ساعة واحدة يوم النحر (١٠ ذي الحجة) بالقرب من منازلهم، مما يساعد على تلوث الهواء وانتشار الأوبئة، واستمر ذلك حتى ١٣١٨هـ/ ١٩٠١م، عين عُملت حفر كثيرة بعيدة عن أماكن إقامة الحجاج، أُريقت فيها الدماء، فلم تنتشر الأوبئة، ولم يمرض أحد، وهكذا أصبح الأمر في السنوات اللاحقة[٨]. إلا أنّ هذا لم يكن كافياً لمنع انتشار الأوبئة والروائح الكريهة لاحقاً[٩].

كما كان الحجاج يقضون حوائجهم بشكل عشوائي[١٠]؛ هذا إلى جانب أحواض المياه المكشوفة المنتشرة في مدن الحجاز، والتي يشرب منها الحجاج؛ وإلى غير ذلك من جوانب القصور في مستشفيات الحجاز، وكان أبرزها قلة الأدوية[١١].

واهتمت مصر بصحة حجاجها المسافرين إلى الحجاز، وغيرهم من الحجاج الذين يمرون بالأراضي المصرية في طريقهم من وإلى الحجاز[١٢]، وأسست مصر سنة ١٨٥٨م، محجر الطور، باعتباره محجر مصر العام والحجاج المصريين، وجهزته بأحدث المعدات والأدوات الصحية سنة ١٨٩٣م، وأنشأت في نظارة الداخلية قلماً للمحاجر، اختص بالعناية بمحجر الطور. وكان في مصر أيضاً "مجلس الصحة البحرية والكرنتينات" الدولي، ومركزه الإسكندرية؛ والذي أصدر في ١٩ شباط ١٩١٤م، إحصاء لعدد الحجاج الذين دخلوا محجر الطور في المدة (١٩٠٠-١٩١٤م)؛ فكان عددهم (٣٥٨٣٤١) حاجاً، منهم (١٥٢٦٨٣) مصرياً[١٣].

وكانت مسألة انتشار الأوبئة في الحجاز من أبرز المشكلات التي عانى منها الحجاج عامة، بسبب ما رافقها من التشديد عليهم في محجر الطور في طريق عودتهم إلى مصر؛ إذ لم يعدّ مجلس الصحة البحرية نظيفاً خلال المدة (١٩٠٠-١٩١٤م)، سوى مرتين في سنتي ١٩٠١، ١٩٠٤م، بينما عدّه ملوثاً بالهواء الأصفر (الكوليرا) في السنوات ١٩٠٢، ١٩٠٨، ١٩١١، ١٩١٢، ١٩١٣، وبالطاعون في باقي السنوات[١٤].

واعتادت الحكومة المصرية إرسال صيدلية عسكرية بصحبة المحمل المصري، يرافقها طبيب وصيدلاني، إلا أن عملهما كان موضع نقد، حتى قيل في الطبيب لسنة ١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م[١٥]:

حكيمنا دواؤه واهٍ كنسج العنكبوت إذا مريضاً عاده تركه حتى يموت

هذا إلى جانب صيدلية ملكية أخرى، والتي لم يكن إرسالها منتظماً، وكان دورها بسيطاً[١٦]. وأصبح ديوان الأوقاف المصري يرسل بعثة طبية على نفقته بصحبة المحمل اعتباراً من سنة ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٨م[١٧].

تعددت مظاهر المتابعة المصرية للأوضاع الصحية في الحجاز خلال مواسم الحج، فقد أرسلت الحكومة المصرية سنة ١٨٨٠م، طبيبين إلى الحجاز؛ ليكونا مع الحجاج بمنى، وليخبرا بما يشاهدان من وباء وغيره فيما يتعلق بالأوضاع الصحية، وكان معهم صناديق مملوءة بالأدوية[١٨]. وفي سنة ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧-١٩٠٨م، كان الطبيب حمادة بك مندوباً لمجلس المحاجر الصحية المصرية في جدة[١٩]. ولما انتشرت الكوليرا في الحجاز والمنطقة المحيطة بها ومن ضمنها مصر - علمت مصلحة الصحة المصرية بذلك من مندوبها في جدة، وذكر أن الكوليرا تسببت حتى يوم ١١ ذي الحجة ١٣٢٥هـ/ ١٥ كانون الثاني ١٩٠٨م، في ٦ وفيات في جدة و ١٧ إصابة و ٦٧ وفاة في مكة[٢٠].

وأبرقت الداخلية المصرية في السنة نفسها إلى إبراهيم أفندي سليمان طبيب المحمل، بأن يحصر وفيات جميع الحجاج، وأن يخبر بها كل يومين أو ثلاثة، بدلاً من كل يوم. كما أبرقت إلى أمير الحج بحصر وفيات الحجاج المصريين، ونبهت على طبيب المحمل بعدم إرسال معلومات عن وفيات الكوليرا إلى مجلس المحاجر الدولي. وقد أشار أمير الحج إلى وفاة ثلاثة مصريين في مكة خلال شهر كانون الثاني سنة ١٩٠٨م، دون ذكر السبب[٢١]. كما أبرق رئيس مجلس المحاجر والصحة المصرية

إلى مندوبه في جدة بقرار المجلس مصادرة جميع المأكولات التي يحضرها الحجاج إلى الطور وإتلافها؛ وإبلاغ ذلك إلى جميع أطباء المحمل(٢٢).

وكانت أخبار وصول الحجاج من سواحل الحجاز إلى محجر الطور، تنقل إلى الديوان الخديوي تباعاً، مع بيان أحوالهم الصحية، بغض النظر عن جنسياتهم. وكان على مصر اتخاذ كافة الاحتياطات الصحية لمنع دخول الكوليرا إليها عن طريق الحجاج العائدين إلى أوطانهم(٢٣)، وحذرت صحيفة الأهرام المصرية الحكومة من التهاون في مراقبتهم، وذكرتها باهتمام الخديوي (عباس حلمي الثاني) شخصياً بهذا الأمر، إذ حدث مدير الصحة لاتخاذ اللازم على سواحل البحر الأحمر وفي محجر الطور. كما ذكّرت أن الكوليرا قضت في سنة ١٩٠٢م، على خمسة وثمانين ألفاً من المصريين(٢٤).

وجدير بالذكر تأثير الإجراءات المصرية نحو الحجاج عموماً بالاحتلال البريطاني لمصر سنة ١٨٨٢م، وطالما سعت بريطانية إلى التدخل في مسألة الحج المصري بقصد منعه في بعض السنوات، بحجة انتشار الأوبئة في الحجاز، ومنع دخولها إلى مصر(٢٥). كما سعت في مؤتمراتها الطبية إلى إثبات كون الحجاز مهّد الأوبئة؛ ولذلك شددت المراقبة على القادمين إلى الحجاز والمغادرين منها، حتى صار لفظ الحج ملازماً لمفهوم الحجر الصحي(٢٦).

رغم اهتمام كل من الدولة العثمانية ومصر بمراقبة الأوضاع الصحية في الحجاز، وكذلك إنشاء المحاجر الصحية ومراقبة شؤونها، إلى جانب مراقبة تنقل الحجاج بين مصر والحجاز؛إلا أن ذلك كله لم يمنع انتشار الأوبئة خلال مواسم الحج في الحجاز والمناطق المحيطة. واقتصرت إجراءات الحجر الصحي في الحجاز على مظاهر شكلية في معظمها؛ تمثلت في استيفاء الرسوم الصحية من القادمين إلى الحجاز؛ ولم يؤدِ استيفاء تلك الرسوم إلى تحسن ملموس في مستوى الخدمات الصحية والنظافة العامة في مدن الحجاز الرئيسة التي ارتادها الحجاج.

أثر السكة الحديدية الحجازية على الإجراءات الصحية بين مصر والحجاز ١٩٠٨-١٩١١م:

وصلت السكة الحديدية الحجازية إلى المدينة المنورة سنة ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٨م، وبدأ الحجاج باستخدامها خصوصاً في طريق عودتهم من الحجاز إلى مصر؛ فابتعدوا بذلك عن المرور بمحجر الطور، الذي كان لزاماً عليهم المرور به، خصوصاً عند انتشار الأوبئة في الحجاز؛ وفق الإجراءات الصحية المتبعة في مصر. هذا مع عدم وجود محجر صحي في مصر شمالاً جهة البحر الأبيض المتوسط، وكذلك عدم اعتراف مجلس المحاجر الدولي بإجراءات الحجر الصحي العثماني على الحجاج بعكس المأمول منها.

وأصبحت الإجراءات الصحية المتبعة بين مصر والحجاز مثار اهتمام الدولة العثمانية ومصر وبريطانية في ظل توجه الحجاج لاستخدام السكة الحديدية.

واهتمت مصر سنة ١٩٠٨م، بالأوضاع الصحية لحجاجها والحجاج المارين بمصر، وتعرض مجلس النظار في جلسته يوم ١٥ تشرين الأول سنة ١٩٠٨م، إلى القرار الذي أصدره مجلس المحاجر حول فرض الحجر الصحي على الحجاج المصريين العائدين من الحجاز بطريق سورية في محجر الطور، وذلك دون السوريين القادمين إلى مصر؛ لأن في ذلك كما قال سعد زغلول: "تحكم ربما أوّله الناس إلى تعمد الإضرار بالحجاج"؛ فينبغي على الحكومة حمل المجلس على تعديل القرار. وأضاف: "نعم أن هذا المجلس قراراته نافذة، غير أن الحكومة يجب عليها أن تظهر للأمة أنها فعلت ما تستطيع لتخفيف الضرر عنها"[٢٧].

وأصبحت مسألة الحجر الصحي على الحجاج العائدين من الحجاز بطريق مصر، مدار بحث بين مصر والدولة العثمانية؛ فلما أبلغت الخارجية المصرية في كانون الثاني سنة ١٩٠٩م، الصدارة بالآستانة، قرار مجلس الصحة المصرية، بعدم قبول

الحجاج الروس العائدين بطريق السكة الحجازية بمصر، دون قضاء الحجر بالطور؛ عدّت الصدارة موقف مصر غير موافق للأصول؛ لأن الحجاج يقضون مدة الحجر في تبوك، وكونه ليس كالسنة الماضية في مدائن صالح، بل صار استحضار لوازم الحجر، إضافة إلى عدم ظهور الكوليرا في الحجاز. وطلبت الصادرة إلغاء قرار الحجر عليهم في الطور(٢٨). ولما كان قرار مصلحة الصحة المصرية بناء على قرار دولي، فإنها لم تستطع تغييره، وانحصر دورها فقط بالحجر على العائدين بطريق السكة في إحدى جهات البحر المتوسط؛ إذا كان عددهم قليلاً لا يتجاوز ثلاثمائة حاج، وإذا زاد، فلا بدّ من إرسالهم إلى الطور طبقاً للقرار الدولي(٢٩).

واستغرقت المباحثات بين الدولة العثمانية ومصر وبينهما مجلس المحاجر الدولي فترة طويلة نسبياً، حتى جاء قرار مجلس الصحة المصري في [١٥ ربيع أول ١٣٢٧هـ/ ٦ نيسان ١٩٠٩م]، بقبول الحجاج المصريين العائدين بالسكة الحجازية من سورية دون إرسالهم إلى الطور، وعُدَّ ذلك قراراً استثنائياً لا يستعمل في المستقبل. – وكان ذلك بعد انتهاء موسم الحج– ونبّه المجلس الحكومة لضرورة إنشاء محجر على سواحل المتوسط لهذه الغاية. وشاركته الأهرام الرأي؛ وكذلك ضرورة سعي الحكومة المصرية إلى تعديل القرار، الذي ينص على أنه في حالة ظهور الكوليرا في الحجاز يكون الحجر الصحي على المصريين في محجر الطور، "لازماً لا تسامح فيه"، سبعة أيام وثلاثة تحت المراقبة؛ لأن هذا القرار لا يعدل إلا بقرار دولي مثله، حتى لو أُنشئ محجر جهة المتوسط؛ "فإن لم تفعل الحكومة ذلك، تكون متهاونة براحة رعاياها؛ لأنه لا يمكن بعد اليوم منع الحجاج المصريين عن ركوب السكة الحجازية؛ وفيها يجدون راحتهم، ويتمون حجهم بزيارة القدس"(٣٠).

ورغم ذلك كله، فقد استمر توجه مجلس المحاجر الدولي إلى ضرورة إلزام المصريين بالعودة من الحجاز إلى الطور، وقد ذكر الطبيب زخرياس، مدير محجر الطور، في حديثه حول الاحتياطات الصحية للعام التالي (١٣٢٧هـ)، أنه يجب على الحجاج

الذهاب بطريق سورية إلى المدينة، والعودة بحراً إلى جدة فالطور؛ وذلك لتسري معاملات الحجر على الحجاج جميعهم. إضافة إلى معرفة عدد المصريين والغرباء المارين بمصر، والذين سيستعملون السكة الحجازية منهم(٣١).

وذكرت الأهرام حول موسم الحج لسنة [١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨-١٩٠٩م]، أنه انتهى بالسلامة من الأمراض، وأشارت إلى برقية جاء فيها: أن عدد الحجاج الذين مرّوا بجدة حتى يوم [٣ ذي الحجة ١٣٢٦هـ/ ٢٧ كانون الأول ١٩٠٨م]، بلغ (٥٧٧٧٥) في العام السابق؛ وبلغت الوفيات في مكة خلال الفترة [١٦ جمادى الثانية إلى ٢٤ ذي القعدة ١٣٢٦هـ/ ١٦ تموز إلى ١٨ كانون الأول ١٩٠٨م]، (٢٤٣٧) مقابل (٥٧٣٣) في العام السابق؛ وعليه "فالصحة جيدة"(٣٢). فقد كانت وفاة (٢٤٣٧) حاجاً خلال ستة شهور في مكة وحدها مؤشراً على أن الصحة جيدة خلال ذلك الموسم؟!.

كان الطبيب صالح صبحي مندوب مصر الصحي في موسم حج سنة ١٣٢٦هـ، الذي وصل مكة بصحبة الطبيب محمد بك حسين الهندي نائب قنصل بريطانية في جدة. وجاء في المؤيد أن الحالة الصحية في مكة أفضل من السنوات السابقة، وأنهما سرا بها(٣٣). كما امتدحت المؤيد البعثة الطبية المصرية الخيرية المرافقة للمحمل المصري، التي أرسلها ديوان الأوقاف المصري، وتكونت من طبيب وصيدلاني وأربعة ممرضين ومساعدين؛ وبينت أعمالها الكبيرة في معالجة المرضى في البلاد الحجازية، والتي تمثلت في صرف الأدوية اللازمة، وإجراء العمليات الضرورية. ووصفها المؤيد أنها: "من أعظم المآثر لمصر والمصريين، وأعمها نفعاً وأجزلها فائدة.

قدّر الدكتور صبحي في تقريره عدد حجاج تلك السنة، بمائتي ألف، جاء منهم (٦٩) ألفاً بطريق البحر. وأكد فيه تفتيشه على النقاط الصحية في مكة وعرفات ومنى، وسعيه للاتفاق مع الوالي والشريف لوضع نطاق صحي حول مجاري المياه والأحواض؛ وقد باشر ذلك برفقة اثنين من الأشراف برجالهما. وذكر عدم كفاية الحرس على مواقع المياه، إضافة إلى معاكسة بعضهم لعمله. وأشار إلى وجود

صهاريج مياه مكشوفة وعددها ثلاثة، وأنه يصعب حفظها من التلوث لوقوعها في "حضيض" جبل عرفات، وتحتوي هذه الأحواض على المياه التي يشرب منها الحجاج خلال وجودهم هناك؛ فأولها تستسقي منه قوافل المحملين المصري والسوري، والثاني للحجاج الهنود، وهو مكمن الخطر، ويبعد عن الأول ٣٠٠ متر، ويعسكر حوله الهنود وأهل اليمن، وتبدأ الوفيات بينهم وبين المحيطين بالحوض الثالث، "أما السوريون والمصريون، فلا يجد المرض إليهم سبيلاً بسهولة، ووفياتهم دائماً أقل". وبيّن صبحي دوره في توعية المطوفين، خاصة من الهنود والجاويين. وقال: أساءت الحكومة العثمانية بحفر أحواض مكشوفة، أصبحت مهداً للميكروب وتكاثره؛ ونصح بهدمها، والاستعاضة عنها بجر الماء من عين زبيدة إلى عرفات بواسطة مضخة بخارية، لرفع المياه إلى خزان معدني، وتكون مثل المضخات المستعملة في الآبار الارتوازية بروض الفرج بمصر(٣٣).

وأضاف الطبيب وصفاً لمستشفى جدة، وانتقد عمله وقلة الاهتمام به، حيث يعمل به موظف واحد هو: الطباخ والصيدلي والاقتصادي والممرض، ليلاً نهاراً؛ وقال يجب هدمه لأنه مقر الميكروبات. وامتدح المستشفى العثماني – المحجر الصحي – الموجود في جزيرة وسط البحر – سعيد – تبعد حوالي ساعة ونصف بالمركب الشراعي عن ميناء جدة، حيث فيه المعدات اللازمة، ونصح بجعل تطعيم الأطفال إجبارياً في الحجاز؛ وأن تحمل البواخر المسافرة إلى الحجاز كمية من أنابيب المصل تكفي ركابها، إذا ظهرت إصابة بينهم. وطلب من الحكومة المصرية أن ترسل مع بعثتي الأوقاف والمحمل الطبيتين كمية من الأنابيب، تكفي الحجاج المصريين؛ لأنه لما انتشر الوباء سنة ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م، لم يكن في الصيدلية العثمانية سوى عشرة أنابيب فاسدة، ولم يكن في صيدلية المحمل شيء منها. كما انتقد حالة الأمن في الحجاز، وكثرة اعتداءات العربان على الحجاج والعساكر العثمانية(٣٥).

تميز موسم الحج لسنة [١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩-١٩١٠م]، عن السنوات السابقة، بحج عباس حلمي الثاني خديوي مصر؛ فكان ذلك فرصة تكثيف الاتصالات المصرية الحجازية، وانتقد الخديوي حالة النظافة في مكة وجدة، بوصفها لم تبلغ المستوى المطلوب، وتمنى تحسنها في عهد الحكومة العثمانية الدستورية(٣٦).

كانت الحالة الصحية لموسم حج الخديوي ملوثة بالطاعون؛ وأعلن ذلك في أثناء وجود الخديوي في المدينة؛ إذ أخبر مجلس الصحة البحرية بالإسكندرية الديوان الخديوي في [٢٩ ذي الحجة ١٣٢٧هـ/ ١١ كانون الثاني ١٩١٠م]، أنه بناء على وجود الطاعون بجدة تقرر أن يعدّ الحج ملوثاً؛ ولكن وابور المحروسة المقل الخديوي، لا يعدّ وابور حجاج حسب أمر الخديوي وقوانين الحجر الصحي؛ فتكون مدة الحجر عليه خمسة أيام فقط، تُحسب من تاريخ مغادرته الحجاز، فأخبر الديوان الخديوي أحمد شفيق – رئيس ديوان الخديوي – في المدينة المنورة بهذا القرار بتاريخه(٣٧)؛ وأرسلت إليه صورته في اليوم التالي، استناداً إلى ما ورد من مندوب الدولة العثمانية في المجلس، بأن مجلس عالي الدولة العثمانية، عدّ الحج ملوثاً بالطاعون(٣٨).

وأقام الخديوي في الحجر الصحي العثماني في تبوك خمسة أيام ابتداءً من [٤ محرم ١٣٢٨هـ/ ١٦ كانون الثاني ١٩١٠م]، وقال البتنوني بعد أن وصف محجر تبوك؛ إن هذا المحجر خاص بأهل الشام وتركية؛ أما أهل مصر، فلا بدّ لهم من تمضية الحجر الصحي في الطور قبل دخولهم الأراضي المصرية؛ وأنه تمت مخاطبات رسمية لاعتبار محجر تبوك كورنتينة عامة، بحيث يكفي للحجر على المصريين وغيرهم، ولكن لم يتقرر شيء بهذا الخصوص(٣٩).

وانتقدت الأهرام إجراءات اعتبار الحج ملوثاً، استناداً إلى رأي أحد الأطباء المنتدبين، الذي أدّى إلى الحجر على الحجاج جميعهم، هذا رغم تأييد الأهرام لأخذ الاحتياطات الصحية، إلا أنها ذكرت أنه لا يوجد في جدة معمل بكتريولوجي يثبت نوع الإصابة؛ فقرار الطبيب ينفّذ على المحاجر جميعها، دون التثبت من صحته، وربما ذلك باتفاق

عمال المحاجر مع الطبيب؛ فالحجر استناداً إلى الظن ليس عدلاً، وفيه إضرار بالحجاج. ودعت الأهرام مجلس الصحة المصري للاهتمام بهذا الأمر، خاصة بعد إعلان الدستور؛ إذ لم يعد إنشاء معمل بكترويولوجي في جدة أمراً صعباً للتحقيق من الإصابات المشتبهة(٤٠). وذكر المعتمد البريطاني في تقريره لتلك السنة؛ أنه حدثت إصابة طاعون في جدة، فعدّ الحج موبوءاً ، وأقام الحجاج عشرة أيام في الطور. وبلغ مجموع الحجاج المصريين (١٠٠٠٠) حاج(٤١).

عُدَّ قرار مجلس الصحة إقامة الحجر الصحي بإقامة الحجر الصحي على الحجاج في الطور، كأنه عقوبة، لم ينجَ منها إلا من حج، وعاد بسلام قبل ظهور الوباء في جدة(٤٢). واتجهت مصلحة الصحة والمحاجر إلى التساهل مع العائدين بالسكة بطريق سورية لتلك السنة، وهم الذين يُحجر عليهم في تبوك(٤٣)؛ لكن دون إعلان ذلك بقرار رسمي، مما جعلها عرضة للنقد، باعتبار مجلس الصحة لا يميل إلى رؤية الحجاج المصريين بطريق سورية؛ وأنه اضطرهم على العودة بحراً إلى الطور خشية خضوعهم للحجر مرتين. وأعلنت الدولة العثمانية سعيها لجعل الحجر في تبوك كافياً، دون تمكنها من إقرار ذلك. وأكدت الأهرام وجوب الحجر مرة واحدة على العائدين بطريق سورية(٤٤). ورغم اعتراف بريطانية بدور سكة الحديد الحجازية بتيسير وصول الحجاج إلى الحجاز؛ فقد ربطت ذلك بالتدابير الصحية التي تقتضي التعديل، "ولكن هذه المسألة تهم تركية وأوروبة مباشرة، أكثر مما تهم القطر المصري؛ فالنظام الحالي يضمن وقاية هذه البلاد من القادمين إليها من موانئ بلاد العرب، ولا يصعب حراسة الحدود الشرقية، أما فيما يختص بموانئ سورية، فالقطر المصري يستطيع أن يتخذ أسباب الوقاية بضرب الحجر الصحي"(٤٥).

اتخذت مصر الاحتياطات الصحية المعتادة لموسم الحج لسنة [١٣٢٨هـ/ ١٩١٠-١٩١١م]، وعبر بعض الحجازيين بالصحف المصرية قبل الحج عن سوء الوضع الصحي في مكة، بسبب سوء إدارة البلدية، وعدم اهتمامها بالأوضاع الصحية، مع

انتشار الميكروبات والأوساخ، وكذلك إهمال مفتش الصحة لهذه الأمور. وطالبوا الآستانة وولاة الأمور التدخل لمعالجة هذه الأوضاع(٤٦). ولما كانت الأوبئة منتشرة في كثير من البلاد المحيطة بمصر، فقد أشارت الداخلية المصرية إلى ذلك في مشوارها إلى الحجاج ولوقاية مصر من الأمراض وحفظ نظامها الصحي، وطالبت حجاجها العودة بطريق السويس، تجنباً للتعرض للمشاق إذا حضروا بطريق آخر؛ لضرورة مرورهم بمحجر الطور، خصوصاً إذا استمر وجود الأوبئة(٤٧).

وصل مندوب مجلس الصحة الدولي إلى جدة يوم [٤ ذي الحجة ١٣٢٨هـ/ ٧ كانون الأول ١٩١٠م]، واستمر يؤكد نظافة الحج وسلامة الوضع الصحي في مدن الحجاز خاصة مكة، حتى يوم [١٨ ذي الحجة/ ٢١ كانون الأول]؛ إذ بعث إلى المجلس بحصول إصابة طاعون في جدة؛ وعليه أخبر المجلس الديوان الخديوي "بكل أسف نفيد أن الحج يعتبر مزفراً"(٤٨).

وأخيراً تقرر الحجر في الطور، عشرة أيام على المصريين وسبعة على الأجانب، بعد أن استبشر الجميع بنظافة الحج. وذكرت الأهرام أن ذلك بسبب إصابة طاعون في جدة، إلا أنها لا تروع مصر التي اعتادت "زيارة هذا الضيف الثقيل لها كل سنة تقريباً"(٤٩).

وأرسلت جماعات مصرية تواجدت في الطور يوم [١٩ ذي الحجة/ ٢٣ كانون الأول] ثاني يوم ظهور الوباء في جدة – إلى الخديوي بنظافة الحج، ملتمسين تخفيف مدة الحجر عليهم(٥٠). وقد نشرت برقيات احتجاجهم في الصحف؛ إلا أن ذلك لم يمنع الحجر على الحجاج جميعهم، الذين وصلوا الطور بعد تاريخ ظهور الوباء في جدة(٥١).

بلغ مجموع الإصابات بالكوليرا في مكة حتى يوم [٥محرم ١٣٢٩هـ/ ٦ كانون الثاني ١٩١١م] (٣١) إصابة، مات منها (١٢)، بناء على ما أرسله مندوب المجلس الدولي في الحجاز، وكانت معظمها مشتبه بها كوليرا أو طاعون، ولوحظ من تقاريره

انتشار الطاعون والكوليرا في جدة، والكوليرا في مكة[٥٢]. وعلم المجلس من مندوبه في [١ محرم ١٣٢٩هـ/ ٢ كانون الثاني ١٩١١م]، أنه سيتوجه إلى ينبع لمراقبة الحجاج العائدين بطريقها[٥٣]؛ وبات متوقعاً توجهه إلى المدينة المنورة إذا اقتضى الأمر[٥٤]. واستمر المندوب يوافي المجلس بعدد الوفيات والإصابات في مدن الحجاز الرئيسة التي ارتادها الحجاج؛ وهي مكة وجدة وينبع.

وارتفع عدد الإصابات والوفيات في مدن الحجاز خلال شهر [محرم ١٣٢٩هـ/ كانون الثاني ١٩١١م]؛ فحصل بمكة وحدها يوم [١١ محرم/ ١٢ كانون الثاني]، (٢٨) إصابة كوليرا، توفي منها (٢٠)؛ وبلغت جملة الإصابات في ينبع حتى ذلك التاريخ، (٢٤) إصابة و(٢١) وفاة[٥٥]. وأخذ معدل الإصابات والوفيات بالانخفاض تدريجياً مع مغادرة الحجاج للحجاز. وحضر إلى الطور من ينبع يوم [٩ صفر ١٣٢٩هـ/ ٩ شباط ١٩١١م] بابور المنيا حاملاً (١٣٨١) حاجاً مصرياً، توفي أحدهم بالكوليرا أثناء الطريق[٥٦]. وقدّر عدد المصريين الذين أصيبوا بالكوليرا في تلك السنة (٤٥)، توفي منهم (٣٢)[٥٧]. وقدرت صحيفة اللواء عدد الحجاج المصريين بحوالي (١٦٢٤٥)[٥٨]، ووفق مصدر بريطاني (١٧٥٠٠)، بزيادة (٧٥٠٠) عن السنة السابقة[٥٩]، وبلغ مجموع الحجاج ثلاثمائة ألف[٦٠].

مثّل التشديد في الحجر على الحجاج أثناء عودتهم من الحجاز إلى مصر، نوعاً من العقوبة والإيذاء، وقد ساعد الوجود البريطاني في مصر على ذلك. وأصبح هناك إشكال سنوي معتاد، تمثل بضرورة الحجر على جميع العائدين إلى مصر بحجر الطور، ومنهم العائدين بالسكة الحديدية الحجازية بطريق سورية، ورغم خضوعها للحجر في محجر تبوك العثماني. وظهر هذا الإشكال باعتباره جزءاً من الخلاف البريطاني العثماني ساعد عليه قوة السياسة البريطانية في تنفيذ قرارها بهذا الاتجاه، من خلال نفوذها في مصر، وأصبح استخدام المصريين للسكة الحجازية محفوفاً بالمشقة والضرر.

انتشار الأوبئة وأثره على الإجراءات الصحية قبيل الحرب العالمية الأولى ١٩١١–١٩١٣م:

استمر طريق الحجاج بين مصر والحجاز عرضة للتغيير حسب الحالة الصحية؛ وتباحث برقياً الخديوي عباس حلمي الثاني والشريف الحسين بن علي قبيل موسم الحج لسنة [١٣٢٩هـ ١٩١١–١٩١٢م] حول الطريق الأنسب للمحمل المصري، حسبما تقتضيه الحالة الصحية، حيث كان الوباء منتشراً في الحجاز والمنطقة المحيطة.

أبرق الخديوي إلى الشريف في [١٩ رمضان ١٣٢٩هـ/ ١٣ أيلول ١٩١١م]، أنه بمناسبة ورود أخبار انتشار الوباء في الحجاز، عزمت الحكومة المصرية على جعل طريق المحمل المصري من السويس إلى جدة، ومن جدة إلى مكة والعودة، ثم من جدة إلى ينبع بحراً، ومنها إلى المدينة ذهاباً وإياباً بالطريق السلطاني؛ وأوضح في [٢١ رمضان / ١٥ أيلول] أن سبب التغيير هو "تمسك مصلحتي الصحة والكورنتينات البحرية بالنسبة للاحتياطات الصحية الواجب اتخاذها، ولوجود الوباء في البلدان الواقعة على طريق العام الماضي، واستلزم عمل كورنتينات في الذهاب والإياب من طريق حيفا..." وعليه طلب من الشريف الموافقة على طريق ينبع. وأخيراً أخذ الخديوي باقتراح الشريف بأن تكون زيارة المحمل إلى المدينة قبل الحج بطريق حيفا بالسكة الحديدة الحجازية ومن المدينة إلى رابغ بالطريق الفرعي، ومنها إلى جدة بحراً(٦١). وبذلك يرجع المحمل إلى جدة ثم إلى الطور بحراً، منسجماً مع الطريق المقترح لاتخاذ الاحتياطات الصحية اللازمة في محجر الطور.

ولما كان الوباء منتشراً في الحجاز والمنطقة المحيطة به قبيل موسم الحج؛ فقد قرر مجلس الكورنتينات بالإسكندرية في [٣ ذي الحجة ١٣٢١هـ/ ٢٥ تشرين الثاني ١٩١١م]، أن يعدّ الحج ملوثاً لتلك السنة(٦٢). وكان المحمل المصري آنذاك في مكة.

وكان مندوب المجلس في الحجاز يوافيه أولاً بأول بأعداد الوفيات والإصابات في مدن الحجاز؛ فذكر أنه حصل في يوم [١١ ذي الحجة ١٣٢٩هـ/ ٣ كانون الأول ١٩١١م] (٢٥) وفاة كوليرا بمنى، و(٧) إصابات بجدة. وبلغت إصابات اليوم التالي (٧٢) بمنى و(٢٥) بمكة، وذكر أن عدد إصابات الكوليرا في عرفات غير محصور، وأنه حصلت (٢١) وفاة بمنى وإصابات بالجدري. وأضاف أنه في يومي [١٣-١٤ ذي الحجة/ ٥-٦ كانون الأول] حصلت ستة وثلاثون إصابة و (٢٤٦) وفاة كوليرا بمكة(٦٣).

وأضاف المندوب أنه في الفترة [٢١-٢٣ ذي الحجة/ ١٣-١٥ كانون الأول] حصل (٥٧) وفاة كوليرا بمكة، أما في جدة فحصل (٩٣٢) وفاة و (١٩) إصابة(٦٤). أما في الفترة [٢٤-٢٦ ذي الحجة/ ٦-١٦-١٨ كانون الأول]، فحصل (٢٢) وفاة كوليرا بمكة؛ أما في جدة فقد حصل في يوم ١٨ كانون الأول ثلاث عشرة إصابة و(٥٨) وفاة(٦٥). وكان ذلك أثناء عودة الحجاج إلى جدة راجعين إلى بلادهم بطريق الطور. واستمرت مراقبتهم في الطور، حيث ظهرت إصابات جديدة بينهم هناك(٦٦). وأخذ عدد الإصابات بالانخفاض مع مغادرة الحجاج لمكة وجدة، فبلغت خلال يومي ٢٠ و٢١ كانون الأول وفاة واحد بالكوليرا في مكة، وإصابة واحدة وعشر وفيات بجدة(٦٧).

وما إن انتهى موسم الحج حتى بدأ الحديث منذ شباط ١٩١٢م، عن عزم الحكومة المصرية تغيير طريق المحمل المصري إلى الحجاز لموسم حج سنة [١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م]، وارتبط ذلك بتأمين السلامة من جهة، وبسبب الإجراءات الصحية من جهة أخرى، بحيث يسافر المحمل بعد هذا التغيير من القاهرة إلى الإسكندرية، ثم حيفا، فالمدينة المنورة بطريق السكة الحجازية. ويرجع بالطريق نفسه إلى حيفا ومنها بحراً إلى جدة، فمكة، والعودة إلى جدة، ثم إلى الطور والسويس كالمعتاد(٦٨). وبذلك تمثل الاختلاف عن الموسم السابق بطريق عودة المحمل وليس في ذهابه، إذ يستعمل السكة ذهاباً وإياباً من حيفا إلى المدينة.

انتقل المحمل في تلك السنة من رابغ، إلى جدة براً، فوصلها في [٢٥ ذي القعدة ١٣٣٠هـ/ ٥ تشرين الثاني ١٩١٢م]، وحتى لا يخضع ركبه للحجر الصحي خمسة أيام في جزيرة أبو سعد، توسط أمير الحج لدى الشريف برقياً لإنزال الركب في جدة، دون الاختلاط بأهلها؛ وذلك بسبب مرض اثنين من ركّاب المحمل، مشتبه في حالتهما؛ ورغم أنه ذكر أنها عادية، إلا أنهما توفيا لاحقاً، بعد إرسالهما إلى المستشفى بمعرفة الطبيب. وقد أصدر الشريف حسين تعليماته إلى جدة بنزول ركاب المحمل دون حجر. وذهب المحمل إلى مكة، وعاد إلى جدة في ٢٧ تشرين الثاني، وغادرها في اليوم التالي إلى الطور(٦٩).

وجاء في تقرير أمير الحج لتلك السنة حول طريق المحمل والإجراءات الصحية المتعلقة به؛ أنه يجب ترك اختيار طريق المحمل إلى الشريف وتحت مسؤوليته، وأن يسير المحمل بطريق رابغ، إلى جدة براً، فلا يخضع للحجر الصحي في جدة وانتقد أمير الحج نظافة المعسكر المصري بمكة، ونصح بإحاطته بسور، وطلب نقل صهريج ماء إلى منى؛ لأن الماء المكشوف ينقل الأمراض(٧٠).

كان الوضع الصحي لحج سنة [١٣٣٠هـ / ١٩١٢م] ملوثاً بالكوليرا، قبل موسم الحج؛ وعلم الديوان الخديوي بذلك في [١٥ شوال / ٢٧ أيلول]، من مجلس الصحة والمحاجر بالإسكندرية بناء على بلاغ قنصل بريطانية في جدة بظهور الكوليرا في مكة(٧١). ونشرت الأهرام نص البلاغ الذي بعثه القنصل وهو "جدة في ٢٦ أيلول، ظهر الهواء الأصفر في مكة بين الجيش والحجاج"(٧٢). وأخبر المندوب العثماني مجلس الصحة بوقوع ثماني إصابات كوليرا في مكة، وبقرار مجلس الصحة الأعلى في الاستانة باعتبار الحج ملوثاً بالكوليرا، ووجب الحجر خمسة أيام على السفن العادية المغادرة لجدة، وتطهير السفن التي تنقل الحجاج من جدة إلى ينبع في محجر أبي سعد قبل سفرها، وفحص الحجاج طبياً عند سفرهم من المحجر وعند وصولهم إلى ينبع(٧٣).

وانتشرت الكوليرا في المدينة المنورة، وتقرر الحجر على واردات الحجاز إلى مصر منذ تشرين الأول ١٩١٢[٧٤]، واتخذت مصر الاحتياطات للوقاية منها؛ إذ كانت الكوليرا منتشرة في البلاد العثمانية والمناطق المجاورة وفي مصر. وكانت آثارها في الحجاز كبيرة ووفياتها كثيرة؛ فقد حدث في مكة يومي [١٢-١٣ ذي الحجة ١٣٣٠/ ٢٢-٢٣ تشرين الثاني ١٩١٢م] (١٩٢٤) وفاة، وحدث لاحقاً المزيد من الوفيات والإصابات في مكة وجدة؛ وأخبر مندوب الدولة العثمانية مجلس الصحة أنه في الفترة [١٦-٢٢ ذي الحجة/ ٢٦ تشرين الثاني - ٢ كانون الأول] حدث بجدة (٣٠٢) إصابة، و(٢٩٠) وفاة كوليرا[٧٥]. وكانت الحالة الصحية في جدة سيئة حتى يوم [٢٥ ذي الحجة / ٥ كانون الأول][٧٦]؛ وأخذ عدد الإصابات فيها بالارتفاع حتى أواخر شهر كانون الأول[٧٧].

وبلغ مجموع الحجاج المصريين لتلك السنة (١٣٠٠٠)، واتخذت الحكومة المصرية التدابير اللازمة لكي لا يعود الحجاج دون حجر؛ ومات في الطور منهم (٤٦) شخصاً، كان منهم (١١) بالكوليرا[٧٨]. هذا غير الذين توفوا في الطريق، قبل الوصول إلى الطور، وذكر المعتمد البريطاني في مصر أن الكوليرا لم تدخل مصر سنة ١٩١٢[٧٩].

واختلف الحج المصري في سنة (١٣٣١هـ/ ١٩١٣م) عن سابقاتها، بأن أصدرت الحكومة المصرية شروط الحج وفق طريقين هما: السويس وسورية، وعمل الدفتر الخاص بالحجاج المصريين على نموذجين، حسب رغبة الحاج في الطريق الذي يسلكه[٨٠]. كما عدل ديوان الأوقاف في تلك السنة عن إرسال البعثتين الطبيتين اللتين اعتاد إرسالهما سنوياً منذ سنة ١٩٠٨م، مع المحمل إلى الحجاز؛ إحداهما لمكة والثانية للمدينة؛ وذلك لقلة فائدتهما بنفقاتهما البالغة ثمانمائة جنيه، إضافة إلى قصر مدة إقامتهما في الحجاز، فلا تمكنهما من مداواة المرضى[٨١].

استمر ظهور الأوبئة في المناطق المحيطة بمصر خلال الفترة [١٣٢٩-١٣٣١هـ/ ١٩١١-١٩١٣م]، وبات متوقعاً أن يقرر مجلس الصحة والمحاجر الدولي اعتبار موسم الحج لسنة [١٣٣١هـ/ ١٩١٣م] ملوثاً بالطاعون الذي انتشر قبل الموسم، وسعت كل من مصر والدولة العثمانية لاتخاذ الإجراءات الصحية الوقائية لمنع دخول الأوبئة إلى أراضيهما.

وأصدرت الدولة العثمانية أوامرها لاتخاذ الوسائل الصحية في بواخر الحجاج، فمنعت نقل الجلود غير المدبوغة فيها، وكذلك المواشي إلا لأكل الركاب، وغيرها، واتخذت الاحتياطات نحو البضائع القادمة من بلاد ملوثة بالكوليرا أو الطاعون أو غيرهما(٨٢).

وقرر مجلس الصحة والمحاجر الدولي بتاريخ ٦ تشرين الأول ١٩١٣م، منع الحجاج الأجانب من النزول إلى الموانئ المصرية في طريقهم إلى الحجاز(٨٣)، كما قرر لاحقاً اتخاذ الاحتياطات الصحية من الكوليرا تجاه واردات الاستانة وورومانية، وألغاها تجاه واردات القنفذة في البحر الأحمر(٨٤).

عدّ الحج سنة [١٣٣١هـ/ ١٩١٣م] ملوثاً بالطاعون، بقرار من مجلس الصحة والمحاجر الدولي بتاريخ [٤ ذي الحجة ١٣٣١هـ/ ٤ تشرين الثاني ١٩١٣م](٨٥).

وذلك بسبب حدوث إصابات طاعون في جدة، علماً أن ركب المحمل المصري لم يظهر فيه وباء، وعاد إلى الطور بسلام في ٢٠ تشرين الثاني(٨٦). لم تقر الدولة العثمانية بقرار المجلس؛ الذي عندما قوبل بالنقد في مصر، نظراً لما يترتب عليه من إجراءات الحجر، قامت الصحافة المصرية للدفاع عن المجلس وقراراته، مبينة فضله في حماية مصر من الأوبئة في السنوات السابقة(٨٧).

وخضع الحجاج العائدون من الحجاز إلى الطور، إلى الحجر الصحي لمدة عشرة أيام، رغم تحفظ الدولة العثمانية، وجماعات من الحجاج المصريين على قرار مجلس الصحة والمحاجر الدولي، ولما سعت إدارة السكة الحديدية الحجازية للاتفاق مع بعض شركات الملاحة لنقل الحجاج الراغبين بزيارة المدينة، من جدة إلى حيفا، ومنها إلى

المدينة بالسكة، تردد أصحاب هذه الشركات بسبب إجراءات الحجر في الطور؛ نقلت إدارة السكة الأمر إلى الصدارة في الآستانة، التي كتبت إلى الديوان الخديوي بالأمر مبيّنة أن إجراءات محجر الطور تتم حتى في السنين التي لم يظهر فيها وباء في الحجاز، فضلاً عن عدم اختلاط بواخرها بالسواحل المصرية، مما يستوجب ضياع ثلاثة أو أربعة أيام، الأمر الذي تسبب في عدول الحجاج عن زيارة المدينة. كما أوعزت الصدارة إلى نظارة الصحة لديها لتسهيل مرور تلك البواخر ومتابعة الأمر مع الحكومة المصرية، بحيث تلغي إجراءات الحجر في الطور، أو تسرع لتتم في ساعة أو ساعتين، ونقل نتيجة المساعي إلى الصدارة، لإعلانها إلى الحجاج وشركات الملاحة. كما أبلغت نظارة الصحة العثمانية مندوبها في المجلس الدولي لنقل الأمر إلى مجلس الصحة المصري[٨٨].

ولما أعلمت الداخلية المصرية الصدارة بقرار المجلس الدولي باعتبار الحج ملوثاً أجابتها الصدارة في [٢ محرم ١٣٣٢هـ/ ١ كانون الأول ١٩١٣م]، استناداً إلى رأي نظارة الصحة العثمانية، أنه نظراً لعدم ظهور الكوليرا، وكون الحالة الصحية العامة على ما يرام، فيجب رفع التدابير الصحية المتخذة على الحجاج في الطور[٨٩]. ولم يصل الجانبان إلى اتفاق حول هذا الأمر.

واستغاث جماعة من المصريين باسم حجاج الباخرة طنطا، بالديوان الخديوي من إجراءات محجر الطور؛ لأن مدة الحجر التي تقررت عليهم عشرة أيام، دون احتساب مدة السفر والمكوث، ورغم شهادة الأطباء لنظافة الحج[٩٠] وبلغ عدد الحجاج المصريين لسنة ١٩١٣م، (١٣٦٦٧)، وتوفي منهم (٥٢)[٩١].

استمر ظهور الأوبئة خاصة الكوليرا والطاعون في الحجاز خلال مواسم الحج قبيل الحرب العالمية الأولى، والتي سببت الكثير من الوفيات والإصابات بين الحجاج، كما انتشر مرض الجدري سنة [١٣٤٩هـ/ ١٩١١-١٩١٢م] في منى بمكة، واقترن انتشار الأوبئة في الحجاز بتشديد إجراءات الحجر الصحي على الحجاج المصريين

في طريق عودتهم إلى مصر؛ وفي التأثير على العلاقات الاقتصادية بين مصر والحجاز من خلال منع الصادرات الحجازية إلى مصر.

واقتصر دور مجلس الصحة والمحاجر الدولي على مراقبة الحالة الصحية في الحجاز خلال مواسم الحج، وبالتالي متابعة ما يترتب عليها من إجراءات الحجر الصحي في محجر الطور؛ وذلك للحيلولة دون دخول الأوبئة من الحجاز إلى مصر، كما حصل سنة [١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م]، أو الحد من انتشارها، كما تدخل المجلس في اختيار طريق المحمل المصري والحجاج المصريين، وغيرهم من المارين بمصر؛ وإلزامهم بأسلوب غير مباشر بالعودة من الحجاز بحراً من جدة إلى الطور، بينما ترك الحرية لهم في طرق ذهابهم من مصر إلى الحجاز.

ولم تتفق الدولة العثمانية مع المجلس الدولي في إقرار طبيعة الحالة الصحية في الحجاز خلال بعض مواسم الحج، كما حصل سنة [١٣٣١هـ/ ١٩١٣م]؛ إلا أن قرارات المجلس كانت نافذة على مصر وحجاجها، دون تمكن الدولة العثمانية من ذلك، الأمر الذي سبب المزيد من المتاعب للحجاج العائدين من الحجاز إلى مصر، كما تضرر من ذلك أصحاب البواخر التي كانت تنقل الحجاج بين مصر والحجاز.

الإجراءات الصحية خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م):

عزمت الحكومة المصرية قبيل موسم حج سنة [١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م]، على اختيار طريق دائم لسفر المحمل المصري إلى الحجاز؛ وأرسلت مندوباً إلى الحجاز لبحث هذا الأمر مع شريف مكة؛ فاقترح الشريف أن يسافر المحمل من حيفا إلى المدينة ذهاباً وإياباً بالسكة الحجازية، ومن حيفا بحراً إلى جدة، ومن جدة إلى مكة براً ذهاباً وإياباً. وقد وافق مجلس النظار المصري على الطريق الذي اقترحه الشريف(٩٢).

ونشرت الداخلية المصرية الاحتياطات الصحية الواجب اتخاذها بمحجر الطور، حيث لم يؤثر الطريق الجديد عليها(٩٣)؛ لأنه يقضي بعودة المحمل إلى الطور، وفق التوجهات السنوية لمجلس الصحة والمحاجر الدولي.

وجاء إعلان الحرب العالمية الأولى في أوروبة أوائل آب سنة ١٩١٤م، ليجعل الحكومة المصرية تعيد النظر في موقفها من إرسال المحمل والحج بشكل عام. وعدلت الداخلية المصرية عن منشورها حول الحج، الذي أصدرته في الأول من آب، وكان متطابقاً في إجراءاته وشروطه مع منشور سنة ١٩١٣م، ورأت تعميم منشور جديد، إذ أصبح السفر بين مصر والحجاز محفوفاً بالمخاطر الصحية والأمنية لأسباب عدة. كان منها؛ عدم تمكن الحكومة المصرية من اتخاذ الاحتياطات الصحية والأمنية اللازمة، واستند المنشور الجديد إلى فتوى مفتي الديار المصرية التي نصحت بتأجيل الحج[(٩٤)]. وكانت المعتمدية البريطانية في مصر، في ضوء توجهها بمنع الحج سنة ١٩١٤م، قد ألمحت إلى استحالة ضمان إدارة الحجر الصحي بسبب تشتيت هيئاته الطبية[(٩٥)].

أدّت حالة الحرب مع توقع اشتراك الدولة العثمانية فيها؛ إلى انخفاض عدد الراغبين بالحج سنة ١٩١٤م، من مصريين وغيرهم[(٩٦)]. وأخيراً تقرر رسمياً في مصر، سفر المحمل المصري حاملاً الكسوة فقط، دون المساعدات السنوية المعتادة؛ بطريق السويس – جدة، وقصره على الحج فقط، أي دون زيارة المدينة المنورة[(٩٧)]. واكتفت الحكومة المصرية بتوصيل المحمل إلى جدة، وتسليمه إلى مندوب الشريف فيها بتاريخ [٢٩ ذي القعدة ١٣٣٢هـ/ ١٩ تشرين الأول ١٩١٤م][(٩٨)]. ولما أعلنت الدولة العثمانية الحرب على بريطانية وحلفائها في ٥ تشرين الثاني ١٩١٤م، ثم أعلنت بريطانية حمايتها على مصر في ١٩ كانون الأول ١٩١٤م، أصبح موقف بريطانية من حج سنة ١٩١٤م، مجالاً للدعاية السياسية والتنافس بين بريطانية والدولة العثمانية.

علم مجلس الصحة والمحاجر الدولي أن صحة الحجاج بمكة وعرفات جيدة، ولم يحدث بينهم إصابة، وقد أبحر بعضهم من جدة أوائل تشرين ١٩١٤[(٩٩)]. وقد وصفت الحالة الصحية في الحجاز بشكل عام بأنها جيدة. وعُدّ موسم الحج سنة [١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م] غير ملوث[(١٠٠)]. ولما اجتمع مجلس الصحة والمحاجر الدولي في الأول من

كانون الأول ١٩١٤م، لبحث مسألة الحج وغيرها، لم يحضره مندوبو الدول المعادية لبريطانية من الدولة العثمانية وألمانية والنمسا؛ لأن المجلس كما جاء في المقطم وإن كان دولياً؛ فهو متعلق بالحكومة المصرية، وتابع لها في إجراءاته، ويمثل كل دولة فيها قنصلها وطبيب من قبلها[١٠١]. ومثلت لهجة المقطم، نحو المجلس الدولي، تحولاً جيداً في نظرة الصحافة المصرية، التي طالما عدّت القرارات الصادرة عنه دولية لا مصرية، ولا يمكن إلغاءها أو تعديلها بقرار مصري، بل لا بدّ من قرار دولي مشابه.

لم يختلف موقف الحكومة المصرية من الحج سنة ١٩١٥م، عن السنة السابقة، في ضوء استمرار الحرب، واشتراك الدولة العثمانية وبريطانية فيها، إذ دخلت المسألة الحسابات السياسية لمواقف المتحاربين؛ وأصبحت مسألة الإجراءات الصحية لا وجود لها، خاصة مع الانخفاض الكبير في عدد الحجاج.

رافق التوجه البريطاني لإنجاح موسم الحج بعد ثورة الشريف حسين بن علي سنة ١٦١٩م، السعي لاتخاذ الإجراءات اللازمة نحو إعادة المواصلات بين مصر والحجاز، وكذلك تجهيز الإجراءات الصحية اللازمة نحو الحجاج في ذهابهم وإيابهم. وظهرت تلك الاستعدادات في مصر،بعد إعلان ثورة الشريف، وعلى كافة المجالات، كان أبرزها الناحية الصحية؛ والتي جاءت ضمن سياسة الحكومة المصرية نحو تشجيع الحج لتلك السنة وفق الرغبة البريطانية، لدعم الثورة في الحجاز.

اهتمت الحكومة المصرية منذ أواخر تموز سنة ١٩١٦م، بإعداد الأوضاع الصحية المناسبة لسفر الحجاج المصريين إلى الحجاز، وبحثت الإجراءات الخاصة بهم، خاصة بعد خروج العثمانيين بهيئاتهم الطبية من الحجاز، وضرورة مرور الحجاج على محجر صحي قبل دخولهم الحجاز[١٠٢]. فلما استولت بريطانية على جزيرة قمران في البحر الأحمر، والتي كانت الدولة العثمانية تتخذها محطة صحية للحجاج القادمين من الشرق الأقصى، رأت الحكومة البريطانية بالاشتراك مع السلطنة

المصرية إعادة العمل بمحجر هذه الجزيرة لتسهيل سفر الحجاج المصريين إلى الحجاز، وأخذ مجلس الصحة البحرية والمحاجر الإعداد لذلك(١٠٣).

وأصبح محجر قمران المكان الذي ينزل فيه الحجاج المصريون بدلاً من محجر أبي سعد، قبل دخولهم الحجاز اعتباراً من سنة ١٩١٦م، ولم يرَ مجلس الصحة والمحاجر انتداب طبيب لمرافقة المحمل المصري في الحجاز لتلك السنة، وفسر ذلك بسبب استقرار الحالة الصحية هناك، كما أن عدد ركب المحمل المصري محدود، وستكون العناية لهم في قمران كافية(١٠٤)، ورغم ذلك رأت مصلحة الصحة العمومية المصرية انتداب الطبيب الميجر ثومسون (Thomson) للإقامة في جدة أثناء موسم الحج، ومراقبة الحجاج المصريين، فسافر المحمل إلى جدة، وبقي فيها بانتظار عودة الحجاج(١٠٥).

وقد ظهرت الكوليرا قبل موسم الحج في تركية وسورية وشبه جزيرة سيناء، واستعدت مصلحة الصحة المصرية لمنع دخولها إلى مصر، وأخضعت القادمين من تلك المناطق لرقابة مشددة، وأعلنت أن القادمين من جزيرة العرب إلى الموانئ المصرية والسودانية، ستسري عليهم معاملات خاصة(١٠٦). وتقرر عدم نزول الحجاج غير المصريين إلى الموانئ المصرية بعد الحج. كما تقرر الحجر في الطور مدة عشرة أيام في حالة ظهور الوباء وثلاثة في حالة خلو موسم الحج منه(١٠٧). واستعداداً من الحكومة المصرية لاستقبال الحجاج في الطور، أوفدت هيئتين إحداهما صحية من مجلس الصحة، وثانيهما من وزارة الداخلية(١٠٨).

اجتمع مجلس الصحة والمحاجر اجتماعه الشهري في [٦ ذي الحجة ١٣٣٤هـ/ ٤ أكتوبر ١٩١٦م]، وبحث مسألة الحج المصري، وقرر اعتبار الحج موبوءاً على سبيل الاحتياط، وجعل مدة الحجر في الطور عشرة أيام، لمنع دخول الوباء إلى مصر؛ مستنداً على عدم تلقيه أية معلومات عن الحالة الصحية في الحجاز، وعدم وقوفه على الحقيقة هناك(١٠٩). اتجهت رغبة المجلس ومصلحة الصحة المصرية إلى اعتبار الحج

موبوءاً، بغض النظر عن الحالة الصحية في الحجاز، رغم عدم ورود ما يفيد بانتشار الوباء هناك، على سبيل المبالغة في الاحتياط(١١٠).

ولما تأكدت سلامة الحالة الصحية لجميع الحجاج؛ التمس بعضهم إنقاص مدة الحجر، وأخذت الجهات المختصة تنظر في الأمر(١١١)، فقرر مجلس الصحة والمحاجر في ٢٤ تشرين الأول إلغاء قراره الأول واعتبار الحج نظيفاً، على أثر الأخبار التي وصلته من الحجاز والطور بعدم ظهور أمراض وبائية قبل الحج ولا بعده، وتبع ذلك رفع الحجر عن ركب المحمل والحجاج المصريين؛ لأنهم قد أمضوا حتى تاريخه أكثر من ثلاثة أيام في الطور(١١٢).

وقوبل قرار المجلس باعتبار الحج نظيفاً بالارتياح في مصر، ليس فقط لأنه سهّل عودة الحجاج، وقلل التكاليف عليهم، بل لأنه أزال العقبات التي يقضي بها نظام الحجر من طريق المواصلات التجارية بين مصر والحجاز؛ لأن القرار السابق – ٤ تشرين الأول – يقضي بالحجر على واردات الحجاز وفقاً للأصول المتبعة(١١٣).

وتركزت جهود ملك الحجاز وحكومته سنة ١٩١٧م، لإنجاح موسم الحج سنة ١٣٣٥هـ، على الناحية الصحية. وقام الحسين بزيارة مدينة جدة قبل موسم الحج لهذا الغرض، وأمر بتشكيل هيئة عليا لمراقبة الأحوال الصحية في جدة، والتي كان من قراراتها أن يطلب مدير صحة جدة من رئاسة مصلحة الصحة المصرية ثلاثمائة مصيدة فئران لتوزع على أهالي جدة مجاناً(١١٤). ولما زار الحسين جدة في أواخر [رجب ١٣٣٥هـ/ أيار ١٩١٧م]؛ أكد هناك على الاحتياطات الصحية في موسم الحج، وتفقد المحاجر الصحية. وأنشأت مملكة الحجاز باخرتين في سواحلها على البحر الأحمر، وجهزتهما بالمعدات الكافية للمراقبة الصحية، خاصة بعدما تحقق انتشار الطاعون في السويس، وأصبحت الحجاز تحتاط لمنع دخوله إليها(١١٥). وقوبلت الإجراءات الحجازية خصوصاً في المجال الصحي استعداداً لموسم الحج؛ بالشكر والثناء في مصر(١١٦). ومثلت تلك الاحتياطات الصحية ظاهرة جديدة، ليس فقط لأنها

المرة الأولى التي تتولى فيها الحجاز كدولة حماية نفسها من الأوبئة دون وصاية من طرف آخر، بل لأن المعتاد في حالة انتشار الأوبئة في حوض البحر الأحمر أن تحتاط مصر لذلك، خصوصاً من جهة الحجاز خلال مواسم الحج، لا أن يحدث العكس.

ورغم الاستعدادات الحجازية لإنجاح موسم الحج سنة [١٣٣٥هـ/ ١٩١٧م]، فقد تراجع عدد الحجاج مقارنة بسنة ١٩١٦م، فقدر عدد المصريين منهم بحوالي ثلاثمائة؛ إضافة إلى حرس المحمل وموظفيه الذي زاد على عدد الحجاج، وقُدِّرَ بحوالي خمسمائة شخص(١١٧)، وارتبط هذا التراجع في مصر، بالإجراءات الإدارية والصحية والبحرية التي تجريها حكومات مصر والهند والمغرب والحجاز(١١٨). ورغم قلة عدد الحجاج المصريين سنة ١٩١٧م، فقد أرسلت الحكومة المصرية في [١٤ ذي القعدة ١٣٣٤هـ/ ١ أيلول ١٩١٧م]، بعثة صحية إلى جدة؛ لاتخاذ الاحتياطات اللازمة، وكانت مؤلفة من الميجور ثومسون (Thomson) مدير قسم الأوبئة، وثلاثة أطباء آخرين وسبعة موظفين (مخبريين وخمسة ممرضين)، وجهزت تلك البعثة بمستشفى نقال، ليقام في جدة، يتسع لمئتي مريض، ومعها الأدوات اللازمة، واعتبرت تلك العناية غير مسبوقة(١١٩). ويبدو أن لتلك البعثة مهمات إضافية تتجاوز العناية بالحجاج في ضوء استمرار الحرب في الحجاز بين القوات العثمانية والقوات العربية التابعة للشريف وبريطانية.

وعقد مجلس الصحة والمحاجر اجتماعه الشهري الأول في أيلول، ولم يتخذ أي قرار بشأن موسم الحج(١٢٠)؛ ولما عقد جلسته الشهرية في [١٥ ذي الحجة ١٣٣٤هـ/ ٢ أكتوبر ١٩١٧م]، اعتبر الحج نظيفاً، بناء على التدابير الصحية المتخذة لاستقبال الحجاج عند العودة من الحجاز، واستناداً على معلومات رسمية وصلته من الحكومة الحجازية، حول الاحتياطات الصحية التي اتخذتها لمنع انتشار الأمراض في الحجاز(١٢١).

ولم يشهد حج سنة ١٩١٨م، ارتفاعاً ملحوظاً عنه في سنة ١٩١٧م، فبلغ عدد الحجاج المصريين (٤٦٩) حاجاً، وانخفض الإقبال على الحج بشكل عام، في مصر والجزيرة العربية خصوصاً، وأعيد ذلك لتوتر العلاقات بين عبد العزيز آل سعود أمير نجد وملك الحجاز، اعتبر موسم الحج خالياً من الأمراض الوبائية(١٢٢).

رغم تراجع الخدمات الصحية المقدمة في الحجاز خلال الحرب العالمية الأولى [١٩١٤-١٩١٨م]، فقد لوحظ عدم انتشار الأوبئة هناك، في ضوء الانخفاض الكبير في عدد الحجاج عامة ومنهم المصريين، مقارنة بها قبل الحرب، مما يؤكد الارتباط الوثيق بين ارتفاع عدد الحجاج وانتشار الأوبئة خلال مواسم الحج في الحجاز.

الخاتمة:

تعرضت الحجاز خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين إلى انتشار الأوبئة والأمراض خصوصاً خلال مواسم الحج. وسعت مصر إلى مراقبة الأوضاع الصحية في الحجاز من خلال إيفاد البعثات الطبية صحبة المحمل المصري مصحوبة بالأدوية والمعدات اللازمة. وكانت تنسق مع الدولة العثمانية لمراقبة الحجاج خلال تنقلهم بين مصر والحجاز.

وارتبطت الإجراءات الصحية بين مصر والحجاز بقرارات مجلس الصحة والمحاجر الدولي الذي اتخذ الإسكندرية مقراً له؛ وكان يقرر الحالة الصحية في الحجاز خلال مواسم الحج المتتالية، وقضت أنظمته في حال عُدَّ الموسم موبوءاً، أن يُحجر لزوماً عشرة أيام على الحجاج في محجر الطور قبل دخولهم الأراضي المصرية. ولما وصلت السكة الحديدية الحجازية إلى المدينة المنورة سنة ١٩٠٨م، التي ربطت بلاد الشام وسواحل البحر الأبيض المتوسط بالحجاز، وتوجه الحجاج إلى استخدامها في رحلتهم بين مصر والحجاز، برزت مشكلة إلزامية عودة الحجاج بطريق الطور قبل دخولهم مصر. هذا مع عدم وجود محجر صحي مصري جهة البحر المتوسط، وكذلك عدم تمكن الدولة العثمانية على اعتماد محجر تبوك باعتباره دولياً وبديلاً لمحجر

الطور بالنسبة للحجاج الراغبين بالعودة بطريق الشام بواسطة السكة. وقد سعى المجلس الدولي إلى إجبار الحجاج المصريين وغيرهم المارين بالأراضي المصرية، بشكل غير مباشر على العودة لطريق الطور، وذلك من خلال التضييق على العائدين بطريق الشام.

وانتشرت الأوبئة في الحجاز والمناطق المحيطة قبل الحرب العالمية الأولى (١٩١١-١٩١٣م)؛ وأصبح طريق الحج من مصر مرتبطاً بالإجراءات الصحية التي يقرها المجلس الدولي في مثل هذه الظروف، وسعت مصر بالتنسيق مع شرافة مكة لاختيار الطريق الأنسب لسفر المحمل المصري والحجاج المصريين، بما ينسجم مع توجهات المجلس الدولي بأن يكون طريق عودتهم من جدة إلى الطور، حتى لا يتعرضوا إلى مزيد من المتاعب؛ حيث ظهرت قرارات المجلس باعتبارها دولية ملزمة لمصر وحجاجها وغيرهم من المارين بالأراضي المصرية في طريقهم من وإلى الحجاز.

أوقفت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م)، الجهد الدولي المنظم فيما يتعلق بالإجراءات الصحية، التي قادها مجلس الصحة والمحاجر الدولي، الذي أصبح بحكم الموقوف. وارتبطت الإجراءات بين مصر والحجاز بالمواقف السياسية للدول ذات العلاقة بكلا البلدين، خصوصاً الدولة العثمانية وبريطانية في ضوء نفوذهما في منطقة حوض البحر الأحمر، وموقفهما من الحرب. وباشرت بريطانية الإجراءات الصحية بين مصر والحجاز خصوصاً بعدما أعلنت حمايتها على مصر أواخر سنة ١٩١٤م، وساندت قيام الثورة العربية في الحجاز، التي أعلنت سنة ١٩١٦م، وتولت على أثرها المملكة الهاشمية الحجازية مسؤولياتها الصحية بالتنسيق مع السلطات البريطانية في مصر.

الهوامش

(١) محمد لبيب البتنوني: **الرحلة الحجازية لولي النعم عباس حلمي باشا الثاني خديوي مصر لسنة ١٣٢٧هـ**، ط١، مطبعة مدرسة عباس باشا الأول، ١٩١٠م، ص ٢٣٢-٢٣٤.

(٢) عايض بن خزام الروقي: **المنشآت الطبية في الحرمين الشريفين خلال العهد العثماني**، (دراسة تاريخية وثائقية)، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، الكويت، عدد ٨٨، السنة ٢٢، خريف ٢٠٠٤م، ص ٣٣-٣٦.

(٣) محمد صادق باشا: **الرحلات الحجازية**، إعداد وتحرير محمد همام فكري، ط١، بدر للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٩٩٩م، ص ١٧٩. وانظر: ص ٣٠٤. إبراهيم رفعت: **مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية**، ط١، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥من، ص ١٦.

(٤) محمد صادق: **المصدر نفسه**، ٢٨٩.

(٥) **المصدر نفسه**.

(٦) إبراهيم رفعت: **المصدر السابق**، ج١، ص ١٦.

(٧) **المصدر نفسه**، ج٢، ص ١٢٧.

(٨) **المصدر نفسه**، ج١، ص ٣٥، ٣٢٩. محمد صادق: **المصدر نفسه**، ١١٢، ١٩١، ٣٤٣.

(٩) محمد البتنوني: **المصدر السابق**، ص ١٥٥.

(١٠) إبراهيم رفعت: **المصدر السابق**، ج١، ص ٢٠٩. محمد صادق: **المصدر نفسه**، ص ٢٩٠.

(١١) محمد صادق: **المصدر نفسه**، ص ١٧٨، ١٧٩؛ وانظر حول أماكن الشرب في جدة ص ٢٩٠، ٣٠٤. وحول المستشفى العسكري ومستشفى الغرباء في مكة: إبراهيم رفعت: **المصدر السابق**، ج١، ص ١٨٤-١٨٥.

(١٢) نضال داود المومني: **علاقة مصر بالحجاز على عهد الشريف حسين وموقفها من ثورته وصراعه مع عبد العزيز آل سعود**، رسالة دكتوراه غير منشورة، إشراف أ. د. جمال زكريا القاسم، وبمشاركة د. عراقي يوسف، كلية الآداب- قسم التاريخ- جامعة عين شمس، مصر، ٢٠٠٣، ص ١٩٦.

(١٣) نعوم شقير: **تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها مع خلاصة تاريخ مصر والشام والعراق وجزيرة العرب وغيرها عن طريق سيناء**، تقديم محمد أبو سليم، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٤١١هـ/ ١٩٩١مص ١٣٥-١٣٦.

(١٤) **المصدر نفسه**، ص ١٣٦.

(١٥) محمد صادق: **المصدر نفسه**، ص ٧٩؛ وانظر: ص ٧٢، ٢٦١، ٤٠٦؛ إبراهيم رفعت: **المصدر السابق**، ج١، ص ٥. ج٢، ص ٤٨.

(١٦) إبراهيم رفعت: **المصدر السابق**، ج١، ص ٤٨، ١٤٨-١٤٩.

(١٧) **المصدر نفسه**، ص ١٨٣.

(١٨) إبراهيم رفعت: **المصدر السابق**، ج١، ص ١٨٦. **الأهرام**، ٧ كانون الأول ١٩٠٨.

(١٩) **الأهرام**، **المصدر نفسه**، ٢ كانون الثاني، ١٩٠٨.

(٢٠) إبراهيم رفعت: **المصدر السابق**، ج١، ص ١٨٩.

(٢١) **المصدر نفسه**، ص ١٨٦. الأهرام ٧ كانون الأول ١٩٠٨.

(٢٢) دار الكتب والوثائق القومية في القاهرة، **سجلات عابدين**، وارد عربي، س ٥/٢٠/١٤/، ص ٥، ١١-١٣. مع ملاحظة أن جميع السجلات والمحافظ الواردة

في الدراسة هي من محفوظات دار الكتب والوثائق بالقاهرة، لذلك سيصار لاحقاً إلى كتابة البيانات الخاصة بالهامش مباشرة.

(٢٣) **الأهرام**، كانون الثاني، ١٩٠٩.

(٢٤) نضال المومني: **المرجع السابق**، ص ٢٠.

(٢٥) المنار، المجلد ١٢، ج١١، ص ٨٥٧-٨٥٩.

(٢٦) سعد زغلول: **مذكرات**، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، تحقيق: د. عبد العظيم رمضان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م، ج٢، ص ٢٧٣-٢٧٤.

(٢٧) **وثائق مجلس الوزراء**، محفظة ١٨/ب (الحج والمحمل)، وثيقة رقم ٣٤، صورة مكاتبة واردة إلى رئيس مجلس النظار من الديوان الخديوي التركي بتاريخ ٧ كانون الثاني ١٩٠٩.

(٢٨) **الأهرام**، ٢١ كانون الثاني، ١٩٠٩.

(٢٩) **الأهرام**، ٧ نيسان، ١٩٠٩.

(٣٠) **الأخبار**، ١٣ آب، ١٩٠٩.

(٣١) **الأهرام**، ٨ كانون الثاني، ١٩٠٩.

(٣٢) **المؤيد**، ٩ كانون الثاني، ١٩٠٩.

(٣٣) **المؤيد** ، ٢١ كانون الثاني، ١٩٠٩.

(٣٤) **الأخبار**، ١٢ آب، ١٩٠٩. **الأهرام**، ١٢ آب، ١٩٠٩.

(٣٥) نفس المصدرين.

(٣٦) **المقطم**، ٧ كانون الثاني، ١٩١٠.

(٣٧) **سجلات عابدين**، وارد عربي، س/٥/٢٠/١٦، ص٢؛ وصادر تلغرافات س /٥/٨/٧٧، ص ٥٦-٥٧؛ **عابدين**: محفظة ٥٤٦ (التماسات الحج)؛ المقطم ٢١ كانون الأول ١٩٠٩.

(٣٨) **عابدين**: محفظة ٥٤٦، وصادر تلغرافات: **المصدر نفسه**.

(٣٩) محمد البتنوني: **الرحلة الحجازية**، ص ٢٤٠-٢٤٤.

(٤٠) **الأهرام**، ١١ كانون الثاني ١٩١٠.

(٤١) تقرير المعتمد البريطاني في مصر لسنة ١٩٠٩، ترجمة وطباعة المقطم سنة ١٩١٠، ص ٨.

(٤٢) **الأهرام**، ١٢ كانون الثاني ١٩١٠.

(٤٣) **الأهرام**، ١٤ كانون الثاني ١٩١٠.

(٤٤) **الأهرام**، ٢٠ كانون الثاني ١٩١٠.

(٤٥) تقرير المعتمد البريطاني في مصر لسنة ١٩٠٩، **مصدر سابق**، ص ٨.

(٤٦) **المقطم**، ٢٥ تشرين الثاني، ١٩١٠.

(٤٧) **اللواء**، ١٠ تشرين الثاني، ١٩١٠.

(٤٨) **سجلات عابدين**، وارد عربي، س/٥/٢٠/١٧، ص٣٦-٤٣.

(٤٩) **الأهرام**، ٢٤ كانون الأول ١٩١٠.

(٥٠) **سجلات عابدين**، المصدر السابق، ص ٤٣.

(٥١) **الأهرام**، المصدر السابق.

(٥٢) **سجلات عابدين**، المصدر السابق، ص ٥٦. وانظر: ص ٤٥-٤٦، ٥٣.

(٥٣) **المصدر نفسه**، س/٥/٢٠/١٨، ص ٩-١٠.

(٥٤) **المصدر نفسه**، ص ١٦.

(٥٥) **تقرير قنصل بريطانية في مصر لسنة ١٩١٠م**، ترجمة وطباعة المقطم، سنة ١٩١١م، ص ٧١.

(٥٦) **اللواء**، ٨ كانون الأول، ١٩١٠، ص ٦.

(٥٧) **تقرير قنصل بريطانية في مصر لسنة ١٩١٠م**، مصدر سابق.

(٥٨) **سجلات عابدين**، وارد عربي، س/٥/٢٠/١٧، ص ٤٢.

(٥٩) **سجلات عابدين**، وارد عربي، س/٥/٧/٧٧، ص ٧٤.

(٦٠) **سجلات عابدين**، وارد عربي، س/٥/٢٠/١٩، ص ١٥.

(٦١) **المصدر نفسه**، ص ٢١.

(٦٢) **المصدر نفسه**، ص ٢٣.

(٦٣) **المصدر نفسه**، ص ٢٥.

(٦٤) **المصدر نفسه**، ص ٢٣-٢٥، ٢٨-٢٩، ٣٢.

(٦٥) **المصدر نفسه**، ص ٢١.

(٦٦) **الأهرام**، ١٧ شباط، انظر: نضال المومني: **المرجع السابق**، ص ٢٢٣.

(٦٧) **مجلس الوزراء**، المصدر السابق، الوثائق، ٥٧-٥٩، ص ٩-١١. انظر: **الأهرام**: تشرين الثاني ١٩١٢.

(٦٨) **المصدر نفسه**، الوثائق ٦٢-٦٦، ص ١٤-١٨.

(٦٩) **سجلات عابدين**، وارد عربي، س/٥/٢٠/٢٠، ص ٢٤. **الأهرام**: ٢٧ أيلول ١٩١٢.

(٧٠) **الأهرام**: ٢٨ أيلول ١٩١٢.

(٧١) **الأهرام**: ٣٠ أيلول ١٩١٢.

(٧٢) **المقطم**: ١٠ تشرين الأول ١٩١٢.

(٧٣) **سجلات عابدين**، المصدر السابق، ص ٥٥¯٥٧· **مجلس الوزراء**، المصدر السابق، وثيقة ٥٩، ص ٠١ المقطم، **المصدر نفسه**·

(٧٤) **سجلات عابدين**، المصدر السابق، ص ٤٢¯٥٤·

(٧٥) **المصدر نفسه**، ص ٢٢¯٢٥، ٢٩·

(٧٦) **تقرير قنصل بريطانية في مصر لسنة ١٩١٢م**، ترجمة وطباعة المقطم، سنة ١٩١٣م، ص ٨٠·

(٧٧) **المصدر نفسه**، ص ٨٤·

(٧٨) **الأهرام**: ١٠ تموز، ١٩١٣ (نص منشور كاملاً)·

(٧٩) **الأهرام**: ٢٦ آب ١٩١٣· وانظر: ٢٧ آب، ١٩١٣·

(٨٠) **الأهرام**: ١٩ آب ١٩١٣·

(٨١) **الأهرام**: ٦ تشرين الأول ١٩١٣·

(٨٢) **الأهرام**: ٢١ تشرين الأول ١٩١٣·

(٨٣) **تقرير قنصل بريطانية في مصر لسنة ١٩١٣م**، ترجمة وطباعة المقطم، سنة ١٩١٤، ص ٩٤· ولم يذكر نوع الوباء·

(٨٤) **الأهرام**: ١٩ تشرين الثاني ١٩١٣· كانون الأول ١٩١٣· وانظر: **سجلات عابدين**، وارد عربي، س/٥/١٠/٣، ص ٧٣¯٧٤·

(٨٥) **المصدر نفسه**، ص ٧٤¯٧٨·

(٨٦) **سجلات عابدين**، وارد عربي، س/٥/٢٠/٢٢، ص ٦٨·

(٨٧) **تقرير قنصل بريطانية في مصر لسنة ١٩١٣م**، مصدر سابق·

(٨٨) **مجلس الوزراء**: (البيت الحاكم، تقارير عامة) محفظة رقم ٥/ب، المعروض على الخديوي بشأن المحمل لسنة ١٩١٤م، بتاريخ [٣ رجب ١٣٣٢هـ/ ٢٨ أيار ١٩١٤م]، ص ١-٦؛ الوثائق ١٠-١١٤.

(٨٩) **المقطم**، ٢٣ حزيران ١٩١٤، ٢٧ حزيران ١٩١٤.

(٩٠) **الأهرام**: ٢٥ أيلول ١٩١٤.

(٩١) عباس حلمي الثاني عهدي **(مذكرات خديوي مصر الأخير)** ترجمة جلال يحيى، مراجعة إسحاق عبيد، تقديم أحمد بعد الرحيم مصطفى، دار الشروق، القاهرة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص ٢٧٥.

(٩٢) **الأهرام**: ٨ أيلول ١٩١٤.

(٩٣) **الأهرام**: ٢٥ أيلول ١٩١٤.

(٩٤) **المؤيد**: ١٩ و ٢١ أكتوبر ١٩١٤.

(٩٥) **المؤيد**: ٥ تشرين الثاني ١٩١٤.

(٩٦) **المقطم**، ١٤ تشرين الثاني ١٩١٤.

(٩٧) **المقطم**، كانون الأول ١٩١٤.

(٩٨) **الأهرام**: ٢٦ تموز ١٩١٦.

(٩٩) **المقطم**، ٨ آب ١٩١٦.

(١٠٠) **الأهرام**: ٧ تشرين الأول ١٩١٦.

(١٠١) **الأهرام**: ٧ تشرين الأول ١٩١٦. Ronal Storrs: Orientations, Nicholson and Watson Limited, London, 1937, p. 202

(١٠٢) **الأهرام**: ٢ أيلول ١٩١٦.

(١٠٣) **الأهرام**: ١٨ أيلول ١٩١٦. القبلة ١ ذي الحجة، ١٣٣٤.

(١٠٤) القبلة: المصدر **نفسه**، **الأهرام**: ٥ تشرين الأول ١٩١٦.

(١٠٥) **الأهرام**، المصدر نفسه.

(١٠٦) **الأهرام**: ١١ تشرين الأول ١٩١٦.

(١٠٧) **المقطم**: ١١ تشرين الأول ١٩١٦. The Arab Builetin: Bulletin of the Arab Bureau in Cairo,1916-1919, with a new introduction and explanatory .notes by Dr Robin Bidwell Archive Editions, 1986, Vol. 1 No. N. 28, p.398.

(١٠٨) **الأهرام**: ٢٥ تشرين الأول ١٩١٦. Ibid.

(١٠٩) **الأهرام**: ٢٦ تشرين الأول ١٩١٦.

(١١٠) القبلة ١٩ رجب، ١٣٣٥هـ.

(١١١) القبلة ٣٠ رجب، ١٣٣٥هـ.

(١١٢) **الأهرام**: ٢ أيلول ١٩١٧.

(١١٣) **سجلات عابدين**، وارد عربي، س/٥/٨/٨٤، ص ٨٤؛ وصادر تلغرافات، **الأهرام**: ١٤ و ١٥ أيلول ١٩١٧. **المقطم**، ٢١ آب، ١٩١٧. ١٣ أيلول، ١٩١٧.

(١١٤) **الأهرام**: ٢ أيلول ١٩١٧.

(١١٥) **الأهرام**: المصدر نفسه ١٩١٧. ٢٩ ب ١٩١٧. **المقطم** ٤ أيلول ١٩١٧.

(١١٦) **المقطم** ٥ أيلول ١٩١٧.

(١١٧) **الأهرام والمقطم** في ٣ تشرين الأول، ١٩١٧. ونقلته القبلة في ١ محرم ١٣٣٦هـ.

(١١٨) Arab Bulletin, Vol.3,1918 No. 107, December 6*N* p 361.

المسألة الجزائرية في ظل حكومة الجبهة الشعبية الفرنسية مع مشروع بلوم – فيوليت ١٩٢٦–١٩٣٨

الدكتور إبراهيم مهديد
قسم التاريخ
جامعة وهران – السانيا

تمهيد:

رأت مختلف الأوساط الجزائرية والاتجاهات الوطنية مع ارتقاء الجبهة الشعبية إلى رئاسة الجمهورية، فاتحة عهد جديد بالنسبة لهم معتقدين في إصلاحات سياسية كبيرة، خصوصاً بعد أن اطلع الرأي العام على وجود "موريس فيوليت" (Maurice Viollette) داخل الحكومة كوزير للدولة.

كان فيوليت قد تقدم عام ١٩٣٣، باقتراح قانون إلى مجلس النواب الفرنسي ينص على منح الجنسية الفرنسية لبعض الفئات المدنية والعسكرية من المسلمين، وعلى منح المسلمين الجزائريين عموماً بعض الحريات بصورة تدريجية، والبرلماني "فيوليت" والحاكم العام السابق للجزائر كان قد أشار في كتابه "هل تحيى الجزائر"[١]، "أن تجربة ١٩١٩ أظهرت أن الجزائريين الذين حصلوا على حقوق المواطن الفرنسي لم يتخلوا عن دينهم ولا عن وسطهم المسلم... بل حافظوا على تقاليدهم وعاداتهم القديمة... ونستطيع أن نؤكد بشكل عام، أن التجنّس كان يلتمس لفائدة وظيفية أو مهنية بالدرجة الأولى"[٢].

وبناءً على هذا الواقع، وضعت الحكومة اليساريين بوجود "ليـون بلـوم" "مـوريس فيوليت" في الحكم، مشروعاً مطوراً لمشروع ١٩٣٣، تجاوباً منها مع الحركة المطلبية التي مثلها المؤتمر الإسلامي الجزائري من جهة، والوضع العام المتوتر في الجزائـر من جهة ثانية، ووجود هذين السياسيين في الحكم، كان يعكس حتماً تقديم مشـروعهما السياسي للمناقشة في البرلمان، وهو المشروع الذي ينويان تطبيقه في صالح بعـض الفئات من الرعايا الفرنسيين في الجزائر[٣]، لتمارس الحقـوق السياسـية الممنوحـة للمواطنين الفرنسيين، دون أن يترتب على ذلك أي تغيير في أحـوالهم الشخصـية أو حقوقهم المدنية.

ويتطرق مشروع "دبلوم – فيوليت" إلى نقطتين جوهريتين وهما:

أولاً: ارتقاء المسلمة إلى المواطنة الفرنسية؛ وقدرت بـ ٢١٠٠٠ شخص[٤].

ثانياً: ممارسة الأهالي لحقوقهم السياسية.

وكان يعني هذا من ناحية، تمكين "الأهالي الجزائريين" من التحول للهيكل الانتخـابي الموحد مع الفرنسيين.

١ – قبول المشروع من طرف النواب المسلمين الجزائريين والشيوعيين:

ولقد أثارت عملية تقديم المشروع المذكور أمام البرلمـان الفرنسـي، حميـة جميـع الأحزاب والمنظمات السياسية على مستوى الجزائر، الوطنية منها والأوروبية، وكان لموقف المعمرين الفرنسيين المعارض والمقاوم للمشروع، وهم الذين رأوا فيه الخطر الداهم الذي يهدد وجودهم، والوسيلة التي تمكن "الأهالي" بأن يغمـروا كـل الهياكـل الانتخابية الموجودة. كان لهذا الموقف أكبر الأثر لاقتراب النـواب المسـلمين مـن تشكيلات الجزائريين التابعة للمؤتمر الإسلامي والتي جندت قواها مؤديـة للمشـروع طيلة شتاء ١٩٣٧.

وعلى مستوى عمالات الجزائر الثلاث (وهران، العاصمة، قسنطينة)، فلا يمكن تمييز الرأي العام الجزائري هناك عن موقف الفئات الاجتماعية والاتجاهات السياسية الجزائرية فيما يخص التأييد للمشروع وما أثاره من اندفاع حماسي عندهم(٥). ونفس الحماس والتأييد نلقاه بشكل عام عند الأحزاب والمنظمات اليسارية الأخرى، والتي تشكل "التجمع الشعبي" (Le Front Populaire) على مستوى عمالة وهران. ولذلك لا بدّ من إثارة الصراع حول هذا التأييد، أو الرفض أو التحفظ، من قبول "المشروع المشهور"، من طرف جميع هذه الأحزاب والمنظمات التي أوردناها داخل هذه العمالة أو على مستوى وطني.

فمن ناحية أخذت الأحزاب اليسارية المختلفة بواسطة لسان حالها: "وهران الجمهوري" (Oran Républicain)، موقفها التأييدي المطلق لمناقشة المشروع المذكور وضرورة تطبيقه منذ بداية شهر فبراير ١٩٣٧. ولقد سخّرت وسيلة إعلامها الإيديولوجية "هته"، إضافة إلى صحافة مماثلة لأحزاب يسارية معروفة على مستوى القطاع الوهراني، لتجنيد الرأي العام الأوروبي والجزائري حول ذلك المشروع(٦).

فالوضع الحالي في الجزائر في نظر اليسار، كان يتصف "بالظلم الكبير" الذي يعيش فيه الجزائريون. وإن حلّ المسألة لا يمكن في الهيئات الانتخابية المنفصلة لدى الجزائريين، كما نادى به مشروع السيناتور "سوران" (Saurin)، و"دوريو" (Doriot) وغيرهم مثل "دورو" (Duroux)، و"غورنو" (Guernut)، لكن بعملية تساوي الأجناس البشرية في الجزائر، وهو ما يستطيع مشروع فيوليت تحقيقه منفرداً(٧). فحسب الأحزاب اليسارية إذاً، إن "مشروع فيوليت" التجنّس، هو الاندماج التدريجي لعناصر السلالات الموجودة في الجزائر(٨).

والمحلل للخطاب الإيديولوجي المحلي، وعلى مستوى الجزائر، داخل الصحافة بصورة مميزة، وعن طريق التدخلات في الاجتماعات والمهرجانات السياسية، يرى تركيز الأحزاب اليسارية – ولو بشكل متفاوت فيما بينها– على حل المسألة الجزائرية

باعتبارها قضية تطوير للعلاقة بين الفرنسي والجزائري، بل للوحدة الفرنسية· ولذلك لابدّ من تحديد موقف الاختبار، في نظر اليسار بين حصول الجزائريين على المواطنة الفرنسية في إطارهم الخاص، وبين الوطنية المتطرفة· أي إن رفض أحد الأمرين يؤدي بالضرورة إلى تطور الأمر الآخر· وهكذا فإذا تمّ التصويت على مشروع بلوم – فيوليت فإن حاجزاً سوف يُقام ضدّ الحركة الاستقلالية حركة نجم الشمال الإفريقي النامية، أي إن رفض دخول الجزائريين في الأمة الفرنسية هو "دفعهم للبحث عن أمة أخرى"·

وفي هذا الصدد تجدر الإشارة إلى حماس واندفاع كتلة الجمعيات الإسلامية لعمالة وهران" التابعة للشيخ السعيد الزاهري، والمتعاطفة مع الحزب الشيوعي، بجانب الأحزاب اليسارية، لتنشيط وسط الجماهير بعقدها الاجتماعات ومشاركتها في التجمعات، خصيصاً لتعبئة الرأي العام عبر العمالة في صالح تطبيق مشروع بلوم – فيوليت· وغالباً ما كانت تتميز تدخلات الكتلة ضدّ "أساليب الفاشية" المحلية مع "لامبر"، و"بيلا"، وفضح "دور الإدارة الاستعمارية" المتواطئة مع الكولون لمنع الإصلاحات· فكان الزاهري يذكر دائماً أن "فرنسة سوف تفقد الجزائر في حالة عدم تحقيق بعض الإصلاحات، وإذا لم تلغِ القوانين الاستثنائية في الجزائر"(٩)·

وتعبئة كتلة الجمعيات الإسلامية من أجل تطبيق مشروع بلوم – فيوليت يلمس في استطاعة رئيسها – محرر الصفحة العربية في جريدة "Oran- Républiquain" – وعناصرها الشيوعية كبوصحبة قدور (بلقاسم) ومنظمتها الشيوعية "لجنة الدفاع عن الأحياء العربية" في عقد بعض الاجتماعات الهامة خلال شهر يناير ١٩٣٧، والتي كانت تجمع من ٨٠٠ إلى ٤٠٠٠ مستمع؛ حيث رفعت جمعياتها المتعددة شعارات ومطالب وطنية مثل "التعليم الرسمي للغة العربية··· والحياة الكريمة، والتطور··· ومقاومة قانون الأهالي والقوانين الاستثنائية··· ومقاومة الفقر··· والجهل"(١٠)·

والملاحظ بالنسبة لهذه الكتلة، أن تجندها للمطالبة بالإصلاحات وبشكل خاص المطالبة بتطبيق مشروع فيوليت، والتمثيل النيابي الموسع، اتصف بالنفس الطويل طوال بقاء الجبهة الشعبية في الحكم.

أما "فيدرالية النواب المسلمين الجزائريين على مستوى العمالات" فقد وافقت على مشروع بلوم – فيوليت في اجتماعاتها مع بداية يناير كتلك المنعقدة بدار بلدية مدينة وهران والذي حضره ممثلو جميع المؤسسات من نواب على مستوى الجماعات والبلديات والمجلس العام والمفوضيات المالية. وفي هذا الاجتماع تم التصويت بالإجماع على عدة اقتراحات استنكرت مشروع "سوران" (Saurin)، وفضحت "ممارسة بعض شيوخ البلديات التي لا تطاق"، وهي التي تسعى "بالتهديد والابتزاز لحمل النواب المسلمين على الموافقة على أسلوب تمثيلي يتنافى مع طموحاتهم"[(١١)]؛ كما ندّدت اقتراحات النواب من جهة أخرى "بالهجومات الدنيئة ضد المؤتمر الإسلامي الجزائري"[(١٢)]، وأشارت أن فدرالية النواب المسلمين في الغرب الجزائري "تلح لميثاق هذه المنظمة بثقتها وتعاطفها الصادق اتجاهها، ونؤكد لها انضمامنا الكامل لميثاق المطالب الذي أعدته".

كما أن الفيدرالية تتمنى "رؤية تحقيق هذه المطالب من طرف حكومة الجمهورية في أقرب وقت"[(١٣)].

ولقد اتخذت فيدرالية النواب المسلمين في هذا الاجتماع قرارها الذي جاء فيه: "إنها تكلف كل عضو من أعضائها بالتعاون مع لجنة المؤتمر الإسلامي لضم وتنظيم السكان المسلمين الموجودين في منطقته... لتحقيق [مطالب ميثاق المؤتمر الإسلامي الجزائري]"[(١٤)].

وصراع النواب المسلمين من أجل التمثيل النيابي وتحقيق مطالب المؤتمر التي احتضنها شق في مشروع بلوم – فيوليت استمرت طيلة شتاء ١٩٣٧، وحتى مجيء لجنة التحقيق الحكومية التي رأسها السيناتور "لاغروزيليير" (Lagrosillière) إلى

الجزائر، وذلك في شهر مارس. ولقد لوحظ خلال شهر يناير انعقاد اجتماعين من طرف النواب المسلمين في كل من تلمسان (١٠ يناير)[١٥]، وعين تموشنت (٢٢يناير)[١٦]، برزت فيهما مطالب التمثيل النيابي وضرورة تطبيق مشروع بلوم – فيوليت وتحقيق ميثاق المؤتمر الإسلامي الجزائري.

وانفرد النواب المسلمون من جهة أخرى بحملاتهم المتواصلة ضد مواقف شيوخ البلديات بالنسبة للمشروع المذكور ومناوأته، الأمر الذي دفع الدكتور ابن جلول إلى إصدار نداء من "أجل الوحدة" وتكوين وفد للسفر إلى باريس يوم ٢٤ فبراير ١٩٣٧. ولقد شارك في هذه اللجنة المشتركة (١٥ عنصراً من القطاع القسنطيني و٣ من قطاع العاصمة) ونواب من القطاع الوهراني مثل الحاج حسن باشطرزي ولالوت، والشدالي بغدادي، وذلك من أجل مناقشة الموضوعين الهامين: مشروع فيوليت، وميثاق مطالب المؤتمر الإسلامي الجزائري. أي إن اشتراك النواب المسلمين ظل فعالاً داخل المؤتمر الإسلامي في هذه العمالة[١٧]، بالإضافة إلى نضال بعضهم داخل الأحزاب اليسارية الأخرى[١٨].

نشطت فروع المؤتمر الإسلامي على مستوى العمالة هي الأخرى في غمرة هذه الظروف ونظمت بعض الفروع القوية عدة مهرجانات واجتماعات، توجت بعضها باقتراحات تلح على ضرورة تحقيق مطالب "م. إ. ج" وأخرى بالتأييد للحكومة الشعبية ومشروع بلوم – فيوليت الموسع. ومن بين هذه المهرجانات والاجتماعات نشير إلى:

١– اجتماع لجنة "م.إ.ج" في غليزان في ١٤ نوفمبر وبداية ديسمبر ١٩٣٢٦[١٩]، حيث عولجت مسألة توسيع التمثيل المتضمنة في المشروع المعروف واتخاذها كخطوة أولى للحصول على الحقوق السياسية الكاملة، مع المحافظة على الحالة الشخصية الإسلامية.

٢– اجتماع لجنة تلمسان في ١٠ يناير ١٩٣٧، حيث برز كل من بوشامة والمحامين قاضي محمد، وطالب عبد السلام ابن قلفاط، و"النجمي" معروف

بومدين. ولقد ركز المتخلون على مطالب "م.إ.ج." أمام حوالي ١٠٠٠ مستمع. وصوت في بدايته على جدول أعمال،/ رفضها ممثل النجم منفرداً[٢٠].

٣- اجتماع لجنة الغزوات برئاسة سفوني بن عمر وحضور ٨٠٠ مستمع الذي تميز باستنكار الحملات الدنيئة من طرف أعداء المسألة الإسلامية والجبهة الشعبية.

٤- اجتماع لجنة "م.إ. ج." والجبهة الشعبية في بني صاف، حضره شيخ البلدية كونزاليس، والسيناتور "دوبوا" (Dubois)، ووفد من المؤتمرين التلمسانيين كبوشامة، والشيخ الهادي سنوسي وبادسي، والمحامي قاضي، وذلك يوم ١٥ يناير، فأشارت التدخلات إلى "إساءات فرنسة المستبدة، وإلى الظلم في الجزائر[٢١]، كما وجهت نداءات لاتحاد المسلمين لانعتاقهم[٢٢].

٥- اجتماع كل من لجنة معسكر ومستغانم في ١٧ يناير[٢٣]، والذي حضره حوالي ٣٠٠٠ مستمع منهم ٣/٤ من المسلمين، سجلت فيها تدخلات "بوتارم" و"ابن عيسى" و"ابن سعدون" و"شمريك" و"الطاهر"، نددت كلها بحملات الصحافة اليمينية و"النواب الرجعيين" ضد مشروع بلوم - فيوليت ومطالب المؤتمر الإسلامي.

٦- اجتماع لجنة تيهرت وسبدو في ٢٤ يناير.

٧- اجتماع لجنة مغنية في ٢٥ يناير.

٢- جمعية العلماء المسلمين الجزائريين "بين الجنسية القومية والجنسية السياسية":

في هذا الإطار، لا بدّ من إثارة موقف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من المشروع الحكومي المذكور، ذلك أنه بعد إقدام العلماء في حركتهم الإصلاحية للدفاع

عن حقهم في القضاء والتعليم، ومطالبهم بإعداد القضاة والمعلمين في مدارس تلقن الفقه والعربية، وترعى تراثهما، فبعد الدفاع عن شروط عملهم، انتقل العلماء في دعوتهم لمعالجة المشكلات المختلفة على المستوى السياسي الجزائري؛ بمعنى أن حركة "ج. م. ع. ج" تأسست رسمياً وبمسؤولية منذ مشاركتها في التنظيم والإشراف على المؤتمر الجزائري وإعداد مطالبه الوطنية.

وإذا كان المؤتمر المذكور قد طرح "مسألة إلحاق الجزائر بفرنسة" وضمن موافقة العلماء على هذا المطلب رغم معارضتهم للدمج والتجنّس الذي يعتبرونه محواً للشخصية الوطنية، فإنهم كانوا يفرقون في تبريرهم المؤيد للإلحاق، "بين الجنسية القومية والجنسية السياسية". «فالجنسية القومية في فهمهم، هي شاملة للمقومات والمميزات التي يتمتع بها الشعب والمتمثلة في اللغة التي يعرب بها ويتأدب بآدابها، والعقيدة التي يبني حياته على أساسها والذكريات التاريخية التي يعيش عليها وينظر لمستقبله من خلالها، والشعور المشترك بينه وبين من يشاركه في هذه المقومات والمميزات»[٢٤].

ففي نظر العلماء "أن الأمة الجزائرية تتمتع بجميع المقومات والمميزات لجنسيتنا القومية... أنه من المستحيل إضعافاً فضلاً عن إدماجنا"[٢٥]، ورغم المطالبة بالإلحاق. أما بالنسبة "للجنسية السياسية"، فيرى العلماء «أن يكون لشعب ما لشعب آخر من حقوق مدينة واجتماعية وسياسية، مثل ما كان عليه مثل ما على الآخر من واجبات، اشتراكاً في القيام بها لظروف، مصالح ربطت ما بينهما»[٢٦].

فالموافقة على الإلحاق إذاً، جاءت رغبة في حصول الجزائريين على الحقوق التي يتمتع بها الفرنسيون، محافظين على مميزاتهم الشخصية والمطالبة بجميع الحقوق السياسية التي أقرها المؤتمر الجزائري الإسلامي[٢٧].

وموقف ممثل العلماء في الغرب الجزائري من مشروع فيوليت، يعكس لنا موقف "ج.ع. م.ج" المتحفظ والغير مندفع نحو المشروع الحكومي الحالي. فقد أشار البشير

الإبراهيمي "أن مشروع فيوليت صنع بناء على اعتبارات سياسية دقيقة، ووضعه في ألفاظ، استهوتا نخبة من الجزائريين وشبابهم"، إلا أنه يحمل "معانٍ غامضة ··· ويحمل ردودها كثير من الاحتمالات والتغييرات، ومنها ما يعدّ في الاعتبار النفسي الجزائري من الشعيرات"(٢٨).

أما رئيس العلماء المسلمين الجزائري الشيخ عبد الحميد ابن باديس فقد رأى في المشروع شهر فبراير ١٩٣٧ محرراً بالشهاب، " أنه لا يمنح رضى الأمة الجزائرية الكامل، وأنه لم يقبل إلا كخطوة أولى نحو المساواة الكاملة"(٢٩)· بين الفرنسيين والجزائريين·

تبرز النتيجة في الأخير، أن التأييد الذي حظي به مشروع بلوم – فيوليت على المستوى المحلي شتاء ١٩٣٧، كان مقروناً في أغلبية المناسبات السياسية الوطنية، بمطلب توسيع أحكام هذا المشروع التمثيلية والسياسية في صالح الجزائريين؛ وأخذه كقاعدة نحو الحصول على المساواة الكاملة، وبمطلب تحقيقي ميثاق المؤتمر الإسلامي الجزائري، وبنقد الممارسات الإدارية الاستعمارية التعسفية·

على أن مسألة التصويت على مشروع بلوم – فيوليت ظل في أعين المسؤولين السياسيين الجزائريين عموماً رمزياً فقط كما أشار إلى ذلك "طالب" – رئيس م· ج· إ· بعد استقالة بشير – في بداية مارس ١٩٣٧(٣٠)، وغيره من مسؤولي فروع المؤتمر أو على مستوى ج· ع· م· ج· والمناضلين· أي إن المشروع ظل "مشبوهاً" عندهم بنقائصه·

ولقد أصابت جريدة "الأمة" المزابية عندما أشارت إلى تلك المواقف المختلفة في الأوساط السياسية، بقولها:

«كثير من جماعات المسلمين يقفون أمام هذه الحوادث موقف الحياد· فمنهم "من يرى هذه المشاركة (في الانتخابات البرلمانية)، إنما هي سير جديد في " طريق الاندماج مع الفرنسيين ولو مع المحافظة على الحالة الشخصية" الإسلامية، ومنهم من يرى أن هذا

الإصلاح لا يفيد الجزائر شيئاً، لأن "هذه المملكة المستقلة في ماليتها – أي الجزائر – فالأوفق أن تطلب المساواة مع "النواب الفرنسيين في المجلس النيابي الجزائري. ومنهم من يرى غير ذلك، "لكن النواب الذين يمثلون الأمة في المجالس المحلية فقد أجمعوا على تمجيد "مشروع فيوليت الذي هو مشروع الحكومة. وإجماعهم هذا له تأثيره الكبير لا محالة»(٣١).

أما حقيقة الشبه والنقائص التي علقت بالمشروع الحكومي المعروف، فإنها تلمس على وجه الخصوص في الدراسة والتحقيق التي أنجزها الصحافي قسوس محمد العزيز (ق. أ. ع المتعاطف مع البشير الإبراهيمي) طيلة شهر كامل ونشرها في جريدة (Oran- Républiquain) ما بين ٢٢ و ٢٦ مارس ١٩٣٧.

وهذه الدراسة التي اعتنت بتمثيل الجزائريين المسلمين في البرلمان الفرنسي حاولت أن تبرهن على "أن الحفاظ على الحالة الشخصية الإسلامية للجزائريين هو من روح القانون الفرنسي أصلاً وتاريخاً" و"أن قضية المساواة والقانون الإسيجابي ومصلحة الطبقات المسلمة ومصلحة الأمة العليا تتطابق فيما بينها بتحقيق المشروع بل بتوسيعه الضروري سياسياً واقتصادياً واجتماعياً في صالح الجزائريين لنزع تلك الشبهات والشكوك"(٣٢). وتوصلت الدراسة في النهاية إلى التالي: «أن مشروع فيوليت هو شيء حاضر، ناقص، لكنه لقي القبول. فإذا رُفض فإنه سيترك ذكرى خيبة أمل خطيرة، وإذا تم التصويت عليه فإنه سيعطي ارتياحاً ذهنياً كبيراً، بدون أن يحقق أي شيء، ولكنه سيسهم في خلق مناخ مناسب من أجل تغيير ديمقراطي في الجزائر. إذاً فالعمل الجاد يجب أن يبدأ...»(٣٣).

وتستمر هذه الدراسة في تحليلها بأن أي فشل بالنسبة لقبول المشروع الحكومي يؤدي حتماً إلى "الخيبة" أي إلى "الوطنية" و"الانفصال". وهو ما ذكرت به دائماً "كتلة الجمعيات الإسلامية" للشيخ السعيد الزاهري وفدرالية النواب المسلمين لعمالة وهران

والأحزاب اليسارية المكونة "للتجمع الشعبي" (Le Rassemblement Populaire) محلياً· ومنها مناضلي الحزب الشيوعي الجزائري على وجه الخصوص(٣٤)·

وكما هو متوقع، كان ردّ فعل المعمرين على مستوى عمالة وهران و- الجزائر - تجاه مشروع بلوم - فيوليت أن حاولت أجهزتهم السياسية المختلفة والمتعددة عرقلة أي إصلاح يكون في صالح الجزائريين· فتجندت "فيدرالية شيوخ بلديات العمالة" (Fédération des maieries) مبكراً منذ أن طرح المشروع الحكومي أمام البرلمان، كما جندت وسائل إعلامها المختلفة ومنظماتها وجمعياتها لإحباط المشروع الحكومي· وكان على رأس تلك المعارضة أكبر منظمة سياسية تمثلت في "التجمع الوطني للعمل الاجتماعي (Rassemblement national d'action sociale) التي يرأسها شيخ بلدية وهران غابرييل لامبير (Gabriel Lambert)، قبل أن يتقلد كل من الحزب الشعبي الفنرسي (Le parti Populaire Français) والحزب الاجتماعي الفرنسي (Le parti sociale Français) بعد انغراسهما في القطاع الوهراني دور المناهض للمشروع الإصلاحي، طيلة حكم الجبهة الشعبية(٣٥)·

٣- حزب الشعب الجزائري يرفض المشروع الحكومي ويحاربه:

والجدير ذكره فيما يخص المواقف من طرح مشروع بلوم - فيوليت، هو معرفة رفضه من طرف الحزب الوطني، نجم الشمال الإفريقي وحزب الشعب الجزائري، ومحاربته لفكرة المشروع قبل إعلانه، اذلك أن "حزب النجم" كان الطرف الوطني الوحيد الذي هاجمه ورأى فيه "الخطر الكبير الذي يهدد الوحدة الجزائرية" ولذلك ناشد الشعب الجزائري في تاريخ مبكر للوقوف ضده(٣٦)·

ففي نظر المسؤولين النجميين تبدأ خطورة الاندماج والتفرقة دخل "الأمة المسلمة" من "العشرين ألف من الأهالي الجزائريين الذين اختيروا ليصبحوا مواطنين فرنسيين"· فهؤلاء ينتمون في أغلبيتهم تقريباً إلى «فئة البرجوازيين التجاريين وكبار "العقاريين الزراعيين والعناصر المثقفة والطرقيين، إذ اعتنى بصورة مميزة بالمدرسين والأساتذة

والأطباء والعسكريين... والمتطوعين في الجيش والقياد والأغوات والباشوات (وغيرهم)". فالمناورة العقيمة بصورتها هتة، تكمن في عملية "الياس عشرين ألفاً من الأهالي لباس المواطنة الفرنسية؛ فأسلوب الاستغلال الجديد الذي استحدثه فيوليت هو دفع الفئة – المميزة – في وجه الست ملايين أهلي مسلم والذين هم ما زالوا رعايا فرنسيين»[٣٧] قانونياً.

وفي هذا الإطار جنّد "النجم" صحيفته "الأمة" وكثف من إصدار المناشير التي تدين محتوى مشروع فيوليت من الناحية الوطنية، ففي "عقيدة النجم" «إن اندثار مقومات الشعب الجزائري تبدأ من قبول المشروع الحكومي. فلذلك لا يمكن للعشب الجزائري أن يقبل تحت أي شكل كان، محوه وذوبانه عن طريق الاندماج، فوحدة هذا الشعب نفس اللغة والدين والعادات والتقاليد، تفرض عليه أن لا يتنازل عن جنسيته – العربية الإسلامية – من أجل ورقة تصويت، لذلك فإنه سيبقى كتلة متراصة بجميع فئاته، سيقود الصراع (المعركة) المنظم لنزع حريته الوطنية»[٣٨].

فهدف المشروع الحكومي في نظر "حزب النجم" هو الوصول إلى تحويل الجزائر إلى أرض فرنسية يستطيع خلالها الاستعمار أن يوسع من سيطرته وهيمنته الاستيطانية.

ومقابل معارضة المشروع الحكومي نجد نجم الشمال يطالب كعادته، ببرلمان جزائري منتخب بالاقتراع العام. وهذا المطلب المتداول متشابه خلال ١٩٢٧ و١٩٣٣ و١٩٣٧، سيبقى فكرة مسيطرة وأساسية عند النجم وحزب الشعب الجزائري من بعده[٣٩].وفي أثناء تأسيس "حزب الشعب" نجد مكتبه السياسي يستنكر من جديد أسلوب الاندماج والتجنيس، في صالح "سياسة تستهدف تحرر الجزائر للحصول على استقلالها الداخلي، وسياسياً وإدارياً، واقتصادياً... للانضمام بكل حرية داخل أسلوب أمن جماعي لفرنسة في البحر الأبيض المتوسط"[٤٠]. ويعتبر هذا الاستقلال الداخلي كمرحلة نحو الاستقلال الكامل للجزائر وهو ما اصطلح على تسميته في هذه الفترة بالدومنيون.

لذلك فإن النجم سيذيع بلاغه إلى الشعب الجزائري في ١٣ نوفمبر ١٩٣٦، ومباشرة بعد انعقاد المؤتمر الإسلامي الجزائري الأول وظهور المطالبة، ومباشرة بعد صدور قرار مجلس الوزراء الفرنسي (يوم ١٥ أكتوبر ١٩٣٦)، الذي يلح فيه على ضرورة التقدم بمشروع يمنح حق الانتخاب البرلماني للمسلمين، فجاء هذا البلاغ حينئذ كرد فعل قوي لما ورد، ليؤكد ما يلي: «نطلب لك برلماناً جزائرياً يضمن لك ذاتيتك وحقوقك أمام الأغلبية الساحقة من المستعمرين، ولا نريد إذلالك على يد أقلية ضئيلة في البرلمان الفرنسوي لا ينجو ضمائرهم من عبث العابثين... ولا نطلب إلحاقك بفرنسة لتكون فرنسوياً عزيزاً كما يقولون»(٤١).

واستمر هذا البلاغ في الشرح «إن مبادئ حزبك الوطني – أي النجم – الذي أسس على الملية من أول يوم، هو السعي لتحريك بالطرق المشروعة في دائرة إسلامك وجنسيتك الغالية المتألقة في بطون الأجيال والدفاع عن كرامتك والذود عن حماك في محيط ذاتيتك الشريفة المقدسة. تلك هي مبادئنا التي فطرنا عليها وأنشأنا عليها، وقدمناها للحكومة في كراس يوم ٢٣ جوان ١٩٣٦، بواسطة وفد من رجالنا وعليها نبقى، وعليها نحيا، وعليها نموت، إن وجب الموت»(٤٢).

وتصادف رفض المشروع الحكومي الرسمي من طرف نجم الشمال الإفريقي قاعدياً وذلك بمواجهة فروعه المنغرسة في المدن الجزائرية خلال هذه الفترة كلاً من طروحات لجان المؤتمر الإسلامي الجزائري والجبهة الشعبية مثلما حصل في تلمسان يوم ١٠ يناير ١٩٣٧، وذلك بمناسبة مشاركة فرع هذه المدينة في اجتماع نظمه "المؤتمرون" ومسؤولو الجبهة الشعبية؛ فما كان من رئيس فرع النجم – معروف بومدين – إلا أن "صرح بعدائه لجميع المشاريع المقترحة حالياً، وأنه سوف يناضل مع أصدقائه حتى الممات إن تطلب الأمر ذلك، لتحقيق انتصار أفكار نجم الشمال الإفريقي"(٤٣).

وكان لهذا التصريح أثره في تعكير سير أشغال هذا الاجتماع، خصوصاً وأن قسماً كبيراً من المعمرين الحاضرين بدأ ينادي "بحياة النجم" تنكيلاً بمطالب المؤتمر الإسلامي ومشروع بلوم – فيوليت.

وعبّر نجم الشمال الإفريقي على لسان مسؤوله في الناحية الغربية من البلاد (معروف بومدين) عن رفضه لمشروع بلوم – فيوليت عندما استجوبه قسوس محمد العزيز الذي كان بصدد جمع انطباعات شخصيات القطاع الواهراني السياسية، فوضح حينئذٍ معارضته الثابتة ومعارضة أصدقائه، مستدلاً «أن مشروع فيوليت لا يطرح القضية جيداً، وأنه لا يستطيع ... أن يوفق بين مصالح الشعب الجزائري المسلم ومصالح الشعب الفرنسي.. فمنذ أمد طويل، حصلت محاولة الإغراء بهذا المشروع لإخواننا المثقفين لتلقينهم تذوق الصبر...»(٤٤).

خاتمة:

فكل هذه المواقف المختلفة التي أتينا عليها مؤيدة للمشروع الحكومي والمتحفظة منه والرافضة له على الإطلاق، سوف تتبلور أكثر فأكثر عندما تُقدم الحكومة الفرنسية على حل نجم الشمال الإفريقي في المستقبل، وتعزم على إرسال لجنة تحقيق في الجزائر مع بداية ربيع ١٩٣٧برئاسة السيناتور "لاغروزيلييز"، الأمر الذي سيبلور مرة أخرى صراع الحركة الوطنية في الجزائر حتى خريف ١٩٣٧.

تنبيه لبعض المختصرات الواردة في النص:

(ط): طبعة	
(ص): صفحة	
(م): محلة	
نش (نشرة) «....	Bull (Bulletin) « ……..
(صص) من صفحة...إلى صفحة...	p.p de la page à la page
سلسلة "هـ"	Série « H »
(أش.بر) الأشغال البرلمانية	Travaux -Les- parlementaires
(أ.ف) إفريقيا الفرنسية	(A.F) Afrique (L') Française
(أ.م.ب.بآكس) أرشيف ما وراء البحار بآكس أون بروفانس (فرنسا)	(C.A.O.M) Centre des Archives d'Outre-mer à Aix-en Provence
(ت.ف.ا.ج) التجمع الفرنسي-الإسلامي الجزائري	(R.E.M.A) Rassemblement (Le) Fronco-Musulman Algérien
(ج.ش) الجبهة الشعبية	(F.P) Front (Le) Populaire
(ج.ع.م.ج) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين	(U.O.M.A)
(ح.ش.ج) حزب الشعب الجزائري	(P.P.A) Parti du Peuple Algérien
(ف.ن.م) فدرالية النواب المسلمين	(F.E.M) Fédération (La) des Elus Musulmans
(ف.ن.م.ق.ق) فدرالية النواب المسلمين للقطاع القسنطيني	(F.E.M.C) Fédération (La) des Elus Musulmanes du Constantinois
(ف.ن.م.ق.و) فدرالية النواب المسلمين للقطاع الوهراني	(F.E.M.O) Fédération (La) des Elus Musulmans de l'Oranie
(ل.ع.ا.ع.و) لجنة العمل الإسلامي لعمالة وهران	(C.A.M.O) Comité (Le) d'Action Musulmane de l'Oranie
(م.م.و.و) مديرية المحفوظات بولاية وهران	(D.A.W.O) Direction -La- des Archives de la Wilaya d'Oran
(م.ا.د) (ح.ع) مركز الاستخبار والدراسات (الحكومة العامة)	(C.I.E.G.G.A) Centre (le) d'Information et d'Etude du Gouvernement Général d'Algérie
(م.ا.د) (ع.و) مركز الاستخبار والدراسات (عمالة وهران)	(C.I.E.P.O) Centre (le) d'Information et d'Etude du Préfecture d'Oran.

الهوامش

(١) Viollette (M) l'Algérie vivrail-elle? Paris, 1931, p. 503.

(٢) **نفس المصدر** أعلاه، ص ٤٢٦.

(٣) من موظفين، حملة الشهادات، وحملة أوسمة الشرف، وحملة الشهادة الابتدائية والمتزوجين من الفرنسيات... والموظفين الماليين، ونواب مجلس العمالات... طالع "ج. ر. ج. ف"، الوثائق البرلمانية، ملحق رقم ١٥٩٦، جلسة ٣٠ديسمبر ٣٦.

(٤) "لازار (ك)، (انضمام الأهالي الجزائريين إلى المواطنة الفرنسية)، فإنه يقدم عدد ٢٧٠٠٠٠ تقريباً، أي ١/١٠ الهيكل الانتخابي في المجتمع، انظر الصفحة ١١٢.

(٥) ما عدا "نجم الشمال الإفريقي" — حزب الشعب الجزائري لاحقاً— الذي عارض المشروع كما سنرى، ورأى فيه "أداة استعمارية حددت لتقسيم الشعب الجزائري"، واعتبره حاجزاً في طريق الوطنية الجزائرية.

(٦) طالع الدراسة الجامعية التي أنجزها "صوفي عواد" في هذا الباب **جريدة وهران الجمهورية والمشاكل الجزائرية ١٩٣٧—١٩٣٨**، رسالة الدراسات المعمقة، العاصمة، ١٩٧٦.

(٧) Oran- Républiquain, n° du 2 Févroirer 1937.

(٨) Idom, n° 6 du Avril 1937.

(٩) Idom, n° 25 du Avril 1937.

(١٠) طالع مثلاً تقرير ٧ يناير ١٩٣٧ (رقم ٢٨٧)، مديرية الأرشيف بولاية وهران، علبة ٤٠٦٠، أو أرشيف ما وراء البحار باكس أون بروفانس علبة ٩٤٤٧، تقرير رقم ٢٨٧، حول اجتماع ٦ يناير، من الشخصيات الحاضرة والتي تناولت الكلمة هناك، إلى جانب الشيخ محمد السعيد الزاهري بلقاسم، ورئيس الجبهة الشعبية في وهران "أوربو" والشيوعي "زنيتاسي" والراديكالي "بوجوس" والسيناتور "دوبوا" (ق.ف.أ. ع) هناك المناضل بوخدمي كمال وابن عيسى وقايد

سليمان وقسوس عبد لعزيز وبلة محمد الذي ترأس هذا الاجتماع بالنسبة لهذا الأخير تجدر الإشارة إلى دوره مع أخيه، وبكوشة حمزة في تأسيس أول صحيفة باللغة العربية في وهران، وهي "المغرب العربي" التي ستؤيد الشيخ البشير الإبراهيمي· أما قسوس عبد العزيز فسينظم إلى ممثل العلماء في غرب عندما يؤسس "كتلة العمل الإسلامية لعمالة وهران" خلال منتصف شهر فبراير القادم، واستمر نشاط كتلة الزاهري في عقدها منفردة اجتماعات أخرى مماثلة في المحمدية (١٢ يناير) وفي وهران مرة أخرى (١٥ يناير) واشتركت في عقد اجتماع مع الجبهة الشعبية في وهران يوم ١٧ ينانير أيضاً·

(١١) Oran – Martin, n° 8 Janvier 1937.

(١٢) Op. Cit. n° 8 Janvier 1937.

(١٣) Idom.

(١٤) Ibidem.

(١٥) م·أ· و· و· علبة رقم ، تقرير رقم ٩٥٧، مؤرخ في ١٨ يناير ١٩٣٧·

(١٦) م·أ· و· و· علبة رقم ٤٠٦٢، تقرير رقم ١٤٦٢،مؤرخ في ١٨يناير ١٩٣٧·

(١٧) على نقيض ما كان القطاع القسنطيني في هذه الفترة·

(١٨) Oran- Républiquain, n° du 24 Févroirer 1937.

(١٩) م·أ· و· و· علبة "النشر الإعلامية الأهلية"، عدد١٦ نوفمبر-١٥ ديسمبر ١٩٣٦·

(٢٠) أ· ا كس علبة 9H48 رقم ٣٦٢، مؤرخ في ١١ يناير ١٩٣٧·

(٢١) أ· ا كس علبة 9H48 رقم ١٦٢، مؤرخ في ٦ يناير ١٩٣٧·

(٢٢) أ· ا كس علبة 9H48 رقم ٣٦٢، نفس المصدر·

(٢٣) Oran- Républiquain, n° du 18 Janvier 1937.

(٢٤) الشهاب، عدد فبراير ١٩٣٧، ص ص ١٠٤-١٠٦·

(٢٥) **نفس المصدر**.

(٢٦) **نفس المصدر** أعلاه نفس العدد.

(٢٧) **نفس المصدر المذكور**.

(٢٨) الإبراهيمي "الشهاب" عدد يوليو ١٩٣٦، ص ٢٠٣. عن سعد الله (أ). **المرجع السابق**، ص ١٧.

(٢٩) Ageron (ch.R), l'Agérie algéienne de Napoléion III à Dagaule, Paris, Sindbad 1980, pp. 100-129.

(٣٠) Oran- Républiquain, n° du 8 Mars 1937.

(٣١) جريدة "**الأمة**" عدد ٥ ذو الحجة ١٣٥٥، فبراير ١٩٣٧.

(٣٢) Oran- Républiquain, idemi.

(٣٣) Ibidem.

(٣٤) ذكر المناضل باديسي محمد في إحدى المناسبات السياسية "أنه من المعتقد في حالة فشل الإصلاح... أن تترتب نتائج وخيمة تؤدي إلى غضب شرعي عند الأهالي" طالع م.أ. و.و. نشرة الصحافة الأهلية" لشهر أبريل ١٩٣٧، ص ٠٣.

(٣٥) Cf "Bull de la presse indigène", mois d'Avril 1937, p 3. (D.A.W.O).

للتوسع في هذا الباب تجدر مطالعة جريدة اليمين Oran- Martin و L'Echo d'Oran في هذه الفترة. طلع أيضاً جابرييل لامبر، "الجزائر ومشروع فيوليت، مطبعة بلازا وهران ١٩٣٧، ١٥٥ صفحة، "وكونير – فرنسيس، اليمين المتطرف في القطاع الوهراني ١٩٣٦–١٩٤٠. م. ت. ج. م. أكتوبر ديسمبر ١٩٣٧، ص ص ٥٦٨–٥٩٤. قارن.

Cf Courtin (H), "Contribution à l'étude de la question indigène", Alger le 15 septembre 1937 C.A.O.M- AIX- carton10 H89, Eude n 11.

(٣٦) أصدر مصالي الحاج أثناء وجوده بتلمسان خريف ١٩٣٦ البلاغ التالي : "أيها الشعب الجزائري قف في وجه مشروع فيوليت"، والذي نشرته جريدة الأمة الباريسية في يناير ١٩٣٧.

(٣٧) مصالي الحاج، المرجع السابق نفسه، ص ٢٣٩.

(٣٨) صحيفة الأمة الباريسية، عدد يناير ١٩٣٧.

(٣٩) أجرون (ش.ر)، نجم الشمال الإفريقي، والنموذج الشيوعي، ص ٢٠٧.

(٤٠) أجرون (ش.ر)، نجم الشمال الإفريقي، **المرجع السابق**، ص ٢٠٧-٢٠٨.

(٤١) م.أ.و.و. علبة ٤٤٧٥، عنوان الوثيقة "بلاغ من مصالي الحاج إلى الشعب الجزائري"، مؤرخ في ١٣ نوفمبر ١٩٣٦. لمطبعة العربية بالجزائر.

(٤٢) م.أ.و.و. علبة ٤٤٧٥، نفس الوثيقة "بلاغ الحاج مصالي إلى الشعب الجزائري.

(٤٣) C.A.O.M (AIX), cart 0H 48 rapport n 262 du 11 Janvier 1937.

حضر هذا الاجتماع جانب "معروف بومدين" من النجميين كل من ميموني محمد، وممشاوي محمد، وسنوسي غوتي، وسنوسي محمد.

(٤٤) Oran- Républiquain, n° du 8 Avril 1937.

السياسة السوفيتية في المشرق العربي
(١٩٤٨- ١٩٩١م)

الدكتور فادي خليل
كلية العلوم السياسية
جامعة دمشق

المقدمة:

ألقى الصراع ما بين الدولتين العظميين اللتين خرجتا منتصرتين من الحرب العالمية الثانية بظلاله على مجمل الأوضاع السياسية العالمية· وكان للمنطقة العربية نصيبًا كبيرًا من تأثيرات هذا الصراع حيث شغلت مركزاً ريادياً في السياسات الخارجية لكل من الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي، وأصبحت مركز اهتمام كلتا الدولتين كونها منطقة استراتيجية تشهد وفق تقديراتهما فراغاً استراتيجياً بعد ضعف السياستين البريطانية والفرنسية في وقت أثبتت فيه الاكتشافات النفطية أن المنطقة تحتوي على أكبر احتياطي نفطي في العالم، من هنا سعت الدولتان كل بطريقتها الخاصة وبالاعتماد على تحالفاتها لملء هذا «الفراغ الاستراتيجي» فيها·

وشكل ظهور القضية الفلسطينية وتطور مسألة الصراع العربي ــ الصهيوني مجالاً رحباً للدولتين العظميين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي للتدخل في المنطقة والحصول على مواقع لهما فيها·

سنحاول في هذه الدراسة إلقاء الضوء على السياسة الخارجية السوفييتية تجاه قضية الصراع العربي ـ الصهيوني منذ قيام الدولة الصهيونية على أرض فلسطين عام ١٩٤٨م وحتى انهيار الاتحاد السوفييتي عام ١٩٩١م مبينين مراحل هذه السياسة وموقف الاتحاد السوفييتي من مجمل القضايا والمشكلات التي مرت بها هذه المنطقة في الفترة المذكورة. وبيان مصالح وأهداف الإتحاد السوفييتي في هذه المنطقة الحساسة من العالم، وأثر الصراع ما بين الدولتين العظميين على الصراع العربي ـ الصهيوني، ومحاولة دول المنطقة المعنية مباشرة بهذا الصراع كسب دعم إحدى الدولتين العظميين.

كان المنطقة العربية عبر العصور ولا تزال محط أنظار الإمبراطوريات والقوى العالمية التي تطلعت للسيطرة عليها. وهذا ما جعل الباحث جورج لونزوسكي في كتابه «الشرق الأوسط في القضايا العالمية» يقول: «لا يمكن لأي سياسة خارجية رشيدة أن تتجاهل الشرق الأوسط وأثره على بقية العالم»(١).

فهذا القول لم يأت من فراغ، ويعبر عن قراءة عميقة لتاريخ هذه المنطقة من العالم في ضوء أهميتها البالغة ليس على المستوى الإقليمي فحسب، وإنما على المستوى الدولي.

إن الدول تنطلق في سياستها الخارجية من منطلق الحفاظ على المصلحة القومية وتعمل ما بوسعها للمحافظة وبشتى الوسائل على مصالحها الحيوية في العالم، فالمصلحة الوطنية حسب تعريف بروكنج «هي الأهداف العامة والمستمرة التي تعمل الأمة من أجلها»(٢).

وهكذا لم يشذ الاتحاد السوفييتي عند صياغة سياسته الخارجية عن هذه القاعدة واضعاً مصلحته الوطنية في سلم أولوياته ، ومسخراً جميع الوسائل السياسية والاقتصادية وحتى العسكرية من أجل الوصول إلى أهدافه المرجوة.

فعلى طول فترة «الحرب الباردة» كانت المنطقة العربية تشغل إحدى الأولويات المهمة في السياسة الخارجية السوفييتية نظراً لأهميتها الجيوستراتيجية في الصراعات

الدولية· وقربها من الحدود الجنوبية للاتحاد السوفييتي، ولمنع الولايات المتحدة الأمريكية من تقوية نفوذها فيها·

يمكن تقسيم تاريخ السياسة السوفييتية في المنطقة العربية زمنياً المراحل الآتية :

المرحلة الأولى: تمتد من انتصار الثورة الاشتراكية في روسيا عام ١٩١٧م حتى بداية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩م، قدّم خلالها الاتحاد السوفييتي الدعم الدبلوماسي والسياسي لدول المنطقة، فقد انطلق قائد الثورة الاشتراكية في روسيا فلاديمير اليتش لينين في تخطيط سياسته الخارجية من المبدأ الماركسي الذي يقول: «إن شعباً يظلم شعوباً أخرى لا يمكن أن يكون حراً»(٣).

كما قامت الثورة الروسية بفضح ونشر اتفاقية «سايكس ـ بيكو» السرية التي تضمنت اقتسام أراضي المشرق العربي بين الدولتين الاستعماريتين بريطانيا وفرنسا·

وفي هذه الفترة اتخذ النظام الاشتراكي موقفاً مناهضاً لما كان يسمى نظام الانتداب الذي أقره مؤتمر الصلح في باريس ١٩١٩م، وعلق عليه لينين في عام١٩١٩م بقوله: «ونحن نعلم حق العلم أنهم عندما يتحدثون عن توزيع الانتدابات على المستعمرات، فإنما يعنون توزيع الانتدابات للنهب والسلب،و إعطاء أقلية ضئيلة من سكان المعمورة حق استثمار الأكثرية من سكان الكرة الأرضية»(٤).

عندما انضم الاتحاد السوفييتي إلى عصبة الأمم عام ١٩٣٤م أبدى تحفظه على نظام الانتداب، وأكد بأن المادة الثانية والعشرين من ميثاق عصبة الأمم المكرسة للانتداب غير مقبولة لدى الاتحاد السوفييتي·

كما أعلن البلاشفة تنازلهم عن جميع المعاهدات غير المتكافئة والامتيازات التي كانت الحكومة القيصرية قد فرضتها على جيرانها من بلدان الشرق الأوسط(في عام ١٩٠٧م وقعت بريطانيا اتفاقية مساومة مع روسيا بشأن اقتسام الشرق الأوسط ووسط آسيا على شكل مناطق نفوذ وطبقاً لهذه الاتفاقية اعترفت روسيا القيصرية بسيطرة بريطانيا

على الخليج العربي)، في محاولة من زعماء الثورة للترويج لأهدافهم ومبادئهم السامية للدول الرأسمالية الغربية، وفضح مؤامراتها أمام الرأي العام العالمي(٥).

يدل تاريخ العلاقات بين الاتحاد السوفييتي والبلدان العربية في فترة ما بين الحربين العالميتين على أن الاتحاد السوفييتي بالرغم من الصعوبات الاقتصادية والسياسية التي كان يواجهها، حاول إقامة اتصالات وعلاقات مع الحكومات في البلدان العربية ومساعدتها في نضالها ضد المستعمر من أجل الحرية والاستقلال· وإن لم تتجاوز حد تقديم الدعم المعنوي للشعب العربي في العراق وسوريا ولبنان ومصر والجزائر· كما وقف الاتحاد السوفييتي إلى جانب حقوق الشعب الفلسطيني· وحسب وجهة الباحث بونداريفسكي «يتميز فضح لينين في السنين الأولى من قيام السلطة السوفيتية لجوهر الصهيونية الرجعي المعادي للشعب بأهمية نظرية وعملية دائمة بالنسبة لشعوب البلدان العربية المناضلة في سبيل إزالة آثار العدوان الإسرائيلي الصهيوني»(٦).

كذلك حاول السوفييت التقرب من مصر بعد حصولها على استقلالها الاسمي عام ١٩٢٢م إلا أن المصريين اتخذوا موقفاً سلبياً من هذا التقارب· هذا وتعدّ السعودية واليمن من أولى دول المشرق العربي التي أقامت علاقات دبلوماسية رسمية مع الاتحاد السوفييتي، حيث سارع الاتحاد السوفييتي عام ١٩٢٦م، إلى الاعتراف بالملك عبد العزيز آل سعود ملكاً على الحجاز قبل أن تعترف بريطانيا اعترافها به، كما وقّع السوفييت معاهدة صداقة وتجارة مع اليمن عام ١٩٢٦م(٧).

لم تكن السياسة السوفييتية في هذه الفترة ذات تأثير لأنها أخطئت في تقديراتها لموازين القوى السياسية والاجتماعية ،وتجاهلها للدين وما له من دور كبير في المنطقة العربية·

المرحلة الثانية: وتمتد من بداية الحرب العالمية الثانية في أيلول ١٩٣٩م وحتى منتصف خمسينيات القرن العشرين ،وفيها فتح التحالف السوفييتي ــ البريطاني أبواب الشرق الأوسط أمام الاتحاد السوفييتي بعد أن كان حكراً على الدول الأوروبية وعلى

الخصوص بريطانيا عندما سمح بدخول السوفييت إلى شمال إيران. فبعد الهجوم الألماني على الاتحاد السوفييتي أصدرت الحكومة السوفيتية في ٢٤ أيلول ١٩٤١م بياناً جاء فيه: «إن الاتحاد السوفيتي يسترشد في سياسته الخارجية... بمبدأ حق الأمم في تقرير مصيرها... والاتحاد السوفيتي يذود عن حق كل شعب في استقلال دولته وحرمة أراضي بلاده وحق إقامة النظام الاجتماعي واختيار شكل الإدارة اللذين يرتضيهما ويعتبرهما ضروريين لتأمين الازدهار الاقتصادي والثقافي لبلاده»[٨].

ففي عام ١٩٤٣م أقيمت العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفيتي ومصر. وفي ٢٢ تموز ١٩٤٤م أقيمت العلاقات بين الاتحاد السوفيتي وسوريا. وفي آب ١٩٤٤م أقام الاتحاد السوفيتي علاقات دبلوماسية مع لبنان. وفي أيلول من العام نفسه أقيمت العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفيتي والعراق.

وبعد انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الثانية حاول كل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية تكريس انتصاراته والاستفادة منها لدعم سياسته ومصالحه في العالم ليبدأ معها عصر التنافس الأمريكي ـ السوفييتي «الحرب الباردة».

لقد كان للاتحاد السوفييتي مطامح سياسية في تركيا المجاورة، حيث كان يأمل بقيام حكومة موالية للسوفييت فيها، لكن الولايات المتحدة تنبهت إلى هذا الخطر، وقام الرئيس الأمريكي هاري ترومان بإصدار ما سميَّ بمبدأ ترومان عام ١٩٤٧م ـــ وبموجبه قررت الولايات المتحدة الأمريكية مساعدة كل من تركيا واليونان بمبلغ قدره ٤٠٠ مليون دولار، لكي تستطيع الوقوف في وجه الخطر الشيوعي. والهدف الأساسي لمبدأ ترومان هو حسب وجهة نظر المختصين في السياسة الخارجية الأمريكية هو «إحاطة مستودعات بترول الشرق الأوسط بسياج يمكن الاعتماد عليه من قبل القوات المسلحة الأمريكية»[٩].

ففي عام ١٩٤٧م أعلن الاتحاد السوفييتي موافقته على قرار التقسيم رقم ١٨١/ II الصادر عن الجمعية العمومية للأمم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧م. وفي هذه

الفترة بنى الاتحاد السوفييتي سياسته تجاه قضية الصراع العربي ـ الصهيوني على ضوء استراتيجية التنافس الدولي العام، فكان يرى أن باستطاعة إسرائيل أن تكون في المعسكر المناهض للأنظمة العربية التي تدور في فلك بريطانيا وفرنسا في منطقة الشرق الأوسط، لذلك قام بدعم «الدولة اليهودية» ووقف إلى جانبها في حربها ضد العرب· وصوت مندوبه الدائم في مجلس الأمن الدولي لصالح إقامة «دولة إسرائيل»· مبرراً موقفه هذا بأن كل قومية لها كامل الحق بإقامة دولتها المستقلة· في حين كانت القيادة السوفييتية آنذاك تسعى إلى جعل إسرائيل قاعدة عسكرية وسياسية في المنطقة العربية، من أجل تقوية الموقف السوفييتي في هذه المنطقة من جهة، وإضعاف مواقف الدول الاستعمارية والرأسمالية فيها من جهة أخرى· كما شجع اليهود والسوفييت على الهجرة إلى فلسطين وحضّ ستالين زعماء دول أوروبا الشرقية على السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين وتدريبهم عسكرياً لمعارضة بريطانيا، وكان السفير السوفييتي أول دبلوماسي لدولة عظمى يصل إسرائيل ويقدم أوراق اعتماده لديها في آب عام ١٩٤٨م[١٠].

من ناحية أخرى ظن الاتحاد السوفييتي بأن المهاجرين اليهود من روسيا و أوروبا الشرقية هم أقدر من شعوب المنطقة على نشر الفكر الاشتراكي في المنطقة العربية· وبحسب وجهة نظر الباحثة الفرنسية المختصة بالشؤون السوفييتية هيلين كارير دانكوس، فإن دعم الاتحاد السوفيتي لإسرائيل ألّب ضده جميع الشعوب العربية، وأضعف ولفترة طويلة، موقع الأحزاب الشيوعية المحلية التي احتفظ بها كحلفاء له قادرة على نشر فكره وإيديولوجيته، ومنذ ذلك الوقت تم استبعاد الشيوعيين المرتبطين بالاتحاد السوفيتي كردة فعل على الدعم السوفيتي لإسرائيل[١١].

لكنه تبين فيما بعد خطأ التقديرات السوفييتية وعلى الخصوص إبان الحرب الكورية عام١٩٥٠ – ١٩٥٣م، ومساندة إسرائيل لأمريكا في هذه الحرب واكتشاف السوفييت ضلوع اليهود في موت زعيمهم جوزيف ستالين بعد اشتراكهم بعدة مؤامرات استهدفت

حياته من قبل عدد من الأطباء اليهود[١٢]. وتخلي القيادة الصهيونية عن التوجهات الاشتراكية عام ١٩٥٢م.

لهذه الأسباب بدل الاتحاد السوفيتي من سياسته تجاه إسرائيل، وتوجهت أنظاره لإقامة علاقات صداقة مع الدول العربية ووقف إلى جانب الحق العربي في الصراع مع إسرائيل.

من ناحية أخرى شهدت هذه المرحلة حدوث تغيير كبير في موازين القوى في العالم بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية نتيجة خسارة ألمانيا واليابان فيها، وانتصار الثورة الشيوعية في كل من الصين وكوريا الشمالية،و أدى ذلك إلى انهيار المنظومة الاستعمارية في خمسينيات القرن العشرين في آسيا والشرق الأوسط كذلك، وضعفت بريطانيا وفرنسا وفقدت مواقعها في الشرق الأوسط،كما ساعد الاتحاد السوفييتي الدول العربية في هذه الفترة ودعم مواقفها ومكنها من توطيد استقلالها.

المرحلة الثالثة: تبدأ في أواسط خمسينيات القرن العشرين ،وتنتهي بانهيار الاتحاد السوفييتي عام ١٩٩١م.

كان الاتحاد السوفييتي طيلة هذه الفترة يطمح لدعم الإتجاهات الإشتراكية في هذه المنطقة، وإيجاد قواعد سياسية وعسكرية فيها. وقد تجلى ذلك في سعيه لإيجاد علاقات دبلوماسية وسياسية مع بعض الدول العربية ذات التوجه الاشتراكي وتقديم الدعم العسكري لها . ولذلك فقد عمد الاتحاد السوفيتي إلى عقد اتفاقيات صداقة ودفاع مشترك مع هذه الدول (مصر وسورية واليمن الديمقراطية). كان الاتحاد السوفيتي يطمح من خلال ذلك إلى توسيع وتقوية الاشتراكية في العالم وللوقوف بحزم وقوة ضد المخططات الغربية في هذه المنطقة المهمة من العالم وعلى الخصوص ضد المصالح الأمريكية فيها.

بالطبع هنا لا يمكن التجاهل بأن الاتحاد السوفييتي استطاع أن ينفذ بعمق إلى هذه المنطقة، وإظهار نفسه كقوة سياسية هامة فيها. فمشكلة «إسرائيل» بالنسبة للاتحاد السوفيتي مشكلة صعبة ومعقدة ،وخلقت العديد من المشكلات والصعاب ومنها أولاً:أدى إنشاء دولة إسرائيل على أرض فلسطين إلى زيادة الشعور «القومي» لدى اليهود في الاتحاد السوفيتي نفسه، ثانياً: بعد قيام الكيان الصهيوني ظهرت مشكلة الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفييتي إلى هذا الكيان.

لا بد من الإشارة هنا إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية لعبت دورا مهما وخطيراً في الوقوف في وجه السياسة السوفييتية في المنطقة، وعدتها خطراً كبيراً على الأمن القومي الأمريكي والمصالح القومية الأمريكية، واختلفت آراء الباحثين الأمريكيين وتباينت تجاه هذه المسألة. وقد أشار الباحث الأمريكي د. فريدمان إلى أن الأخصائيين الأمريكيين بشؤون الشرق الأوسط انقسموا في تقييمهم للسياسة السوفييتية إلى مدرستين: الأولى وترى أن سياسة الاتحاد السوفيتي في منطقة الشرق الأوسط هي ذات سياسة دفاعية وأن هدفها الأساسي هو منع تحويل الشرق الأوسط إلى محطة انطلاق ضد الاتحاد السوفيتي. في حين ترى المدرسة الثانية بأن سياسة الاتحاد السوفييتي هي سياسة هجومية هدفها إخراج القوى الغربية من هذه المنطقة الغنية بالنفط(١٣).

من هنا حاولت الدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية بكل ما لديها من قوة منع الاتحاد السوفيتي من الوصول إلى منطقة الشرق الأوسط وتقوية نفوذه فيها، من خلال الدعوة إلى إقامة حلف بغداد ١٩٥٥م. لكن مصر وهي أكبر الدول العربية رفضت الانضمام إلى هذا الحلف، وكانت إجابة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر على مقترحات وزير خارجية أمريكا جون فوستر دالس «أن الاتحاد السوفييتي لم يهاجمنا قط، ولم يقم باحتلال أراضينا ولم يكن للاتحاد السوفييتي أية قواعد في مصر، عندما كان الإنكليز على أرضنا حوالي ٧٠ عاماً»(١٤).

أما موقف الاتحاد السوفييتي فيما يتعلق بحلف بغداد فقد عبر عنه التصريح الصادر عن وزارة الخارجية السوفيتية في ١٥ نيسان ١٩٥٥م، الذي جاء فيه: «لا يمكن للاتحاد السوفيتي أن يبقى غير مبالٍ بتطور الوضع في الشرقين الأدنى والأوسط لأن تشكيل التكتلات وإقامة القواعد العسكرية الأجنبية على أراضي الشرقين الأدنى والأوسط يطولان مباشرة أمن الاتحاد السوفييتي. ويمكن تفهم موقف الحكومة السوفيتية طالما أن الاتحاد السوفيتي يقع على الحدود المباشرة لهذه البلدان»[١٥].

ويفهم من هذا التصريح أن الاتحاد السوفييتي سيقوي من مواقفه في منطقة الشرق الأوسط، على الرغم من جميع الصعوبات التي ستواجهه.

في غمرة الأحداث المتلاحقة في الشرق الأوسط ورغبة الاتحاد السوفيتي لتقوية نفوذه في المنطقة العربية قامت جمهورية تشيكوسلوفاكية في ٢٧ أيلول ١٩٥٥م بعقد معاهدة مع مصر لتزويدها بالأسلحة التشيكية. و لم يكن بالإمكان عقد مثل هذه الاتفاقية من قبل تشيكوسلوفاكية دون موافقة الاتحاد السوفييتي.

وحسب وجهة نظر الباحث الروسي فاسيليف «إن الذي سرع في اتخاذ قرار مصر بطلب المساعدة من الاتحاد السوفييتي هو الاعتداءات المتكررة من قبل إسرائيل على قطاع غزة عام ١٩٥٥م. فالواقع العسكري الضعيف جعل جمال عبد الناصر يعمل بسرعة»[١٦].

وحسب بنود الاتفاقية المصرية ـ التشيكية فإن مصر ستحصل على الأسلحة الثقيلة بمبلغ وقدره ٢٢٥-٢٥٠ مليون دولار. تعهد الاتحاد السوفييتي بتقديم طائرات من نوع ميغ ١٥ و١٧ ـ وطائرات قاذفة من نوع إل-٢٨ ودبابات ثقيلة ومتوسطة، ومدافع بالإضافة إلى الغواصات وطوربيدات والخ...»[١٧].

بعد عقد هذه الاتفاقية اتهمت القيادة المصرية بالعمالة والارتباط بالاتحاد السوفييتي الشيوعي. ورد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر على هذه الاتهامات بقوله:«نحن نشتري أسلحة لا إيديولوجية»[١٨].

المعاهدة التشيكية ـ المصرية بدأت مرحلة جديدة من تغيير موازين القوى في الشرق الأوسط، وكانت خطوة جريئة ومهمة للدول الاشتراكية في الشرق الأوسط استفادت من أخطاء السياسة الخارجية الأمريكية. حيث وقعت الولايات المتحدة الأمريكية في خطأين استراتيجيين جعلا القيادة المصرية تتجه كلياً نحو الاتحاد السوفييتي. الأول: هو رفض الإدارة الأمريكية بيع أسلحة أمريكية كان قد طلبها الرئيس جمال عبد الناصر. الثاني: رفض الإدارة الأمريكية تمويل مشروع بناء السد العالي.

من جانبه استغل الاتحاد السوفيتي هذه الفرصة الذهبية ليدخل الشرق الأوسط من أوسع أبوابه. وكان تقديم الأسلحة السوفيتية وتمويل السوفييت لبناء السد العالي هي الخطوة التي فتحت عهداً جديداً في العلاقات السوفيتية ـ المصرية. على الرغم من أن الكاتب المصري الكبير محمد حسنين هيكل في كتابه «الانفجار» أكد على أن علاقة مصر بالاتحاد السوفيتي منذ البداية كانت علاقة اضطرارية، وليست إرادية. فقد اتجهت مصر إلى الاتحاد السوفيتي بعد أن أصابها اليأس من الاتصالات غير الموفقة مع الولايات المتحدة الأمريكية(١٩). كما أدت الاعتداءات الإسرائيلية على الحدود العربية، والتهديدات التركية لسورية، رفض الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا تزويدها بالأسلحة، بسبب رفض سورية الدخول في منظومة الأحلاف التي تريد إقامتها الدول العربية في المنطقة، ورفض فرنسا المزود الرئيسي لسورية بالأسلحة تزويدها بالسلاح بسبب دعمها للثورة الجزائرية. هذا كله أدى إلى تقارب سوفييتي سوري، حيث أعلن الاتحاد السوفيتي عن استعداده لتزويد الجيش السوري بالعتاد والسلاح بأسعار معتدلة ودون شروط سياسية مسبقة، كما أعلن السوفييت عن نيتهم بتقديم المساعدة الاقتصادية لسورية.

وبالفعل فقد قامت سورية أيضاً بتوقيع صفقة سلاح مع جمهورية تشيكوسلوفاكية في مطلع تشرين الثاني ١٩٥٥م. ووصف وزير خارجية سورية آنذاك خالد العظم صفقة الأسلحة التي اشترتها بلاده من الاتحاد السوفييتي قائلاً: «كانت نوعاً من المساعدة لا

من حيث مجانية الصفقة، ولكن من حيث رخص أسعار وطول آجال دفع الأقساط، والأهم من ذلك، لا يستطيع أحد أن يدعي أن سورية ومصر بعقدهما هذا الصفقات تنازلتا عن جزء من سيادتهما»[٢٠].

مما لا شك فيه أن التقارب السوفييتي السوري والتقارب السوفييتي المصري وتقديم السوفييت الأسلحة لكلا الدولتين قد أثار غضب الولايات المتحدة الأمريكية والدول الغربية· ولمناقشة التطورات الأخيرة في المنطقة عقد الرئيس الأمريكي إيزنهاور ورئيس وزراء بريطانيا إيدن اجتماعاً، وأصدرا بياناً جاء فيه: «تؤمن الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا بأن سلامة دول المنطقة لا يمكن أن تقوم على تسلحها بل على احترام القانون الدولي وإقامة علاقات حسن الجوار· وتؤكد بأن عمل الكتلة السوفييتية فيما يخص تزويد دول الشرق الأوسط بالأسلحة قد زاد من حدة التوتر في هذه المنطقة ومن خطر نشوب حرب وأن الهدف البريطاني ــ الأمريكي هو تجنب ذلك الخطر»[٢١].

وازدادت هيبة الاتحاد السوفييتي ونفوذه في منطقة الشرق الأوسط بفضل الدعم القوي الذي قدمه لمصر عندما أقدمت في ٢٦ تموز ١٩٥٦م على تأميم قناة السويس، ورداً على ذلك قامت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل بعدوان عسكري مشترك عليها لإرغامها على التراجع عن قرارها هذا·

ففي ليلة ٥ تشرين الثاني ١٩٥٦م بعث رئيس وزراء الاتحاد السوفييتي (بولغانين) برسائل إلى حكومات انطوني ايدن في بريطانيا، وغي موليه في فرنسا ،ودافييد بن غوريون في الكيان الصهيوني ،وأعرب فيها «عن النية القوية لدى الاتحاد السوفيتي باستخدام القوة لوقف المعتدين وإقامة السلم في منطقة الشرق الأوسط»[٢٢].

وقد تضمنت رسالة بولغانين إلى الحكومة البريطانية تهديداً عسكرياً ظاهراً، أما رسالته إلى الحكومة الفرنسية فقد صيغت بتعابير مبهمة، وخاطب بولغانين الحكومة الإسرائيلية بتعابير تحقيرية عنيفة[٢٣].

كما أعلنت الحكومة السوفييتية بأنها «تعتبر قرار حكومة مصر الخاص بتأميم قناة السويس إجراءاً مشروعاً تماماً ناتجاً عن حقوق مصر كدولة سيِّدة وجاء في الإعلان أيضاً أن المحاولات الرامية لفرض سيطرة الرأسمال الأجنبي على مصر بالقوة... تتسم بطابع استعماري واضح»(٢٤).

إن السبب الحقيقي الذي حمل الدول المعتدية على وقف العدوان ثم سحب قواتها من الأراضي المصرية التي احتلتها هو الدعم السوفييتي الكبير لمصر الذي زاد من هيبة السوفييت ونفوذهم في المنطقة العربية ولدى شعوبها، وجعل الدول العربية تعتقد جازمة بأن الاتحاد السوفييتي كقوة عالمية باستطاعته أن يؤثر تأثيراً إيجابياً لصالح القضايا العربية، وباستطاعة الدول العربية الاعتماد على الدعم السوفييتي في المحافل الدولية وبخاصة في الأمم المتحدة. وأصبح الاتحاد السوفييتي منذ العدوان الثلاثي على مصر السند الرئيسي للعرب في صراعهم مع إسرائيل، وعدّ السوفييت ذلك أمراً يتطابق مع مصالحهم الحيوية في المنطقة العربية.

وأعطى الدعم السوفييتي القوي والمؤثر للاتحاد السوفييتي ووقوفه إلى جانب مصر أثناء العدوان الثلاثي دفعاً كبيراً للعلاقات السوفييتية السورية. وشكل نجاحاً كبيراً للسياسة السوفييتية في المنطقة.

ويعود نجاح السياسة السوفييتية في المنطقة في هذه الفترة أيضاً إلى إخفاقات السياسة الأمريكية، وإلى الشعور المعادي للغرب بسبب الحرب العدوانية التي شنتها كل من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على الأراضي المصرية.

جعل النجاح الكبير الذي حققه الإتحاد السوفييتي بدخول المنطقة من أوسع أبوابها (مصر وسورية) الإدارة الأمريكية تفكر جدياً بالخطوات التي يجب إتباعها من أجل الوقوف في وجهه، ولهذا الغرض وجه الرئيس الأمريكي أيزنهاور في الخامس من كانون الثاني ١٩٥٧م رسالة إلى الكونغرس تناول فيها موضوع الشرق الأوسط وكيفية سد الفراغ الذي خلفه تراجع القوى الأوروبية، ومنع الاتحاد السوفييتي من ملئه...

«إن البلدان الحرة في الشرق الأوسط تحتاج إلى القوة للدفاع عن استقلالها وجعلها تتلهف للحصول على هذه القوة من الغرب»، ولهذا اقترح (إيزنهاور) أن تقوم الولايات المتحدة بما يلي:

١- التعاون مع جميع دول الشرق الأوسط أو مجموعات هذه الدول وتقديم المعونة لها منفردة أو مجتمعة، ودعم قدرتها الاقتصادية.

٢- وضع برنامج مساعدات عسكرية يستند إلى دعم قدرات البلدان الحرة الذاتية.

٣- القبول بفكرة أن المساعدات العسكرية والتعاون العسكري يعني استخدام الولايات المتحدة جيوشها لحماية أراضي بلدان الشرق الأوسط والدفاع عن استقلالها ـ عندما تطلبها ـ ضد أي عدوان عليها من قبل جيش مسلح من الخارج يستهدف تحقيق السيطرة الشيوعية العالمية على شعب من شعوب الشرق الأوسط.

٤- استخدام الأموال المخصصة بموجب قانون الأمن القومي لعام ١٩٥٤م لتحقيق أهداف هذا البرنامج»[٢٥].

عند تحليل النقاط الرئيسية لمشروع الرئيس الأمريكي (إيزنهاور) نلاحظ أنه موجه بالدرجة الأولى ضد الاتحاد السوفييتي والدول العربية التي تسير على الخط الاشتراكي، من أجل منع السوفييت ملء الفراغ الحاصل في الشرق الأوسط ومنعه أيضاً من أن يطور علاقاته مع دول عربية أخرى. وإن الولايات كانت تسعى من خلال هذا المشروع للعمل على تقوية نفوذها في هذه المنطقة التي تعدّ منطقة حيوية بالنسبة لها و الدفاع عن حليفتها إسرائيل وعن مصالحها النفطية في الخليج العربي.

جاء الرد السوفييتي على مشروع إيزنهاور في البيان الذي أصدرته الحكومة السوفييتية في ١٣ كانون الثاني ١٩٥٧م و نشرته وكالة (تاس) السوفييتية ومما جاء فيه «إن مشروع إيزنهاور يعدّ تدخلاً سافراً في الشؤون الداخلية للدول العربية،

ويتنافى ومبادئ وأهداف الأمم المتحدة، وتتضمن في طياته تهديداً جدياً للسلم والأمن في الشرقين الأوسط والأدنى»[٢٦].

وأعلنت الحكومة السوفييتية أن « مشروع إيزنهاور يحمل أطماعاً مبيتة، وهدفه النهائي هو فرض الوصاية العسكرية الأمريكية المباشرة على المنطقة. وما الخطر السوفييتي الذي يتحدث عنه مشروع إيزنهاور إلا مجرد وهم وافتراء على الحقيقة. فمصلحة الاتحاد السوفييتي تكمن في إحلال الأمن والسلام في منطقتي الشرق الأوسط والأدنى، الواقعتان على حدوده مباشرة والعمل على توطيد استقلالها الاقتصادي والسياسي»[٢٧].

كما جاء الرد السوفييتي على مشروع ايزنهاور «من خلال مذكرة بعثتها الحكومة السوفيتية عام ١٩٥٧م عرفت باسم «مشروع شبيلوف» إلى الدول الموقعة على البيان الثلاثي (أمريكا ــ فرنسا ــ بريطانيا). حيث تضمن «مشروع شبيلوف» مقترحات عدة وهي:

١- حل المشكلات التي تهدد السلام في المنطقة عبر المفاوضات.

٢- عدم التدخل في الشؤون الداخلية لدول المنطقة.

٣- عدم دخول هذه الدول في كتل أو أحلاف عسكرية مع القوى الغربية.

٤- إزالة القواعد الأجنبية وسحب القوات الأجنبية.

٥- وقف شحن الأسلحة.

٦- المساعدة الاقتصادية غير المشروطة[٢٨].

أما بالنسبة إلى موقف الدول العربية من مبدأ ايزنهاور، فقد أعلنت حكومتي العراق والأردن تأيد هما له. أما المملكة العربية السعودية فقد امتنعت عن إبداء رأي محدد، في حين رفضته سورية ومصر جملة وتفصيلاً.

دفع موقف الحكومة السورية المعارض «لمبدأ ايزنهاور». الولايات المتحدة الأمريكية للعمل بكل قوة بمساعدة حليفتيها /تركية وإسرائيل/ للضغط على سورية لجعلها أكثر ليونة مع السياسة الأمريكية، ومارست ضغوطاً اقتصادية كبيرة عليها من خلال مقاطعة البضائع السورية، وإغراق الأسواق الأوروبية بالقمح بسعر بخس، وبضغط من الولايات المتحدة الأمريكية قامت المصانع العراقية والتركية بفسخ عقودها النسيجية مع سورية، كما عمدت الولايات المتحدة الأمريكية إلى تقليص عمل ونشاط «شركة نفط العراق» الأنكلو ــ الأمريكية على الأراضي السورية.

استغل الاتحاد السوفييتي الوضع لصالحه، وأعلن عن استعداده لشراء ٣٠٠ ألف طن من القمح السوري وغيره من المنتجات الزراعية السورية...[٢٩]

ولمواجهة المقاطعة الغربية والأمريكية للجمهورية العربية السورية وافقت الحكومة السوفيتية على المقترحات المقدمة من قبل الوفد الاقتصادي والعسكري الذي زار موسكو برئاسة خالد العظم، حيث أجرى محادثاته مع نائب رئيس الوزراء السوفييتي ألكسي كوسيغين تناولت المقترحات التالية:

١- إطالة أمد استحقاقات صفقات الأسلحة إلى عشر سنوات جديدة.

٢- تنفيذ المشاريع العمرانية وأبنية الجيش في البلاد و تسديد نفقاتها على أقساط.

٣- مساعدة الحكومة السورية في عمليات التبادل التجاري وخاصة المحاصيل الزراعية[٣٠].

وانتهت المباحثات بالتوقيع على اتفاقية خاصة بهذا الشأن في ٦ آب ١٩٥٧م. وفي كانون الأول ١٩٥٧م وقع الطرفان على اتفاقية تضمن شراء الاتحاد السوفييتي للحبوب والقطن السوري مقابل شراء سورية معدات وبضائع سوفيتية.

لاقت الاتفاقيات الموقعة والدعم السوفييتي لسورية ارتياحاً لدى الحكومتين السورية والمصرية ولدى الشعوب العربية، وزادت من رصيد السوفييت في هذه المنطقة.

ودفعت الغرب والولايات المتحدة الأمريكية إلى زيادة الضغط على سورية. حتى إن الولايات المتحدة الأمريكية حاولت التدخل بشؤون سورية الداخلية من خلال تركيا الحليف الاستراتيجي للولايات المتحدة والعضو في حلف شمال الأطلسي. ونشرت الصحف التركية دعوات بالقضاء على سورية الشيوعية. وأكد بعد ذلك جون فوستر دالس في مؤتمر صحفي عقده في ٢٧ آب ١٩٥٧م «أن سورية تقع تحت النفوذ الشيوعي، وأن الدول المجاورة لها قلقة من تزويدها بالأسلحة السوفيتية....»، وأكد الرئيس الأمريكي تصريح دالاس متهماً الاتحاد السوفييتي بالسعي للهيمنة على سورية، إلا أنه كان مصرّاً خلال المقابلة الصحفية نفسها على الاعتراف بعدم وجود أي إثبات لهذا الاعتقاد[٣١].

مارست الولايات المتحدة ضغوطاً كبيرة على سورية وحكومتها وحركت الأسطول الأمريكي في البحر المتوسط، وأرسلت طائرات مقاتلة إلى تركيا. فأعلن الاتحاد السوفييتي أن هذه التحركات هي التطبيق العملي لمبدأ ايزنهاور. وفي الوقت نفسه تحدثت التقارير الغربية عن حشودات سوفييتية على طول الحدود مع التركية وعن إرسال الأسطول الحربي السوفييتي إلى البحر المتوسط. و شكل ذلك دليلاً قوياً على أن السوفييت لن يقفوا مكتوفي الأيدي في حال تعرضت سورية لأي غزو.

فقد كثف الاتحاد السوفييتي نشاطه الدبلوماسي، حيث حذرت موسكو في ٣ أيلول ١٩٥٧م الغربيين من أن أي تدخل في سورية سيؤدي إلى عواقب وخيمة، وكرر وزير الخارجية السوفييتي أندريه غروميكو دعوته إلى إصدار بيان بعدم اللجوء إلى القوة، وبعد أيام من التحذيرات، وجه السوفييت تحذيراً خاصاً للرئيس التركي عدنان مندريس مفاده، أن أي هجوم على سورية لن يُسمح به[٣٢].

وبعد فترة قصيرة وفي الشهر نفسه عام ١٩٥٧م، حذر السوفييت الدول التي كانت تنوي الاعتداء على سورية من مصير مشابه لمغامرة السويس ضد مصر، ووجهت الحكومة السوفييتية رسالة إلى رئيس الوزراء التركي عدنان مندريس جاء فيها ما

يلي: «في حال القيام بأعمال حربية ضد سورية، وشن الحرب في الشرقين الأدنى والأوسط لا يمكن إلا وأن تضرر تركية نتيجة لاشتراكها في مثل هذا العدوان.»[٣٣].

وفي ١٣ أيلول ١٩٥٧م اتهم رئيس وزراء السوفييتي نيقولاي بولغانين تركية بأنها وضعت قواتها على الحدود السورية بهدف القيام بهجوم مخطط له من قبل الولايات المتحدة، وحذر بولغانين من أن النزاع المسلح مع سورية «لن يقتصر على تلك المنطقة فقط»[٣٤].

ولدى مناقشة قضية الخلاف في الشرق الأوسط وعلى الخصوص التوتر الحاصل ما بين سورية وتركية في الأمم المتحدة قال وزير الخارجية السوفيتي غروميكو: «إن بلاده لا يمكن أن تظل مكتوفة الأيدي وتراقب عن بعد المحاولات التي تبذل لتحويل الشرقين الأدنى والأوسط إلى مسرح للنزاع المسلح»[٣٥].

وقد أشار الباحث البريطاني المعروف باتريك سيل إلى الوضع الذي ينشأ في المنطقة آنذاك في كتابه الصراع على سورية بالقول التالي: «أدت الخصومة الأمريكية إلى منح الروس فرصاً عظيمة فسارعوا إلى الدفاع عن سورية واستعادة صوتهم في شؤون الشرق الأوسط واستنكار حمى التدخل التي تتسم بها الإمبريالية...»[٣٦].

مما لا شك فيه بأن سياسة الاتحاد السوفييتي في الشرق الأوسط ما كان لها إلا أن تلقى معارضة ومقاومة من الولايات المتحدة الأمريكية وأدت إلى تعميق الخلافات السوفييتية ـ الأمريكية في المنطقة.

ففي ستينيات القرن العشرين قامت الولايات المتحدة الأمريكية بدعم إسرائيل بكل الوسائل وقدمت لها المساعدات العسكرية مما شجع إسرائيل على التمادي في التعاطي مع دول المواجهة العربية، وقامت باعتداءات عسكرية لها في ربيع عام ١٩٦٧م وبخاصة ضد الجمهورية العربية السورية.مما دفع الحكومة السوفييتية إلى إرسال مذكرة إلى إسرائيل تندد بالهجوم والاعتداءات كما استدعى مساعد وزير الخارجية

السوفييتي (جاكوب مالك) السفير الإسرائيلي وبحث معه مواضيع عديدة من بينها الاعتداءات الإسرائيلية على سورية[٣٧].

مع تطور الأحداث في الشرق الأوسط عام ١٩٦٧م، حذر الدبلوماسيون السوفييت لدى مصر وسورية، و الصحافة في الاتحاد السوفييتي من أن إسرائيل ستقوم بهجوم وشيك، وعلى إثر إغلاق مضائق تيران من قبل مصر· حذرت الحكومة السوفييتية في ٢٤ أيار عام ١٩٦٧م الذي ينوون القيام بالعدوان ،وجاء في بيان الحكومة السوفييتية ما يلي: «إن الاتحاد السوفييتي ساعد منذ عشرات السنين شعوب البلدان العربية في نضالهم التحرري ضد الاستعمار، ورفع مستوى اقتصادياتهم، وينبغي ألا يخامر أياً كان أدنى شك، وخصوصاً الذي يغامر في شن حرب في الشرق الأوسط، أنه سيصطدم ليس بالقوة المشتركة للبلدان العربية فحسب، وإنما أيضاً برد حاسم من الاتحاد السوفيتي وكل الدول المحبة للسلام· وأن الحكومة السوفيتية تتابع عن كثب تطورات الأحداث في الشرق الأوسط وهي ترى أن الحفاظ على السلام والأمن في هذه المنطقة المحاذية لحدود الاتحاد السوفيتي، يتجاوب والمصالح الحيوية للشعوب السوفييتية»[٣٨].

تحت وقع متسارع الإحداث في المنطقة طلبت القيادة المصرية من قوات الطوارئ الدولية المرابطة على خطوط الهدنة في سيناء مع الكيان الصهيوني الانسحاب، بهدف تخفيف الضغط والتوتر على الجبهة السورية· ثم أمرت بإغلاق مضائق تيران في وجه السفن الإسرائيلية وأمام السفن من الجنسيات الأخرى التي تقوم بنقل مواد استراتيجية إلى ميناء إيلات الصهيوني في خليج العقبة· مما أدى إلى تأزم الأوضاع بشكل خطير في منطقة الشرق الأوسط·

فبعث رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي ألكسي كوسيغين رسالة إلى الرئيس جونسون في ٢٦/ أيار / ١٩٦٧م طالباً منه القيام بمساع مشتركة للتخفيف من حدة الأزمة، واتفقا

على أن يرسل كل منهما بمذكرة تحذيرية إلى مصر وإسرائيل لمطالبتهما بضبط النفس.

كما أرسل كوسيغين رسالة إلى رئيس وزراء إسرائيل ليفي اشكول جاء فيها: «إننا نود أن تتجنب إسرائيل إشعال الصراع المسلح في المنطقة»[٣٩].

إلا أن جميع التحذيرات فشلت في منع اندلاع الحرب، وقامت القوات الإسرائيلية في الخامس من حزيران ١٩٦٧م بالاعتداء على ثلاث دول عربية واحتلال صحراء سيناء وهضبة الجولان والضفة الغربية لنهر الأردن وخلقت وضعاً جديداً في الشرق الأوسط الذي أصبح قضية الصراع العربي –الصهيوني.

وفي سياق تعليقه على العدوان أشار محمود رياض أمين جامعة الدول العربية الأسبق إلى أن السوفييت أصيبوا بإحباط شديد عندما فوجئوا بإسرائيل تشن هجوماً خاطفاً على الدول العربية في الخامس من حزيران ١٩٦٧م ملحقة بهم هزيمة مريرة، وشعورا بأن جزءاً كبيراً من المسؤولية يقع على عاتقهم، فهم الذين قاموا بتشجيع عبد الناصر بالمطالبة بسحب قوات الطوارئ الدولية، وهم الذين قدموا له معلومات غير دقيقة عن الحشود الإسرائيلية على الحدود مع سورية، الأمر الذي ساهم بشكل كبير في اندفاع عبد الناصر باتجاه التصعيد، ومن ناحية أخرى، شعرت موسكو بأنها قصرت في مطالبة نظيرتها واشنطن بتقديم الضمانات الكافية بعد قيام إسرائيل بعمل عسكري ضد الدول العربية[٤٠].

كان الموقف السوفييتي اليوم الأول من العدوان حازماً،وأعلن وقوفه ودعمه الكامل للدول العربية، لإرغام إسرائيل على وقف عملياتها العسكرية،وجاء في بيان رسمي للحكومة السوفيتية ما يلي: «إن الاتحاد السوفيتي الذي يدين العدوان الإسرائيلي، يحذر الحكومة الإسرائيلية ويدعوها إلى وقف العمليات العسكرية فوراً ضد الجمهورية العربية المتحدة، وسورية والأردن والبلدان العربية الأخرى، وسحب قواتها إلى ما وراء خطوط الهدنة»[٤١].

كما طالبت الحكومة السوفيتية في بيان أصدرته في السادس من ١٩٦٧م إسرائيل بوقف القتال والعودة إلى مواقع الرابع من حزيران ١٩٦٧م· كما تقدم المندوب السوفيتي في مجلس الأمن بمشروع قرار يطالب بالوقف الفوري لإطلاق النار، وانسحاب القوات الإسرائيلية إلى خطوط الرابع من حزيران عام ١٩٦٧م إلا أن واشنطن اعترضت على المشروع السوفيتي وحالت دون إصدار قرار في مجلس الأمن الدولي·

في السابع من حزيران ١٩٦٧م أصدر مجلس الأمن الدولي القرار رقم ٢٣٤ الذي يطالب بوقف إطلاق النار غير المشروط، حيث وافقت عليه المملكة الأردنية الهاشمية فور صدوره، في حين عارضته مصر في البداية، إلا أنه مع الضغط السوفييتي عليها واندحار الجيش المصري، اضطرت القاهرة لقبوله في الثامن من حزيران ١٩٦٧م فوافقت عليه دمشق في اليوم التالي مباشرة(٤٢).

ومع استمرار العمليات العسكرية وتقدم القوات الصهيونية في الأراضي العربية عقد مجلس الأمن اجتماعاً طارئاً، وافق فيه على القرار رقم ٢٣٥ الذي يطالب بوقف المعارك دون ذكر الانسحاب أو إدانة العدوان، فقدم السوفييت في جلسة استثنائية لمجلس الأمن، مشروعاً أكثر حزماً من السابق ينص على «إدانة الأعمال العدوانية لإسرائيل إدانة مطلقة، ووقف إسرائيل فوراً للعمليات العسكرية ضد الدول العربية المجاورة، وسحب قواتها من الأراضي الواقعة ما بعد خطوط الهدنة، واحترام وضع المناطق المنزوعة السلاح كما تفرضها اتفاقات الهدنة»(٤٣).

غير أن المندوب الأمريكي لدى مجلس الأمن استخدم حق(الفيتو) وفشل المجلس في اتخاذ القرار·

من جانبها رفضت إسرائيل القرارين ٢٣٤ و٢٣٥ على الرغم من موافقة الدول العربية المعنية عليهما· وأرادت السيطرة على المزيد من الأراضي العربية وإسقاط

نظامي الحكم في مصر وسورية والقضاء على الأرضية العسكرية لمنظمة التحرير الفلسطينية ·

رداً على الرفض الإسرائيلي للقرارات الأممية، قام السفير السوفييتي في إسرائيل، بتسليم حكومتها مذكرة حمّلت إسرائيل كامل المسؤولية نتيجة لعدوانها، وانتهاكها الصارخ لقرارات مجلس الأمن، وأن الاتحاد السوفييتي و الدول المحبة للسلام ستوقع ضدها عقوبات جدية في حال عدم توقفها عن أعمالها العسكرية...»(٤٤).

وجاء في بيان الحكومة السوفيتية الموجه إلى الحكومة الإسرائيلية في السابع من حزيران ١٩٦٧ م ما يلي: «وإذا لم تنفّذ الحكومة الإسرائيلية فوراً، المطلب المشترك للدول بشأن وقف إطلاق النار دون تأخير، وهو المطلب المتجسد في قرار مجلس الأمن، فإن الاتحاد السوفيتي سيعيد النظر في موقفه من إسرائيل، ويتخذ قراراً بشأن مستقبل العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل التي وضعت نفسها بأعمالها هذه في مجابهة مع جميع الدول المحبة للسلام...»(٤٥).

في العاشر من حزيران ١٩٦٧م حاول الاتحاد السوفيتي استعادة ما فقده من ثقة لدى الدول العربية، وأبدى تضامنه معها بقطع العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل·

وإن تصاعد التهديدات العسكرية الإسرائيلية ضد الجمهورية العربية السورية وخوف السوفييت على دمشق من السقوط، الذي يعني القضاء على مكانتهم بشكل نهائي ليس فقط لدى الدول العربية بل ولدى حلفائهم في العالم الثالث كله لذلك تحركت موسكو وبشكل فعال، حيث بعث رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي كوسيغين برسالة عاجلة إلى الرئيس الأمريكي جونسون جاء فيها: «إن الساعة الحاسمة قد حانت، وأنه إذا لم توقف إسرائيل كل العمليات العسكرية، وتلتزم فوراً بقرار وقف إطلاق النار، فإن الاتحاد السوفيتي سوف يكون لزاماً عليه أن يقوم بتحرك منفرد واتخاذ جميع الإجراءات الضرورية لحماية الأراضي السورية بما في ذلك الإجراءات العسكرية»(٤٦).

وفي خطاب ألقاه رئيس وزراء الاتحاد السوفييتي ألكسي كوسيغين أمام الاجتماع الاستثنائي الذي عقدته الجمعية العامة للأمم المتحدة بطلب من الاتحاد السوفييتي في ١٧ حزيران ١٩٦٧م تضمن البنود الأربعة: «١- إدانة إسرائيل، ٢- انسحاب القوات الإسرائيلية إلى ما وراء خطوط الهدنة، ٣- تعويض كل من مصر وسورية والأردن، ٤- إزالة آثار العدوان، إلا أن هذا المشروع تم رفضه، لتقوم الجمعية العامة بإحالة الملف العربي ــ الإسرائيلي إلى مجلس الأمن»(٤٧).

لقد أرادت الدول العربية أن يأخذ الاتحاد السوفيتي موقفاً حازماً من العدوان الإسرائيلي في عام ١٩٦٧م، حيث أرادت أن يتدخل السوفييت عسكرياً لوقف العدوان وجعل إسرائيل تنسحب من الأراضي التي احتلتها كما حصل أثناء العدوان الثلاثي على مصر في عام ١٩٥٦م.

لابد من الإشارة أن حرب حزيران ١٩٦٧م كانت تجربة مريرة بالنسبة للاتحاد السوفيتي وعدّ الكثيرون من المحللين السياسيين خسارة العرب أمام إسرائيل خسارة سياسية وعسكرية كبيرة للسوفييت فقد اهتزت ثقة البلدان والشعوب العربية بالسوفييت لأنهم انتظروا أن يكون الرد السوفييتي حازماً لوقف العدوان وجعل المعتدي ينسحب إلى المواقع التي سبقت بداية الحرب. كما عدّ البعض خسارة العرب في حرب حزيران ١٩٦٧م خسارة للسلاح السوفييتي بالدرجة الأولى، حيث اعتمدت مصر وسوريا على السلاح السوفيتي.

من هنا نرى أن السوفييت سارعوا فوراً بعد انتهاء الأعمال الحربية إلى تقديم كل الدعم العسكري والسياسي الممكن للبلدان العربية المتضررة من الحرب لاستعادة مكانتهم وسمعتهم.

وفي تشرين الثاني١٩٦٧م أنهى السوفييت مهمة وتعويض مصر عما خسرته في الحرب، وأخبر رئيس الأركان السوفيتي ساخروف الرئيس جمال عبد الناصر قائلاً: «إن الجيش المصري أصبح مستعداً لمواجهة أي عدوان إسرائيلي وردعه»(٤٨).

إن خسارة دول المواجهة العربية في هذه الحرب، جعلها تقترب وتوطد علاقاتها مع الاتحاد السوفييتي رغبة منها في استعادة هيبتها والانتقام للهزيمة و تعويض ما خسرته من أسلحة، والحصول على دعم سياسي ودبلوماسي وعلى الخصوص في أروقة الأمم المتحدة.

إن كل هذا من وجهة نظر الباحثين الغربيين جعل الاتحاد السوفييتي يحقق بعض الأهداف التي كان يسعى إليها، على سبيل المثال حصوله على تسهيلات لسفنه العسكرية في موانى اللاذقية وطرطوس و الإسكندرية، وعلى دخول كثيف للمستشارين العسكريين إلى مصر وسورية.

وترى الباحثة الفرنسية هيلين دانكوس ما يلي «تغيرت السياسة السوفييتية العسكرية في تسليح سورية ومصر، وبدأت تدرب مستخدمي الأسلحة السوفيتية ... لتوفير السبل الكفيلة بإعداد جيوش حديثة فعالة، وبالرغم من كل ذلك، حرص السوفييت خلال الفترة (١٩٦٧-١٩٧٠)م على منع الانفجار، وخاصة بعد الانخراط في سياسة حوار مع واشنطن، ونوعاً من الإشراف على الوضع»(٤٩).

إن إحدى التوجهات الرئيسية للسياسة السوفييتية في المرحلة التي تلت وقف الأعمال الحربية العسكرية في الشرق الأوسط بعد حرب ١٩٦٧م هو العمل على إيجاد آليات وإصدار قرارات في الأمم المتحدة لحل مشكلة الشرق الأوسط على أن تكون متوافقة مع توجهات ومطالب الدول العربية الحليفة. وهنا لابد من الإشارة إلى أن الاتحاد السوفييتي رفض رفضاً قاطعاً أي اتصال أو مباحثات مع إسرائيل في هذه الفترة. وعدّ بعض المحللين أن هذا أبعد السوفييت عن المشاركة الفعلية في حل مشكلة الشرق الأوسط لان ذلك حرمه من الإطلاع المباشر على المواقف الإسرائيلية.

في هذه المرحلة كانت المقترحات السوفيتية فيما يتعلق بالصراع العربي ــ الإسرائيلي تأخذ شكل إصدار البيانات والتصاريح، لكن في الوقت نفسه لا يمكن التغاضي عن قيام الاتحاد السوفييتي بخطوات جدية في هذا المجال، على سبيل المثال الجهود التي

بذلها الاتحاد السوفييتي من أجل إصدار القرار رقم ٢٤٢ الصادر عن مجلس الأمن، والذي عدّته موسكو أساساً للتسوية في الشرق الأوسط.

فقد قام الموقف السوفييتي حسب رأي الباحث الروسي توردييف على أن « القرار ٢٤٢ يعد أساساً من أسس القانون الدولي، لإحراز التسوية العادلة والشاملة في الشرق الأوسط لأنه يؤكد على المبدأ الأساسي لتسوية النزاع والمتمثل بعدم جواز احتلال أراضي الغير بالقوة، أو التهديد باستخدامها، وجعل من انسحاب القوات الإسرائيلية من جميع الأراضي العربية المحتلة شرطاً رئيسياً لإحلال السلام الحقيقي في المنطقة، إذ لا يجوز التذرع بفقرة (حق دول الشرق الأوسط في العيش بسلام في حدود آمنة ومعترف بها)، الواردة في القرار ٢٤٢ للاحتفاظ بأي جزء من الأراضي العربية التي احتلت خلال العدوان،غير أن هذا القرار لم يشمل كل أوجه النزاع في الشرق الأوسط فقد تناول القضية الفلسطينية من جانبها الإنساني فقط، بالرغم من أن تحقيق السلام الوطيد في المنطقة لا يمكن إنجازه دون حل المشكلة الفلسطينية بشكل كامل»[(٥٠)].

في عام ١٩٦٦م اتخذ الرئيس جمال عبد الناصر قراراً بخوض حرب الاستنزاف ضد القوات الإسرائيلية، لرفع معنويات الجيش المصري، وإرسال رسائل ذات دلائل إلى القيادة الإسرائيلية، بأن جمهورية مصر استعادت قدرتها على القتال، وبأن الجيش العربي المصري قادر على المجابهة حتى الوصول إلى الأهداف المرجوة واستعادة الأراضي العربية المحتلة.

ساعدت حرب الاستنزاف على إضعاف الاقتصاد الصهيوني وإنهاك القوات الإسرائيلية، ولعدم قدرتها على تحمل الحروب الطويلة، وفي محاولة من القيادة الصهيونية لوقف هذه الحرب عمدت إلى ضرب العمق المصري بالطائرات و إنزال أكبر قدر من الخسائر البشرية والمادية بالسكان لكسر عزيمة الشعب المصري.

في تلك الفترة ظهر عجز الدفاعات الجوية المصرية في حماية عمق الأراضي المصرية، لأن الدفاعات الجوية كانت مركزة وبشكل مكثف على الجبهة فقط. مما

اضطر القيادة المصرية إلى طلب صواريخ جديدة من الاتحاد السوفيتي للتصدي للطائرات الإسرائيلية، فاستجاب السوفييت لهذا الطلب فوراً غير أن استخدام هذه المنظومة من الصواريخ يتطلب تدريب أخصائيين مصريين لمدة ستة أشهر على أراضي الاتحاد السوفيتي فكان لابد من إيجاد حل فوري لهذه القضية· فقام الرئيس المصري جمال عبد الناصر بزيارة سرية لموسكو لإجراء مباحثات مع القادة السوفييت طلب خلالها تزويده بصواريخ مضادة للطائرات مع أطقمها من الفنيين السوفييت وطائرات يقودها طيارون سوفييت واستجابت القيادة السوفيتية لطلبه·

دفع استمرار حرب الاستنزاف الأطراف المعنية بالنزاع مباشرة والدول العظمى إلى التفكير مجدداً بما قد تؤول إليه هذه الحرب وخطورتها·حيث قدمت الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦٩م مشروع روجرز والذي يتضمن حل مشكلة الشرق الأوسط على أساس قرار مجلس الأمن الدولي ٢٤٢، وتم استبداله بما أطلق عليه مبادرة روجز عام ١٩٧٠م التي تعطي للأمم المتحدة الدور المباشر لعملية التسوية، وتطبيق القرار رقم ٢٤٢ حيث كانت مبادرة روجرز تتلخص بما يلي: «تعلن أطراف النزاع في الشرق الأوسط، وتنفذ وقفاً محدوداً بين كل من مصر وإسرائيل مدته تسعون يوماً وفي هذه الفترة ينشط السفير الأممي جونار يارنغ لينفذ قرار مجلس الأمن وبالتحديد فيما يتعلق بالتوصل إلى اتفاق سلام عادل ودائم، يقوم على الاعتراف المتبادل والسيادة ووحدة الأراضي والاستقلال السياسي، وتقوم إسرائيل بسحب قواتها من أراض احتلتها عام ١٩٦٧م»[٥١].

وقام وزير الخارجية الأمريكي روجرز بتوجيه رسالة تتضمن مبادرته هذه إلى حكومات مصر والأردن وإسرائيل، وفيها تقترح الحكومة الأمريكية على هذه الدول ما يلي:

١- أن توافق كل من الأردن والجمهورية العربية المتحدة وإسرائيل على إعادة وقف إطلاق النار لمدة محدودة على الأقل·

٢- أن توافق كل من الأردن وإسرائيل، وكذلك الجمهورية العربية المتحدة وإسرائيل على البيان الذي سيصدر بشكل تقرير يقده السفير يارنغ إلى الأمين العام يوثانت»[٥٢].

تم في جمهورية مصر دراسة لمبادرة روجرز الأمريكية، حيث ارتأت القيادة المصرية بأخذ فرصة للتشاور مع حليفتها الاتحاد السوفييتي فقام الرئيس جمال عبد الناصر بزيارة سرية إلى موسكو، وتم الاتفاق في هذه الزيارة على القبول بالمبادرة الأمريكية لإعطاء فرصة جديدة لإحلال الأمن والسلام في هذه المنطقة، ولإعطاء فرصة للقيادة المصرية للتحضيرات والتجهيزات الضرورية لدعم الجبهة المصرية.

قامت كل من سورية ومنظمة التحرير الفلسطينية برفض مشروع روجرز للسلام في الشرق الأوسط.

يرى بعض المحللين السياسيين أن موافقة الاتحاد السوفييتي على مشروع روجرز للسلام في الشرق الأوسط كانت بسبب خشية القيادة السوفييتية أن تنفرد الولايات المتحدة الأمريكية في إيجاد تسوية في الشرق الأوسط ،مما قد يؤدي إلى توطيد دور الولايات المتحدة في المنطقة، وإضعاف الدور السوفييتي فيها.

في هذه الفترة قدمت القيادة السوفييتية الدعم والمساعدة للشعب الفلسطيني ممثلاً بمنظمة التحرير الفلسطينية. ووضعت زيارة وفد من منظمة التحرير الفلسطينية لموسكو عام ١٩٧٠م أساساً وطيداً للعلاقات ما بين السوفييت ومنظمة التحرير الفلسطينية.

وخلال أحداث أيلول ١٩٧٠م الدامية بين الفصائل الفلسطينية والقوات الأردنية، دعا السوفييت إلى وقف الاقتتال الأخوي وعلقت صحيفة البرافدا على الأحداث بقولها: «إن الأحداث في الأردن تضع المصالح الأردنية والفلسطينية، ومصالح الحركة التحريرية العربية في خطر، ويمكن أن تصب فقط في خدمة أعداء الشعب العربي... إن أحداث الأردن تثير قلق الاتحاد السوفييتي...»[٥٣].

وكان التوقيع على معاهدة الصداقة والتعاون بين الإتحاد السوفييتي ومصر في أيار ١٩٧١م أكثر نجاحاً للسياسة الخارجية السوفيتية في منطقة الشرق الأوسط، تبعها التوقيع على معاهدة مماثلة مع العراق في نيسان ١٩٧٢م.

وتتلخص أهداف المعاهدة السوفيتية ـ المصرية التي عقدت في أيار ١٩٧١م بـ:

١- تنمية وتعزيز علاقات الصداقة والتعاون بين البلدين، في المجالات السياسية والاقتصادية والعلمية والفنية والثقافية والمجالات الأخرى.

٢- تعميق التعاون الشامل وتبادل الخبرة في مجال الصناعة والزراعة والري والاستفادة من الثروات الطبيعية وإعداد الكوادر الوطنية وتوسيع التعاون وفي المجالات الإعلامية.

٣- مواصلة تطوير التعاون بين البلدين في مجالات العلم والفنون والآداب والتعليم في المجالات الإعلامية.

٤- تنمية التعاون العسكري وتطوير القدرات الدفاعية لمصر تقديم المساعدة في تدريب أفراد القوات المسلحة المصرية على استخدام الأسلحة والعتاد (المادة الثامنة)، كما أكدت (المادة التاسعة على إعلان البلدين عدم الدخول والاشتراك في أية تكتلات مع الدول أو القيام بأية إجراءات موجهة ضد الطرف الآخر).

٥- صيانة السلم والأمن الدوليين والسعي للتخفيف من حدة التوتر الدولي والتوصل إلى نزع السلاح التام وحظر السلاح النووي وغيره من أسلحة الإبادة الجماعية.

٦- بذل الجهود من أجل التوصل إلى سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط وضمانه وفقاً لأهداف ومبادئ الأمم المتحدة...[٥٤]

مثلت المعاهدة انتصاراً للسياسة السوفيتية في الشرق الأوسط، وعزز الإتحاد السوفييتي وجوده في هذه المنطقة من خلالها.فمصر هي من أكبر الدول العربية، ولها تأثير كبير في المنطقة. وكانت المعاهدة في الوقت نفسه عامل من عوامل تقوية وضع

مصر الإقليمي وعلى الخصوص تقويتها في وجه الاعتداءات الإسرائيلية والضغوطات الأمريكية·كما شكلت الأرضية التي انطلقت منها للتحضير وخوض حرب تشرين التحريرية عام ١٩٧٣م·

في وقت لاحق أصيبت العلاقات السوفييتية ــ المصرية بنكسة كبيرة عندما أمر الرئيس المصري أنور السادات بإبعاد الخبراء السوفييت عن مصر في تموز ١٩٧١م، وشكل هذا الإجراء الخطوة الأولى على طريق تحول مصر نحو الغرب والتقارب مع الولايات المتحدة الأمريكية·وأعلن بأن هذا العام ١٩٧١م هو عام الحسم، و إنهاء حالة اللاحرب واللاسلم في المنطقة· وبعد فترة وجيزة صرح بأن ٩٩% من أوراق حل الصراع العربي ــ الإسرائيلي: هي بيد الولايات المتحدة الأمريكية·

بالرغم من قرار الرئيس السادات بإبعاد الخبراء السوفييت لم يقطع الاتحاد السوفيتي علاقاته مع مصر، واستمر بتزويدها بالأسلحة الحديثة اللازمة للتحضير لحرب تشرين التحريرية· حتى السوفييت قدموا بعد حرب تشرين الأسلحة أيضاً لمصر تعويضاً لها عما خسرته في هذه الحرب· وبالعودة إلى حرب تشرين التحريرية عام ١٩٧٣م· بداية لم يكن يرغب السوفييت بأن يدخل العرب في صراع مسلح جديد في الشرق الأوسط مما قد يعرضهم إلى مواجهة كبيرة مع الأمريكيين ومع ذلك فقد أدرك السوفييت بأن العرب سيخوضون هذه الحرب لاستعادة الأراضي التي احتلتها إسرائيل عام ١٩٦٧م· هذا دفعهم إلى تزويد كل من مصر وسورية بالأسلحة الهجومية· وأثناء حرب تشرين التحريرية قام السوفييت بمد جسر جوي وبحري لإمداد كلا سورة ومصر بالأسلحة الضرورية· وبعد يومين من بدء العمليات العسكرية أصدرت القيادة السوفيتية بياناً رسمياً حدد موقفها من الحرب، وعدّت إسرائيل المسؤول الوحيد عنها وأن الدول العربية تقاتل دفاعاً عن حقوقها(٥٥).

كادت حرب تشرين التحريرية أن تتحول إلى مواجهة أوسع بين الدولتين العظميين الإتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية ·لأن كل دولة منهما لم تكن ترغب

رؤية حلفائها في وضع الهزيمة ،وكان لا بد من تدارك الوضع والاتفاق على إيجاد مخرج من الأزمة ووقف الحرب وكان صدور القرار ٣٣٨ في ٢٢ تشرين الأول ١٩٧٣م بموافقة الدولتين،حيث أكد القرار على ضرورة بذل الجهود المشتركة من قبل الدولتين العظميين ومسؤوليتهما المشتركة في حل النزاع العربي – الإسرائيلي والبدء بإجراء المفاوضات تحت رعاية مناسبة بمعنى الرعاية السوفييتية – الأمريكية.

وافق الكيان الصهيوني على القرار ٣٣٨ كما وافقت عليه مصر، في حين رفضته سورية لأنها كانت قد انتهت من الإعداد للهجوم العسكري المضاد في هضبة الجولان تقبل بوقف إطلاق النار إلا في ٢٤ تشرين أول، في حين تجاوب الأردن مع هذا القرار، أما العراق وليبيا فنددتا بالتسرع المصري لوقف المعارك[٥٦].بعد انتهاء الأعمال الحربية في حرب تشرين التحريرية سعى الاتحاد السوفييتي إلى استخدام الإمكانية المتاحة لحل مشكلة الشرق الأوسط، ودخل في مفاوضات مع الولايات المتحدة من أجل التحضير لعقد مؤتمر دولي لحل النزاع العربي – الإسرائيلي وفقاً لقراري مجلس الأمن الدولي ٢٤٢-٣٣٨.

أدى التوافق الأمريكي – السوفييتي إلى عقد مؤتمر جنيف للسلام في الشرق الأوسط في ٢١ كانون أول ١٩٧٣م على أساس قراري مجلس الأمن ٢٤٢و ٣٣٨.برعاية وزيري خارجية الاتحاد السوفيتي أندريه غروميكو، والولايات المتحدة الأمريكية هنري كيسنجر وبمشاركة وزراء خارجية مصر والأردن وإسرائيل في حين لم تشارك سورية ومنظمة التحرير الفلسطينية في أعمال المؤتمر في بداياته ولم ترسل أي من دبلوماسيها إلى جنيف[٥٧]. وسبب عدم مشاركة سورية في بداية المؤتمر هو قناعتها التي تشكلت لديها من خلال الاتصالات الدولية التي قامت بها، لأن هذا المؤتمر سيعالج فقط بعض القضايا الثانوية ويترك المسائل الجوهرية دون حل وعبر عن موقف سورية من مؤتمر جنيف للسلام في الشرق الأوسط عام ١٩٧٣م الرئيس الراحل حافظ الأسد في رسالته إلى الرئيس السادات جاء فيها: «أنني لا أرى في الأمر

ما يبعث على التفاؤل في ذهابنا إلى مؤتمر السلام من حيث أنه سيحقق تطلعاتنا العادلة، ويبدو لي من خلال موقف بعض الدول الكبرى، ومن خلال تصرفات وتصريحات المسؤولين في إسرائيل، والتي ما يزال طابعها الصلف والتكبر الفارغان أنه ليس من حقنا أن نعلق آمال كبيرة على هذا المؤتمر...»(٥٨)

أكد الاتحاد السوفيتي في المؤتمر على أهمية إيجاد حل عادل وشامل لمشكلة الشرق الأوسط. وفي ما يأتي أهم ما جاء في خطاب وزير خارجية الاتحاد السوفيتي غروميكو أمام المؤتمر: «فلكي تنعم هذه المنطقة بالأمن والسلام على الدوام ومنعاً لحروب جديدة فيها، لابد في البداية من إزالة أسباب هذا النزاع، وإعادة الأراضي العربية المحتلة بالكامل إلى أصحابها...»(٥٩) وأكد الوفد السوفييتي على ضرورة أن يقرر المؤتمر انسحاب إسرائيل من جميع الأراضي العربية المحتلة عام ١٩٦٧م.

وفي وقت لاحق أدى التنسيق السوري ـ السوفييتي إلى التوصل إلى عقد اتفاق فصل القوات على الجبهة السورية واستعادة مدينة القنيطرة دون اعتراف سورية بالصفة التمثيلية لخصومها الإسرائيليين، وأكدت موقفها المبدئي والثابت تجاه القضايا المتعلقة بجوهر النزاع القائم، ومستقبل الفلسطينيين والقضية الفلسطينية. كما استطاع المفاوض السوري فرض شروطه على الإسرائيليين والأمريكيين فيما يتعلق بعدد المراقبين الدوليين وأوضاعهم. كما شجع السوفييت هذا الاتفاق، لأن ذكر مؤتمر جنيف بمثابة دعوة موجهة لهم للمشاركة على قدم المساواة مع الأمريكيين فيما يتعلق بموضوع التسوية الشاملة...»(٦٠).

رغم مشاركة السوفييت في مؤتمر جنيف للسلام في الشرق الأوسط كرّست الدبلوماسية الأمريكية نشاطها لإيجاد حلول انفرادية وعلى الخصوص مع أنور السادات واستطاعت دبلوماسية كسينجر إضعاف الجبهة العربية المعادية لإسرائيل من خلال عقد اتفاقية سيناء المنفردة في أيلول ١٩٧٥م وكان الهدف من هذه الاتفاقية إبعاد مصر عن الاتحاد السوفييتي والتوجه نهائياً إلى الولايات المتحدة. و كان توقيع اتفاقية

سيناء ما بين مصر وإسرائيل إيذاناً بإلغاء المعاهدة المصرية ـ السوفيتية من جانب مصر عام ١٩٧٦م.

في آذار ١٩٧٧م أعاد الاتحاد السوفييتي طرح مشروع بريجنيف لحل مشكلة الشرق الأوسط. وقد جاء في أساس هذه الخطة بأنه لا يجوز السيطرة على أراض الغير بقوة السلاح والحرب، وحق جميع الدول والشعوب في هذه المنطقة في التطور والتقدم والعيش بسلام وأمن.

وأكدت الخطة على ضرورة انسحاب إسرائيل من جميع الأراضي العربية التي احتلتها عام ١٩٦٧م، وإعادة الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني، بما فيها حقه في إقامة دولته المستقلة.و نبذ الحروب وإقامة علاقات سلام ما بين الدول العربية وإسرائيل...والاحترام المتبادل لسيادة دول هذه المنطقة،.. وحل المشكلات القائمة فيما بينها بالطرق السلمية(٦١).

جوبهت المبادرة السوفيتية بمعارضة لدى القيادة الإسرائيلية. كما تقدم السوفييت في تشرين الثاني ١٩٧٧م بمبادرة أخرى مكونة من أربعة نقاط رئيسية:

١- الانسحاب الكامل للقوات الإسرائيلية من جميع الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧م.

٢- الاعتراف التام بحقوق الشعب الفلسطيني، وإنشاء دولته المستقلة.

٣- الاعتراف بحقوق دول وشعوب المنطقة، بما فيها إسرائيل بالأمن والعيش بسلام.

٤- الانتهاء من حالة الحرب ما بين إسرائيل والدول العربية.(٦٢)

لم توافق إسرائيل على هذه المبادرة، لكونها تطالبها بالانسحاب من الأراضي التي احتلتها عام ١٩٦٧، ولكون هذه المبادرة تعترف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني وإقامة دولته المستقلة. كما لم توافق عليها بعض الدول العربية التي لا تعترف بحق إسرائيل في الوجود على أرض فلسطين.

في هذه الفترة قام الرئيس الأمريكي كارتر بزيارة إلى موسكو قبل زيارة السادات إلى القدس بأيام والاتفاق بين كارتر وبريجنيف على إحياء مؤتمر جنيف للسلام في الشرق الأوسط على أساس تطبيق قرارات الشرعية الدولية، وتنصل كارتر من وعوده بعد عودته إلى واشنطن بضغط من اللوبي الصهيوني؟!

وفي الشهر نفسه ١٩٧٧م قام السادات بزيارة القدس، موجهاً بذلك ضربة قاسية لإسرائيل، للسياسة السوفيتية في المنطقة.

فانتقد السوفييت هذه الخطوة وعدّوها عقبة في طريق إحلال السلام العادل في الشرق الأوسط.

ورأت القيادة السوفييتية أن الولايات المتحدة أرادت من زيارة السادات إيجاد الفرقة بين الدول العربية المعادية لإسرائيل وتقوية إسرائيل كحليف استراتيجي لها في المنطقة. بعد ذلك عمدت الدبلوماسية السوفييتية إلى عزل نظام السادات. ووجهت الدعوة إلى بعض الشخصيات العربية لزيارة موسكو لتحقيق الهدفين التاليين:

١ـ تعزيز الاتصالات السوفيتية مع الدول العربية المعارضة للسياسة السادات، وتعزيز التعاون العسكري السوفيتي معها.

٢ـ عقد اتفاقيات تعاون ودفاع مشترك بين الاتحاد السوفيتي وبعض الدول العربية.

في أيلول ١٩٧٨م عقدت مصر وإسرائيل اتفاقية كامب ديفيد لوضع إطار لحل قضية الشرق الأوسط.

عارضت الحكومة السوفيتية اتفاقات كامب ديفيد، لأنها لم تحل أية مشكلة من مشكلات الشرق الأوسط الأساسية، وزادت في تعقيد الأوضاع في الشرق الأوسط وأكدت موقفها هذا أثناء زيارة وزير خارجيتها أندريه غروميكو لسورية ولقاءه مع الرئيس حافظ الأسد . حيث انتقد البيان السوري ـ السوفييتي اتفاقيات كامب ديفيد، والتنازلات

التي قدمها السادات لإسرائيل، وإعطاء ما يسمى بالحكم الذاتي للفلسطينيين، مما يعطي إسرائيل الحق بالاستمرار في احتلالها للأراضي العربية[٦٣]..

لابد من الإشارة إلى أن سياسة السادات الاستسلامية، وابتعاده عن الاتحاد السوفيتي والاتجاه نحو التعاون والتقارب مع الولايات المتحدة الأمريكية، جعل الاتحاد السوفيتي يعمل على توطيد علاقاته مع الدول العربية الأخرى (سورية وليبيا والجزائر واليمن الديمقراطي ومنظمة التحرير الفلسطينية والعراق...).

في هذا السياق علّق قاسم محمد جعفر على الاتفاقات بقوله «كان للاتفاقيات المصرية ـ الإسرائيلية أثر كبير على مسيرة العلاقات السورية ـ السوفيتية حيث نظر كل طرف إلى الآخر على أنه شريك لا غنى عنه، للدفاع عن مجموعة حيوية من المصالح والأهداف المشتركة التي تربط بين الطرفين بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ العلاقات الثنائية»[٦٤].

وفي الثامن من تشرين الأول ١٩٨٠م. وقع الرئيس الراحل حافظ الأسد والزعيم السوفيتي ليونيد بريجنيف على معاهدة دفاع مشترك مدتها عشرون عاماً، ربطت سوريا والاتحاد السوفيتي بعلاقات اقتصادية وسياسية وعسكرية.

وقد نصت المعاهدة في بعض بنودها على قيام الجانبين السوري والسوفيتي بالمشاورات المتبادلة فيما يتعلق بالتهديدات التي قد يتعرض لها أمن أي من الطرفين، و خروقات السلام والأمن في العالم أجمع...

تأتي أهمية المعاهدة من أنها جاءت في ظروف محلية وإقليمية خاصة ففي الفترة التي قامت حركة الأخوان المسلمين بأعمال تخريبية لضرب الجبهة الداخلية في سورية التي كانت مدعومة من بعض الأنظمة العربية المعادية لسورية (الأردن والعراق) ،كما قام الكيان الصهيوني بغزو لبنان واحتلال مناطق في جنوبه مما يشكل خطراً على الأمن القومي السوري كما كان الاتحاد السوفيتي يعاني من مشكلات إقليمية

وعلى الخصوص بعد تدخله في أفغانستان عام ١٩٧٩م· بالإضافة إلى خسارته لعلاقته المميزة مع جمهورية مصر العربية

شجعت سياسة السادات الاستسلامية وتوقيعه على اتفاقات كامب ديفيد ومعاهدة السلام المصرية الإسرائيلية الكيان الصهيوني على القيام بغزو لبنان مرة اخرى عام ١٩٨٢م·

وقد تميز الموقف السوفييتي من العدوان بالحذر واكتفت القيادة السوفييتية بالتنديد به وعدّه عدواناً على لبنان فقط، وليس على سورية ولذلك لم تتدخل وفقاً للمعاهدة الموقعة مع سوريا، ولم يتخذ السوفييت موقفاً حازماً من العدوان الإسرائيلي إلا عندما وصلت القوات الإسرائيلية إلى أبواب بيروت وحذروا إسرائيل من نقل المعركة إلى خارج الحدود اللبنانية·

يرى بشار الجعفري في كتابه السياسة الخارجية السورية «أن عوامل عديدة لعبت دوراً في جعل السوفييت موقفاً دفاعياً، منها ما هو داخلي يتعلق بموضوع خلافة بريجنيف، ومنها ما هو خارجي يتعلق بقرب موعد المفاوضات السوفييتية – الأمريكية في ٢٩ حزيران ١٩٨٢م حول الحد من الأسلحة الإستراتيجية»(٦٥).

في أيلول ١٩٨٢م أعاد السوفييت طرح مبادرة بريجنيف، حيث أكدت المبادرة كسابقاتها على عدم جواز احتلال أراضي الغير بالقوة، وإعادة جميع الأراضي التي احتلتها إسرائيل عام ١٩٦٧م، وضرورة إعطاء كامل الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني بما فيها حقه في إقامة دولته المستقلة· مع حق كل دولة بما فيها إسرائيل بالعيش بأمان· ووقف حالة العداء والحرب بين الدول العربية وإسرائيل· مع وجود ضمانات دولية لحل هذه المشكلة، والاتحاد السوفييتي مستعد للمشاركة في هذه الضمانات·

ولتنفيذ ما طرحته المبادرة السوفييتية اقترح السوفييت الدعوة لعقد مؤتمر دولي تحضره الدول المعنية بالنزاع بما فيها منظمة التحرير الفلسطينية بمشاركة أمريكية سوفيتية وبمشاركة دول الأخرى.

كان هدف السوفييت من طرح المبادرة الوقوف في وجه السياسة الأمريكية، وتحقيق الأمن والاستقرار في المنطقة خاصة وأن ذلك يتوافق مع مصالحه القومية السوفييتية. غير أن لم يستطع أن يلعب دوراً مهماً وفعالاً في عملية السلام في الشرق الأوسط، لأن الولايات المتحدة كانت تقف حجر عثرة في وجهه،معتمدة على حلفائها في المنطقة ومستغلة عدم وجود علاقات دبلوماسية بين إسرائيل والإتحاد السوفييتي حيث قُطعت بعد عدوان إسرائيل عام ١٩٦٧م.

وبعد وفاة الرئيس السوفييتي بريجنيف عام ١٩٨٢م وتسلم يوري اندربوف القيادة في الاتحاد السوفيتي قامت القيادة السوفيتية بتقديم أسلحة متطورة وعوضت سورية عما خسرته من سلاح وعتاد وعملت على تطوير منظومتها الدفاعية بعد حرب لبنان عام ١٩٨٢م.

ومع مجيء غورباتشوف إلى سدة الحكم في الاتحاد السوفيتي وطرحه سياسة البريسترويكا والانفتاح، اتجهت القيادة السوفييتية الجديدة للنظر في مشكلاتها الداخلية وسارت في سياسة الانفراج الدولي والتقارب مع الولايات المتحدة الأمريكية. وأعلنوا انسحابهم من أفغانستان عام ١٩٨٨م ووصل الأمر بالقيادة السوفييتية إلى حد الوقوف إلى جانب الولايات المتحدة أثناء حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١م. فقد أدان السوفييت احتلال العراق للكويت، وقامت موسكو بتجميد بيع الأسلحة للعراق.

وبسبب الظروف الدولية المؤاتية وبعد تحرير الكويت تم الدعوة إلى مؤتمر دولي للسلام في الشرق الأوسط في مدريد عام ١٩٩١م ـ على أساس مبدأ الأرض مقابل السلام. بإشراف الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي، وبعد هذا المؤتمر انهار الاتحاد السوفيتي. لتبدأ معه الحقبة الروسية الجديدة.

الخاتمة:

مما تقدم نستنتج إن السياسة السوفيتية تجاه الصراع العربي ــ الإسرائيلي وفي جميع مراحلها منذ قيام دولة «إسرائيل» وحتى انهيار الاتحاد السوفييتي· لاقت العديد من النجاحات والإخفاقات، وكان ذلك يعود إلى ظروف دولية تارة وظروف إقليمية تارة أخرى·

وإن سياسة الاتحاد السوفيتي تجاه الصراع في الشرق الأوسط كانت تحكمها بالدرجة الأولى مصالحه الذاتية واعتباراته الدولية· فجميع الدول وعلى الخصوص الدول الكبرى تسعى بالدرجة الأولى إلى تحقيق مصالحها القومية، وفرض هيبتها في الساحة الدولية· فقد رأينا كيف قام السوفييت بدعم قرار التقسيم عام ١٩٤٧م وأيدوا قيام «دولة إسرائيل» ثم تحول الموقف السوفييتي بصورة كاملة وانتهج سياسة مناصرة ومؤيدة للحقوق العربية وضد سياسة أمريكا· إن السياسة السوفيتية تجاه الصراع في الشرق الأوسط كانت محكومة على الدوام بالتنافس مع الولايات المتحدة الأمريكية، وكان على القيادة السوفييتية أن تحسب في سياستها الشرق أوسطية حساباً لسياسات الولايات المتحدة تجاه دول المنطقة·

ومن خلال تفحصنا للسياسة السوفيتية في جميع مراحلها نلاحظ عدم رغبة السوفييت بالتصعيد في أغلب الأحيان ،و في أن يصل النزاع والخلاف في الشرق الأوسط إلى حد الصدام المسلح والحرص على عدم الانجرار إلى هذا النزاع ومنع وقوع صدام بينهم وبين الولايات المتحدة الأمريكية· وأن سبب الإخفاقات السوفييتية في المنطقة السوفيتية هو السياسة الأمريكية النشطة·

ولم تلقَ المبادرات السوفيتية لحل مشكلة الشرق الأوسط أي صدى لدى القيادة الإسرائيلية بسبب عدم وجود علاقات دبلوماسية بينهما، وبسبب الإملاءات الأمريكية على إسرائيل لرفض مثل هذه المبادرات، كذلك لرفض العديد من الدول العربية لهذه المبادرات كونها كانت تعترف بحق إسرائيل و بالوجود والعيش بسلام في هذه المنطقة·

الهوامش

(١) منصور، ممدوح محمود مصطفى، **الصراع الأمريكي السوفيتي في الشرق الأوسط**، القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٥، ص٤٩.

(٢) الدوما، صلاح الدين عبد الرحمن، **المدخل إلى علم العلاقات الدولية**، الخرطوم، جي تاوان للطباعة، ٢٠٠٠، ص٢٧.

(٣) لينين فلاديميراليتش، **حركة شعوب الشرق الوطنية التحريرية**، موسكو: دار التقدم، ١٩٦٧، ص١٣٨.

(٤) بواندريفسكي، **سياستان إزاء العالم العربي**، موسكو: دار التقدم، ١٩٧٥، ص٣١٣.

(٥) أحمد، محمد سعيد، **الاتحاد السوفيتي والعرب في ظل التفكير السوفيتي الجديد**، المنار، العدد ٣٧، القاهرة، كانون الثاني ١٩٨٨، ص١٥.

(٦) بونداريفسكي، **مرجع سبق ذكره**، ص٣١٣.

(٧) ربابعة، غازي، **الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي والصراع في الشرق الأوسط** ١٩٦٧-١٩٨٧، عمان: دار الفكر للنشر والتوزيع، ١٩٨٩، ص١٠٣.

(٨) بونداريفسكي، **مرجع سبق ذكره**، ٣١٣-٣١٤.

(٩) الرميحي، محمد، **النفط في العلاقات الدولية**، **الكويت**: سلسلة عالم المعرفة، ١٩٨٢، ص٤٢.

(١٠) منصور، ممدوح، **الصراع الأمريكي السوفيتي في الشرق الأوسط**، مرجع سبق ذكره، ١٩٩٥، ص٩٤.

(١١) دانكوس، هيلين كارير، **السياسة السوفيتية في الشرق الأوسط** ١٩٥٥-١٩٧٥، بيروت: دار الكلمة للنشر، ١٩٨١، ص٧

(١٢) مجموعة من المؤلفين، النار والجليد، **الإمبراطورية الحمراء من المهد إلى اللحد، عام ١٩١٧، عام ١٩٩٠**، بيروت، دار الحسام للطباعة والنشر والتوزيع، عام ١٩٩٢، ص٧٤.

(١٣) فريدمان، د.، **السياسة الدولية والنزاع العربي – الإسرائيلي**، دمشق، ١٩٨٣، ص٧٨.

(١٤) **السياسة الخارجية لدول الشرق الأوسط والأدنى**، موسكو، ١٩٨٤، ص٧٣ (باللغة الروسية).

(١٥) دانكوس، هيلين كارير، **مرجع سبق ذكره**، ص٢٩.

(١٦) فاسيليف. أ، **روسيا في الشرق الأوسط والأدنى**، موسكو، ١٩٩٣، ص٤٤ (باللغة الروسية).

(١٧) المرجع **السابق نفسه**، ص٤٤.

(١٨) دانكوس، هيلين كارير، **مرجع سبق ذكره**، ص١٩.

(١٩) هيكل، محمد حسنين، **الانفجار**، القاهرة، ١٩٩٠، ص٩١.

(٢٠) المعلم، وليد، **سورية ١٩١٨–١٩٥٨ التحدي والمواجهة**، دمشق: عكرمة للنشر، ١٩٨٥، ص١٩٤–١٩٥.

(٢١) المرجع **السابق نفسه**، ١٩٨–١٩٩.

(٢٢) **الاتحاد السوفيتي والدول العربية ١٩١٧–١٩٦٠**، وثائق، موسكو، ١٩٦١، ص٢٥٥ (باللغة الروسية).

(٢٣) دانكوس، هيلين كارير، **مرجع سبق ذكره**، ٥٠–٥١.

(٢٤) أداميشين، أ، وآخرون، **تاريخ السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي (١٩٤٥–١٩٧٦)**، الجزء الثاني، موسكو: دار التقدم، ١٩٨٠، ص٣٦٠–٣٦١.

(٢٥) المعلم، وليد، **مرجع سبق ذكره**، ص٢١٠.

(٢٦) فاسيليف. أ، **روسيا في الشرق الأوسط والأدنى**، مرجع سبق ذكره، ص٥٤.

(٢٧) **المرجع السابق** نفسه، ص٥٤.

(٢٨) دانكوس، هيلين كارير، **مرجع سبق ذكره**، ص٥٩.

(٢٩) بودغوفا، بيير، **الصراع على سورية لتدعيم الاستقلال الوطني (١٩٤٥-١٩٦٦)**، دمشق: دار المعرفة، ١٩٨٧، ص١١٧-١٢١.

(٣٠) المعلم، وليد، سورية ١٩١٨-١٩٥٨ **التحدي والمواجهة**، مرجع سبق ذكره، ص٢١٥-٢١٦.

(٣١) بودغوفا، بيير، **مرجع سبق ذكره**، ص١٢٥.

(٣٢) دانكوس، هيلين كارير، **مرجع سبق ذكره**، ص٦٢.

(٣٣) أداميشين، أ، وآخرون، **مرجع سبق ذكره**، ص٣٩٤.

(٣٤) سيل، باتريك، **الصراع على سورية**، دمشق: دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٨٣، ص٣٩٢.

(٣٥) المصدر **السابق نفسه**، ص٣٩٢-٣٩٣.

(٣٦) المصدر **السابق نفسه**، ص٣٩٣.

(٣٧) ربابعة، غازي، **مرجع سبق ذكره**، ص٢٥٢.

(٣٨) دانكوس، هيلين كارير، **مرجع سبق ذكره**، ص١٢١-١٢٢.

(٣٩) Hiro, Dilip, Inside the middle East, RoutLedge and Keg an Paul, London، ١٩٨٢، ص٢٤٠.

(٤٠) رياض، محمود، **البحث عن السلام والصراع في الشرق الأوسط**، مذكرات محمود رياض ١٩٤٨-١٩٧٨، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨١، ص٧٤.

(٤١) دانكوس، هيلين كارير، **مرجع سبق ذكره**، ص٣٤٦.

(٤٢) منصور، ممدوح، **الصراع الأمريكي - السوفيتي في الشرق الأوسط**، مرجع سبق ذكره، ص٣٤٧.

(٤٣) دانكوس، هيلين كارير، **مرجع سبق ذكره**، ص١٢٣.

(٤٤) ربابعة، غازي، **مصدر سبق ذكره**، ١١٧.

(٤٥) نفس **المصدر السابق**، ص١٨١.

(٤٦) منصور، ممدوح، **مرجع سبق ذكره**، ص٣٤٩.

(٤٧) دانكوس، هيلين كارير، **مرجع سبق ذكره**، ص١٢٤.

(٤٨) Hiro, Dilip, op. cit، ص٢٥٥.

(٤٩) دانكوس، هيلين كارير، **مرجع سبق ذكره**، ص١٣١.

(٥٠) تورديييف، وآخرون: **موسكو والشرق الأوسط**، **موس**كو: دار التقدم، ١٩٨٨، ص٨٩-٩١ (باللغة الروسية).

(٥١) **تاريخ الدبلوماسية**، المجلد الخامس، موسكو، الأدبيات السياسية، ١٩٧٩، ص٤٨٨ (باللغة الروسية).

(٥٢) **المرجع السابق** نفسه، ص٤٨٨ (باللغة الروسية).

(٥٣) براندا، ٢٠ أيلول ١٩٧٠.

(٥٤) شعبان، عبد الحسين، **مرجع سبق ذكره**، ص٢٤٢-٢٤٣.

(٥٥) براندا، ٨ تشرين أول ١٩٧٣.

(٥٦) دانكوس، هيلين كارير، **مرجع سبق ذكره**، ص١٧٦.

(٥٧) **المعجم الدبلوماسي**، المجلد الأول، موسكو: دار العلم، ١٩٨٩، ص٣٦٠-٣٦١.

(٥٨) هيكل، محمد حسنين، أكتوبر والسلاح، القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ط١، ١٩٩٣، ص٧٢٨.

(٥٩) الجعفري، بشار، **السياسة الخارجية السورية ١٩٤٦-١٩٨٢**، الطبعة الأولى، دمشق: دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٨٧، ص٧١.

(٦٠) فريدمان، **مرجع سبق ذكره**، ص٩٠.

(٦١) **المرجع السابق نفسه**، ص٩٥.

(٦٢) البعث، ٢٥ تشرين ثان ١٩٧٨.

(٦٣) جعفر، قاسم محمد، **سورية والاتحاد السوفيتي**، لندن: رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٨٧، ص٣٩-٤٢.

(٦٤) **المرجع السابق نفسه**، ص٣٩-٤٢.

(٦٥) بشار الجعفري، **مرجع سبق ذكره**، ص٣٩١-٣٩٢.